
المسكوت عنه
في عصر العولمة

المسكوت عنه

في مصر المحروسة

أ.د. عواطف عبد الرحمن



بطاقة فهرسة



مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : المسكوت عنه في مصر المحروسة

المؤلف : أ.د. عواطف عبد الرحمن

رقم الإيداع : ٢٢٥٢٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى ٢٠١٠



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة منتقاه من كتاباتى التى قدمتها خلال الحقبة الأولى من الألفية الثالثة ونشرت فى الصحف المصرية (الأهرام والأهالى والعربى الناصرى ومجلة الدوار وصوت الجامعة) وتراوحت ما بين المقالات وعمود (المسكوت عنه) والتقارير الصحفية والمراثى وسجلت من خلالها انطباعاتى وتعليقاتى وآرائى عن بعض أوجه الحياة المصرية التى أُتيح لى الاحتكاك بها عن قرب سواء بحكم الانتماء الجغرافى والاجتماعى والمهنى أو باعتبارى مواطنة مصرية تتابع باهتمام مشوب بالقلق والتأمل ما يدور فى وطنها الكبير وأوطانها الصغيرة.

وقد اخترت عنوان (المسكوت عنه فى مصر المحروسة) للكشف عن المستور والمهمش والمستبعد عمداً أو بفعل تراكم تاريخى لجماع القيود والمحظورات المجتمعية التى حاصرت ولا تزال تحاصر الشعب المصرى وتحرمه من حقه الأصيل فى حرية التعبير والمشاركة فى صنع قراراته المصيرية وتفرض على المواطن المصرى ستاراً محكماً من التكتم وتدفعه إلى غض الطرف عن التصورات والكوابح والمعوقات التى تكشف عن مظاهر وأسباب الخلل والفساد المجتمعى والجمود الثقافى والتراجع الحضارى.

ويرتبط مفهوم المسكوت عنه بالأمور التى يعرفها أغلب أفراد المجتمع فى زمن ما ولا يجهرون بها بل يتواطئون عن وعى أو غفله فى إحكام ستاراً من السرية والتكتم حولها ويتعرض من يجرؤ ويهتك أستارها للاستهجان والنبذ فى حدوده الدنيا وللقهر والإيذاء الذى يصل إلى حد الاغتيال المعنوى والتصفية المادية

والاجتماعية والتشريد والمطاردة خصوصاً إذا تعلق الأمر بمصالح الفئات المهيمنة فى المجتمع. ويستهدف المسكوت عنه إقصاء الآخر برموزه وقيمه وتقاليده وأفكاره ومصالحه كى يسود فكر وقيم ومصالح هؤلاء الذين يمتلكون زمام الأمور اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ودينياً. وإذا كان التاريخ القديم والحديث والمعاصر يزخر بالعديد من صور وأشكال المسكوت عنه إلا أن أشدها تأثيراً ما يتعلق بالموروثات الثقافية ومنظومة القيم والتقاليد والتفسيرات السلفية للنصوص الدينية التى لا تزال تمارس فاعلية ملحوظة فى مجتمعاتنا العربية رغم غياب مبرراتها.

وفى مصر المحروسة تتعدد صور المسكوت عنه ولا تقتصر على مجال أو فئة اجتماعية أو رقعة جغرافية دون غيرها بل تتغلغل فى كافة مناحى الحياة المعاشة بدءاً بالأسرة والمدرسة والجامعة والنادى والجمعيات الأهلية وسائر المنظمات غير الحكومية وتشمل القرى والمدن والمناطق النائية ويمارسها الفلاحون والمهنيون والأطباء والمحامون والمعلمون والعمال وأساتذة الجامعات والطلاب وربات البيوت ناهيك عن الوزراء وصناع القرار وأعضاء البرلمان والمجالس الشعبية بل والمثقفون ومحترفو العمل السياسى إذ لا تسلم منها فئة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو دينية وكل منهم يمارسها بطريقته الخاصة.

ورغم تعدد وتنوع صور المسكوت عنه فى مصر المحروسة إلا أنها تتكثف بصورة ملحوظة فى الريف المصرى وعلى الأخص فى صعيد مصر الذى يعانى تاريخياً من العزلة الاجتماعية والتهميش الثقافى والسياسى رغم أنه يحوى معظم كنوز الحضارات المصرية القديمة بدءاً بالفرعونية ومروراً بالقبطية والرومانية والعربية الإسلامية وخرجت منه ديانة التوحيد على يد إخناتون وينتمى إليه كم هائل من الزعامات السياسية والدينية والثقافية الذين أثروا التاريخ المعاصر للمجتمع

المصرى وتركوا بصماتهم على كافة جوانبه الحضارية والاجتماعية والإنسانية. إلا أن العزلة الجغرافية وسياسات التهميش السياسى والإفقار الاقتصادى منحت سطوة استثنائية لمنظومة التقاليد والأعراف والقيم التى ظلت تحاصر أهالى الصعيد جيلاً بعد جيل مما أسهم فى اتساع رقعة المسكوت عنه خصوصاً فى النطاق الاجتماعى والسلوكيات اليومية للأفراد والجماعات فى ذلك الجزء الجنوبى من الوطن. وتشغل المرأة الصعيدية وهمومها وتطلعاتها وانكساراتها التى تتشابك وتتداخل مع هموم الرجل موقع القلب فى منظومة المسكوت عنه. ويبرز المسكوت عنه فى المجال الإعلامى من خلال التركيز على قيم وأفكار ومصالح وسلوكيات الفئات المهيمنة اقتصادياً وسياسياً وثقافياً ودينياً. وعلى الجانب الآخر يتم إسدال ستار التكتم والغموض حول كل ما يتعلق بحقوق الآخرين فى التعليم والعمل والسكن والعلاج خصوصاً حقهم الأصيل فى المعرفة وحرية التعبير تمهيداً لحرمانهم من حقهم فى المشاركة فى إدارة حياتهم بحرية كأفراد وجماعات مما يحولهم فى النهاية إلى كائنات عاجزة عن التفاعل مع ما يدور فى مجتمعهم مكبلين بتركة ثقيلة من المسكوت عنه تفرض عليهم الاستسلام للأمر الواقع والعجز عن البوح وكشف المستور مطوقين بالخوف من المجهول وغياب أى أفق مستقبلى لحياتهم أو محاولة النهوض بها وتصحيح مسارها.

وفى النهاية أهدى هذا الجهد المتواضع إلى الأجيال الجديدة من طلابى وطالباتى بقسم الصحافة وإلى أحفادى أحمد وعمر هشام ثقة وأملاً فى قدرتهم على تجاوز أسوار المسكوت عنه والتعبير بحرية عن محاولاتهم وسعيهم النبيل لصياغة صورة جديدة للمجتمع المصرى أكثر نبلاً وعدلاً.

عواطف عبد الرحمن

البحر الأعظم – سبتمبر ٢٠١٠

الفصل الأول

صور من الحياة اليومية للمصريين



1 إهداء الزهور حلال أم حرام

هل إهداء الزهور لمريض حلال أم حرام ؟ وهل وضع المانيكير لتجميل أصابع اليدين والقدمين للنساء حلال أم حرام ؟ وهل إطالة الثياب حتى نهاية القدمين حلال أم حرام ؟ وهل لبس المرأة الحلق حلال أم حرام ؟ وهل شغل أنفسنا بقذف أفغانستان وحرب الإبادة الإسرائيلية للشعب الفلسطيني والإبادة الأمريكية للشعب العراقي وضرورة تحديد موقفنا من العولمة ومنظمة التجارة العالمية واهتمامنا بآثار غياب التعددية وحرية التعبير، واهتمامنا بقضية الفقراء وازدياد عددهم وتكدس الثروات في أيدي حفنة قليلة من البشر، وحرمان الغالبية العظمى من حقهم المشروع في حياة آدمية كريمة ، ومسئوليتنا في تقويم الحكام ، وترشيد قراراتهم المصيرية تجاه الوطن ، ومطالبتنا المستمرة بتوفير الدواء والغذاء والسكن الصحي وكسائر الخدمات الصحية والتعليمية للمواطن العادي حلال أم حرام ؟

أيهما له الأولوية وأيهما الأكثر إلحاحا، وهل هناك تناقض بين الاهتمام بالقضايا الحياتية اليومية للإنسان، وبين الاهتمام بالقضايا القومية والكونية التي تحاصرنا وتحدد مصائرنا داخل أوطاننا وفي عقر منازلنا .

وهل المطلوب من الإنسان مسلما أو مسيحيا أن يركز فقط على القضايا المحورية التي تتعلق بتوفير حياة سوية متوافقة مع نصوص وتعاليم الأديان التي تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، ويتجاهل تحديات العصر ومشاكله، هل يتناقض هذا مع ذاك؟

تأمرنا الأديان بأن نكون مواطنين أسوياء في سلوكنا الشخصي أي نلتزم الصدق والأمانة مع أنفسنا، ومع الآخرين وهذا يستلزم وقوفنا ضد كل أشكال الشر والأذى أي محاربة النفاق والانتهازية والفساد سواء في تعاملاتنا الفردية أو في موقفنا مع الحكام والمسئولين وأن نملك الجرأة والشجاعة لرفع صوت الحق والدفاع عن المظلومين والمضطهدين والمهمشين في كل مناحي الحياة داخل الأسرة وفي سائر المؤسسات الاجتماعية والسياسية في المدرسة والحزب والنادي وكافة التنظيمات المجتمعية ، فندعو بالمعروف إلى اتباع صوت الحق والضمير ، وإعمال العقل وترسيخ مبادئ العدل والحرية بالحرص على حقوق الآخرين ووضعهم في حساباتنا عندما تجمح بنا طموحاتنا وأطماعنا الفردية ومراعاة المصلحة العامة التي تضمن للجميع حدا أدنى للعدالة والأمان، والاستقرار الحقيقي

الأمران متداخلان ومترابطان، أن نكون مؤمنين بجوهر الدين الصحيح، وألا نغفل ما يطرحه عصرنا من تحديات وهموم وقضايا تقتضي منا عدم إهدار طاقاتنا في توافه الأمور، أو هوامشها وتغليبها على حقائق عصرنا وما يطرحه علينا من تحديات تنال من كرامتنا كبشر ومن حقوقنا كمواطنين وتجبرنا على إغفال ما هو جوهري والانسياق وراء قوى محلية أو عالمية مهووسة بمصالحها الذاتية إلي حد إلغاء وجود الآخرين الذين يشاركوننا الحياة علي هذا الكوكب أو التمسك باجتهادات دينية كانت تناسب ظروف زمنها .

أن نحارب الفساد والنفاق والشللية وروح الأنانية المتفشية لدى نسبة كبيرة من مختلف الأجيال وأن نتسلح بقوة الإيمان وشجاعة المعرفة وألا نتوانى عن إعلاء صوت الحق في حضرة سلطان جائر وأن نتبني قضايا المستضعفين ونحافظ على نظافة أبداننا ونقاء ضمائرنا وأن نمد أيدينا للتعاون بصدق وإخلاص مع كل

الشرفاء، وأن نتحكم في غرائزنا وروح الأنانية المقيتة المتأصلة في نفوس البعض وأن ندرك أن الحياة رحبة وفيها متسع للجميع للإبداع والتفوق والازدهار في إطار التعاون والتواصل واقتسام الفرح مع الآخرين وألا نغفل في ذات الوقت عن متابعة ما يجري حولنا بالمعرفة والمشاركة وتبني المواقف الصحيحة في مواجهة الظلم والقهر والافتراء محليا في داخل بيوتنا ومواقع عملنا وعالميا في مواجهة قوى الشر والاستكبار التي تحاصرنا حيثما توجهنا تغتصب أراضينا وتشرد شعوبنا وتقتل أطفالنا وتهدد حضارتنا.

هذا هو جوهر الدين الصحيح، أن ندرك التشابه العضوي العميق بين الخاص والعام وأن نراعي التوازن والإنصاف في تعاملنا مع أنفسنا ومع الآخرين وأن نبتعد عن التعصب الممقوت والتحيز المهين والانكفاء على الذات، وألا نكف عن التعلم والاستفادة من دروس التاريخ. اللهم بلغت اللهم فاشهد.

صوت الجامعة ٢١ نوفمبر ٢٠٠١

2 الفقر في عيون الميسورين

هناك ٨ , ٢ مليار خبير فى الفقر هم الفقراء أنفسهم ومع هذا فإن خطاب التنمية المتعلق بالفقر سيطرت عليه وجهات نظر وخبرات غير الفقراء من المهنيين والسياسيين وموظفى الوكالات والبنوك الدولية. ومن وجهة نظر الفقراء فإن البؤس أو سوء نوعية الحياة يتجاوز كثيراً الفقر المادى وحده إذ أن له أبعاداً متعددة ومتشابكة وتتضافر هذه الأبعاد كى تبقى وتديم حالة العجز أى انعدام حرية الاختيار والعمل ويرى من وقعوا فى براثن الحرمان المتعدد أن الإفلات منه يتطلب نضالاً شاقا، وتبرز من تجارب الفقراء عدة أبعاد متشابكة من العجز والبؤس تدور حول عدم استقرار أسباب الرزق وافتقار المناطق التى يسكنها الفقراء إلى الخدمات الأساسية والجوع والإرهاق وسوء المظهر علاوة على اضطراب العلاقات بين الرجل والمرأة وافتقاد الإحساس بالأمان والعزلة الاجتماعية والمعاناة من تعالى وغطرسة الآخرين فضلاً عن ضعف منظمات الفقراء وعدم ترابطها بسبب الافتقار إلى التعليم والمعلومات والمهارات.

هذا ويشير نعوم شومسكى فى كتاب «الإمبراطورية الأمريكية» الذى شارك فى إعداده نخبة من المفكرين الأمريكيين وغير الأمريكيين ومنهم مجموعة من الكتاب العرب إلى أن نسبة من يعيشون تحت خط الفقر فى أمريكا «أغنى دولة فى العالم» يتجاوز ضعف النسبة فى الدول الصناعية الأخرى وأن واحداً من كل أربعة أطفال أقل من عمر السادسة يعيش تحت خط الفقر، وأن ٣٠ مليوناً أمريكيا منهم ١٢ مليون طفل يعانون الجوع فى أمريكا، كما أن هناك مليون و ٨٠٠ ألف سجين

تستخدمهم أمريكا فى إنجاز الأعمال التى لا يستطيع أصحابها تحقيق الربح دون هذا النوع من العمالة، وبالنسبة للعالم العربى كانت نسبة الفقراء فى السبعينيات لا تزيد على ٦٪ أصبحت الآن ٢٧٪ وذلك طبقاً لتقرير البنك الدولى.

وإذا كانت أمريكا تعد قاطرة الاقتصاد العالمى إلا أن معظم المراقبين يرون أن أحداث سبتمبر وما تلاها من تداعيات تمثلت فى استشراس أمريكا فى مواجهة شعوب العالم تؤذن بأن دور أمريكا فى قيادة اقتصاد العالم ربما يكون قد وصل إلى المحطة قبل الأخيرة. كما أن هذه الأحداث وتداعياتها المرعبة ستزيد من احتمالات الكساد العالمى الذى يقدر الخبراء أنه سيكون أطول وأعمق من كساد السبعينات والثمانينات وتبرز النتائج السلبية لأحداث سبتمبر فى زيادة خسائر الاقتصاديات العربية التى زادت بسبب تبعيتها للاقتصاد الغربى فقد تراجعت حركة السفر من وإلى العالم العربى بنسبة ٣٥٪ مما تسبب فى حدوث خسائر تبلغ ١٠ مليارات دولار كما انخفض تدفق الاستثمارات إلى العالم العربى وتأثرت الاستثمارات العربية فى الخارج بالكساد فى الدول الصناعية المتقدمة وتشير سوزان جورج رئيسة مرصد العولمة فى باريس والمدير المشارك فى معهد أمستردام إلى وجود حكومة عالمية واحدة غير ديمقراطية هدفها تسخير كل الأنشطة الإنسانية والبشرية من تعليم وثقافة وصحة لتعظيم ثروة مجموعة صغيرة من الدول والشركات المتعددة الجنسيات على حساب باقى شعوب الأرض.

فقد بات واضحاً للجميع أن ٢٠٪ من البشر يستهلكون ٨٤٪ من الثروة العالمية بينما يحصل ٦٠٪ على ١٢٪ من ثروة العالم ويوجد ٤٨٥ ميلياردير اً على امتداد الكرة الأرضية يتحكم ثلاثة منهم فى ثروة تساوى قيمة الإنتاج القومى لـ ٤٨ بلداً مما ترتب عليه حدوث أزمات مالية حادة مثال المكسيك التى انهارت فيها ٢٨ ألف مؤسسة بعد الأزمة المالية عام ١٩٩٥ وأصبح نصف سكانها يعيشون تحت خط

الفقر وهناك فى روسيا ٧٤٪ من سكانها يعتبرون من الفقراء الحقيقيين، وترى سوزان جورج أن الديون ليست مشكلة مالية ولكنها سياسية وأنها مفيدة لدول الشمال أكثر من الاستعمار لأنها لا تحتاج إلى جيش لإخضاع الناس.

وتتحكم الشركات متعددة الجنسيات فى ٧٠٪ من اقتصاد العالم من خلال الثلاثى المعروف، البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، ومنظمة التجارة العالمية. كما أن نظام العولمة الراهن يعمل لصالح ١٠٪ من سكان العالم ولا تقتصر مساوئ العولمة على سكان العالم الثالث بل تشمل الفئات الكادحة من الأوروبيين والأمريكيين وفى ظل العولمة أصبح الصراع الطبقى عالمياً بين الدول الفقيرة والدول الغنية وازدادت حدته بعد انفراد أمريكا بالسلطة العالمية وتزايد نفوذ الشركات متعددة الجنسيات.

ولمواجهة العولمة المتوحشة يقترح مناهضو العولمة ما يلى:

١ - إقامة اتحادات وطنية قوية.

٢- جعل التجارة العالمية متساوية وعادلة وليست حرة.

٣- إخراج التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية من السوق.

٤- فرض ضريبة على رأس المال الدولى.

٥- إلغاء ديون العالم الثالث.

٦ - إعادة هيكلة البنك والصندوق الدوليين ومصادرة ثروات حكام الدول المدينة.

وإذا لم تتحقق هذه الإصلاحات فإن البديل الوحيد المتوقع هو حدوث المزيد من المجاعات والاضطرابات والحروب الأهلية لأن الفقر المسلح سوف يخرج إلى الشارع وحينئذ لن تفلح الثروات المكدسة فى حماية أصحابها من انتقام الفقراء.

صوت الجامعة- ١٣ نوفمبر٢٠٠٢

3 || أنشودة نسائية ضد أمريكا والصهيونية

اجتمعنا للإعداد لمظاهرة (النساء ضد الحرب) للمشاركة فى احتفال نساء العالم بيوم ٨ مارس العيد العالمى للمرأة الذى تم الاتفاق على أن يخصص هذا العام لمساندة الشعب العراقى ضد الهجمة الأمريكية. كان الاجتماع يضم نخبة من النساء المصريات والعربيات من جميع الأجيال. ناقشنا المكان ميدان التحرير أمام الجامعة العربية والزمان الساعة الواحدة ظهرا تناقشنا فى الشعارات التى تكتب على اليافطات والملابس السوداء والكوفية الفلسطينية وهل ستكون مظاهرة صامتة أم بالهتافات وحرصاً على حفظ النظام داخل المظاهرة استقر الرأى على اختيار لجنة نظام .. ورغم أن حكومة الحزب الوطنى كانت قد نظمت فى اليوم السابق مظاهرة كبرى شارك فيها بضعة آلاف من جميع الاتجاهات والتيارات السياسية والمستقلة كى تعلن للعالم احتجاج مصر الرسمى والشعبى ورفضها القاطع للعدوان الأمريكى على العراق غير أن ذلك لم يحل دون إدراكنا لاحتمالات الاعتقال واستخدام العنف من جانب قوات الأمن خصوصاً وأن السلطة كانت لا تزال تحتجز فى سجن طرة بعض الشباب الذين شاركوا فى مظاهرات الأسبوع الماضى.

تساءلت إحدى الشابات من حديثات العهد بالمظاهرات قالت لماذا تفترضون أن قوات الأمن سوف تتصدى لنا والحكومة ذاتها قامت بمظاهرة كبرى ضد العدوان الأمريكى على العراق خصوصا بعد أن امتلأت شاشات التليفزيون بالمظاهرات فى كل أنحاء الأرض من أندونيسيا وباكستان إلى استراليا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا

وأمريكا اللاتينية وداخل أمريكا نفسها للحيلولة دون نشوب حرب سوف تبدأ بالعراق ولن يقتصر ضحاياها على أهالينا فى بغداد والبصرة والموصل وكركوك أستثيرت إحدى المناضلات المخضرمات وهى أستاذة جامعية وأديبة مرموقة ثم بدأت تشرح للشابه بهدوء كيف أن الحكومة توافق على خروج المظاهرات من عباءتها وتتصدى لمن يتظاهرون خارج العباءة الحكومية حتى ولو حملوا نفس الشعارات وعبروا عن ذات المواقف الحكومية. أصيبت الشابة بالدهشة وظلت تتساءل لماذا تتناقض الحكومة مع نفسها ولماذا تصر على أن تظهر مصر أمام العالم منقسمة إلى معسكرين رغم أن الخطر الذى يهددنا واحد والعدو واحد ولن تفرق صواريخ بوش بين الشعوب وبين هؤلاء الذين يحتمون بقصور الحكم . سرحت طويلا فيما تقوله هذه الشابة واستعدت على الفور المشهد اليومى الكئيب الذى يصادفنى على أبواب الجامعة والذى يتمثل فى عشرات المصفحات تطل منها وجوه الجنود الصغار يقبضون على هراواتهم وبنادقهم استعداداً لأى طارئ قد يحدث من جانب أشقائهم طلاب الجامعة .. وهذا الحدث الطارئ لن يكون سوى مظاهرة احتجاج سلمى ضد الغطرسة الأمريكية والاصرار على تدمير بلد عربى شقيق كن مهدا للحضارة العربية الإسلامية وكنا دوما نختزنه قوة احتياطية لمواجهة أهوال الصهيونية وجرائمها ضد أبطالنا الصامدين من النساء والرجال والأطفال فى فلسطين المحتلة.

فى مواجهة هذه المصفحات التى تحاصر الجامعة كنت أتمتم كل صباح فى غضب أتساءل لماذا؟ لماذا تصر حكومة الحزب الوطنى على خنق أصوات الوطن؟ أليس الأجدر أن توجه هذه البنادق إلى الأعداء الحقيقيين؟ أليس الأكرم أن ينضم هؤلاء الجنود إلى الطلاب يهتفون فى صوت واحد تسقط الغطرسة الأمريكية ويحيا كفاح الشعب المصرى والشعوب العربية. ألم يكفينا أن أمريكا نجحت فى احتلال أراضى

خمس دول خليجية بمائتى ألف عسكرى سوف ينطلقون منها لتدمير حضارة وحياة وشعب عربى شقيق وإلى متى نصبر ونحنى رؤوسنا خوفاً من البطش الأمريكى وهل ننتظر حتى تداهمنا شراذم اليانكى فى غرف نومنا، وتدوس بأقدامها ما تبقى من كرامتنا الوطنية والإنسانية وهل نرضى أن نطأطئ رؤوسنا مقابل حفنة من أرغفة الخبز الأمريكى المعجون بدماء أشقائنا وأحبتنا فى فلسطين والعراق دوامات لا تنتهى من التساؤلات الممزوجة بالحسرة والأسى ترافقنى حتى أبواب المدرج وأنزع نفسى قسرا وأتظاهر بالثبات أمام طلابى عندما أحدثهم عن أحدث نظريات العلم فى الصحافة والإعلام فى وطن مهدد وزمن عصيب .

فى اليوم التالى لبست الكوفية الفلسطينية والملابس السوداء وعندما كنت أهم بالخروج من المنزل بادرنى حفيدى متسائلاً أنت رايحة المظاهرة يعنى إيه، مظاهرة وهل أمريكا تخاف من المظاهرات؟ وعدته أن أشرح له بعد عودتى - هرولت مسرعة إلى أول تاكسى قابلنى سألنى سائق التاكسى هل تريدين الجامعة العربية إنها محاطة بجنود الأمن المركزى قلت له: إننى سوف أشارك فى المظاهرة ضد ضرب العراق انفرجت أساريره وصاح مبتهجا يا بختكم ياريت أقدر أركن التاكسى وأروح أشارك معاكم ولكن أكل العيش . قلت له كى أطمئنه لا تحزن إنها للنساء فقط انهمرت كلماته كالسيل (كل الناس عايزة تشارك وتعبر لولا الخوف من بهدلة العساكر لينا، ليه يعملوا فينا كده هو احنا صهاينة إحنا ضد أمريكا وإسرائيل والذل والفقر اللى جابوه لنا هم يوم ما اصطلحنا معاهم).

حاولت أن أهدئ من روعه وأسرعت بالنزول من السيارة وعندما هممت بإعطائه الأجرة رفض بإصرار وودعنى بصوت متهدج قائلا: ربنا معاكم وربنا يستر على البلد من الأهوال اللى جاية.

اعترضنى فى مدخل المظاهرة بعض الشباب من الضباط قلت لهم مش حاتهتفوا معانا قالوا فى نفس واحد طبعا هو إحنا مش مصريين ولا إيه قلت لهم أنتم مصريين ونص وياريت تطبقوا الكلام ده فعلاً.. حملنا اليفط ورفعناها عالية كى يراها المارة فى ميدان التحرير وتسلقت بعض الشابات سور الجامعة الأمريكية وارتفعت حناجرهن بالهتافات لمساندة الشعب العراقى قالوا (يا عراق يا عراق كل الشعب العربى فداك)، (يا بغداد يا بصرة يا غزة الاستشهاد فى سبيلكم عزة)، (فدائية فدائية من بغداد لإسكندرية) (دجلة والفرات حالفين ياخدوا بتارك يا فلسطين).

وفى مواجهة أمريكا قالوا (يا أمريكا لمى جيوشك بكره الشعب العربى يدوسك)، (الشعب العربى شادد حيله مش حنطاطى لبوش ولا غيره)، (بس يا بوش فاهمين ألاعيبك الشعب العربى مش حيسيبك).

(قولوا ورايا يا شباب أمريكا أصل الإرهاب)، (أسرة واحدة عربية ضد الحرب الأمريكية والمذابح الصهيونية) وفى مواجهة الإجرام الصهيونى فى فلسطين هتفوا (اسمع أم شهيد بتنادى الصهاينة قتلوا أولادى)، (الصهاينة الأندال ياما قتلوا منا رجال)، (الصهاينة الكلاب ياما قتلوا منا شباب)، (راح حقوقها جيل ورا جيل بنعاديك يا إسرائيل) (يا صهيونى اطلع بره مصر بلدنا حتفضل حره).

فى أول مطلب للجماهير طرد سفير إسرائيل (قولوا ورايا يا شباب إسرائيل رمز الإرهاب)، (طفل ماخدش الرضعة ياناس جات له الرضعة فى صورة رصاص)، (اللى حيضرب فى فلسطين بكره حيضرب فى الحسين).

ولمصر تعالت الهتافات (عاش كفاح الشعب المصرى)، (قولوا الحاكم مصر وسوريا أمريكا بتخاف من كوريا)، (علشان أهلى عشان أولادى مش راح أفرط فيك يا بلادى)، (مش حنسلم مش حنطاطى إحنا كرهنا الصوت الواطى)، (اعلوا

وعلوا وعلوا الصوت اللى حيهتف مش حيموت).

ظللت أتأمل وقع الهتاقات على وجوه العساكر الذين يحاصرون المكان وتساءلت في نفسى ترى كم شهيد من أقاربكم اغتالته الصهيونية فى حروبنا المتوالية ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ وكم مريض سقط صريعا بفعل التقاوى الزراعية الصهيونية المسمومة التى أحالت خضرواتنا وفاكهتنا إلى قنابل صغيرة داخل أحشائنا فى ظل السلام البارد وكم أطفال لم يولدوا بعد سوف يحملون الراية ويواصلون مسيرة الشهداء الأبرار ومتى تظهر بوادر الفجر القادم.

العربى الناصرى مارس ٢٠٠٣

4 أين موقع العرب على خريطة العالم

أليس مثيراً للدهشة أن ينقسم العالم إلى قطبين، قطب كبير يضم شعوب العالم التى أعلنت رفضها القاطع واحتجاجها على العدوان الأمريكى على العراق عبر مظاهرات حاشدة اجتاحت الدول والمدن فى شمال العالم وجنوبه وشرقه وغربه فى مواجهة قطب صغير يضم ثلاث دول هم أمريكا وتوابعها من الخدام الصغار بريطانيا وأسبانيا، القطب الأول الأكبر يملك الحق ويختزن فى ذاكرته ووجدانه ويلات ومرارات الحروب السابقة وخسائرها البشرية الفادحة والقطب الثانى الأصغر يفتقر إلى المشروعية ولكنه يملك أحدث تكنولوجيا الدمار الشامل ويصر على شن حرب غير عادلة ومرفوضة بإصرار من جميع شعوب الأرض.

كثرت التساؤلات عشية اجتماع مجلس الحرب الثلاثى الجهنمى فى قاعدة عسكرية نائية يجتمع ليستمع إلى ما خططه العسكر يناقش لدفع العسكر للذهاب إلى أبعد مما خططوه ويقرر فتتحرك الآليات وتجتاح وتقتل وتدمر وتحتل، لا يدرس هذا المجلس الانعكاسات الخارجية ولا يعنيه مجلس الأمن ولا الأمم المتحدة ولا ينصت إلى أصوات الحشود الغاضبة من ملايين البشر، كثرت التساؤلات عن مصير النظام الدولى الراهن وهل ستعد الحرب المؤكدة بنظام دولى جديد؟ إن الانعكاسات السلبية تخيم بظلالها القاتمة على المناخ الدولى من الأمم المتحدة إلى الاتحاد الأوروبى إلى حلف الأطلسى ومن العلاقات الغربية الغربية إلى العلاقات العربية العربية عدا ذلك فإن الزلزال فى العراق الذى قد يقلب الأوضاع الإقليمية

رأساً على عقب مما سيؤدى إلى تهميش القضية الفلسطينية فى مواجهة أعباء ما بعد الحرب التى ستكون أكثر ضغطاً فى مرحلة إعادة بناء النظام الإقليمى وعلى الجانب الآخر تبدو أمريكا فى أشد حالات الغطرسة والاستبداد حتى مع أقرب حلفائها الذين بغيرهم لم يكن ممكناً لها مطلقاً أن تكسب الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى الأوروبى كما لم يكن ممكناً أن يصمد الاقتصاد الأمريكى بكل أمراضه المستعصية والمسكوت عنها إعلامياً وأمريكياً لولا بلايين الدولارات التى تتدفق يومياً من هؤلاء الحلفاء للاستثمار داخل أمريكا وقد عبر أحد الرسامين الأمريكيين المعارضين للحرب عن أزمة الاقتصاد الأمريكى فى ملصق يظهر فيه بوش مرتدياً قبعة طويلة بألوان العلم الأمريكى يشير إلى جانب الصورة داعياً المواطن الأمريكى للمشاركة فى الحرب قائلاً له «نريدك أن تنسى كل شيء عن البنوك المنهارة والتعليم والمخدرات والإيدز والبطالة والفساد والجريمة المنظمة والعنصرية والرعاية الصحية المتدهورة تمتعوا بحرب طيبة».

وإذا كانت اللحظة الحالية تمثل منعطفاً حرجاً وحاسماً فى التاريخ المعاصر إذ تنذر باختفاء الخريطة الراهنة الأحادية القطب للعالم وظهور خريطة جديدة متعددة الأقطاب فإن السؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح أين موقع العرب على الخريطة الجديدة.

لقد ساهمت الحكومات العربية بكفاءة غير مسبوقة فى خلق العديد من اللحظات الحرجة فى التاريخ العربى الحديث منذ النكبة عام ١٩٤٨ والهزيمة عام ١٩٦٧ والاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ والاجتياح العراقى للكويت عام ١٩٩٠ وها نحن الآن أمام سنة الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣ هذا عدا عشرات الانقلابات والحركات التصحيحية والحروب الأهلية والاختناقات

السياسية أحياناً والاقتصادية أحياناً أخرى، وسنوات الاستعمار ثم الاستقلال، معظم الحكومات العربية مضى عليها عقود وهى فى الحكم وأكثر لحظاتنا حرجاً وخطورة حدثت خلال هذه الفترة تحديداً والتاريخ يؤكد مسئوليتها عن كل ما حدث لكنه يقول أيضاً إنها لم تتعلم من اللحظات الصعبة التى ساهمت فى خلقها أو تسببت فيها على كثرتها لماذا؟ لأن التعلم يترتب عليه ثمن سياسى والأنظمة العربية ليست مستعدة لدفع هذا الثمن، والشعوب العربية دفعت ولا تزال تدفع ثمن أخطاء الحكومات وليس أمامها خيار الآن سوى مواجهة أقدارها بصبر ينطوى على إرادة التغيير القادم لا محالة.

صوت الجامعة ٢٦ مارس ٢٠٠٣

5 خط الدفاع الأخير

استمعت إلى أحد برامج التليفزيون المخصصة لقياس المعلومات العامة لدى شباب الثانوية العامة من الفتيان والفتيات، وقد أفزعنى كم الجهل بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى، والثقافى، ولقد بح صوتنا من المطالبة بضرورة وضع برامج ومقررات دراسية متكاملة وشيقة لتدريس تاريخ الوطن مصرياً وعربياً، خصوصاً أن المسابقات الدولية التى تنظمها «اليونسكو» عن تاريخ مصر بالذات يتفوق فيها دائماً الشباب الأوروبى خصوصاً الفرنسى، وتكمن المأساة فى أن المقررات الدراسية التى يحشون بها أدمغة التلاميذ تبدو وكأنها آيات سماوية لا يمكن إعادة النظر فيها وتنقيتها وإنقاذ التلاميذ من مساوئها، برغم ما تتسم به من جفاف وتجزئ وانتقائية. والسؤال: هل هناك ثروة تملكها مصر أعز من عقول أبنائها؟ وهل هناك سلاح نستطيع أن نواجه به تحديات الزمن القادم أكثر من المعرفة العلمية المتطورة والمحفزة للإبداع والقادرة على ترسيخ الانتماء للوطن وتاريخه؟ نحن فى أمس الحاجة إلى تدريس تاريخنا القومى بمنظور جديد، إيماناً منا بأن هذه المادة ضرورية للأمن القومى المصرى ولترسيخ الانتماء لدى الأجيال الجديدة، ونحن لا ندعو إلى بدعة فجميع دول العالم تضع فى مقدمة أولوياتها التعليمية تدريس تاريخها القومى – مثلما يدرس تاريخ فرنسا للتلاميذ الفرنسيين وتاريخ أمريكا للتلاميذ الأمريكيين – وتاريخ أفريقيا للطلاب الأفارقة.. كل بلد فى العالم يحرص على أن يغرس روح الانتماء لدى أبنائه وبناته منذ طفولتهم المبكرة من خلال الاهتمام بتدريس تاريخ

الـوطن بأحداثـه وشخصـياته ورمـوزه وأبطالـه فى جميـع مراحـل التعلـيم العـام والجامعى.

نحـن نـدعو جميـع المسـئولين عـن التعلـيم فى مصر إلى ضـرورة تـدريس التـاريخ المصرى بكامل مراحله الفرعونيـة والقبطيـة والإسـلامية وتـدريس التـاريخ العربـى بمختلف فصوله الدامية والزاهية.

ونحذر من جعل مادة التاريخ مادة اختيارية، فاللغة العربية والتاريخ همـا فـرض عين وليسا فرض كفاية فى تنشئة وإعداد الأجيال الجديدة.. وأقول هذا وأشدد عليه خوفاً من الخضوع للطوفان القادم الذى يسـتهدف عقـول أبنائنـا بمزيـد مـن الحشـو واللغو وما يسمى ثقافة التسامح وثقافـة السـلام، وأراضـينا لا تـزال محتلـة ومصـائر أوطاننا لا تزال مهددة، ولم يعد أمامنا سوى خط الدفاع الوحيـد وهـو عقـول أبنائنـا وحمايتها من مخاطر الزمن القادم.

جريدة الأهرام – ١٨ يونيو ٢٠٠٣م

6 مغزى الفوز

فوز محمد عطية بالجائزة الأولى فى أحد برامج الفضائيات العربية والذى تحول فجأة إلى نجم يستقبله الآلاف من الشباب لدى وصوله إلى مطار القاهرة يثير العديد من التساؤلات حول أوضاع الجيل الحالى من شباب مصر خصوصا عندما يصبح الطريق الوحيد للخلاص الفردى ترويج أوهام النجومية وحلم الغنى والثراء بمسابقات الفضائيات.

لقد استطاع من كانوا فى مثل عمر محمد عطية فى الأجيال السابقة أن يشاركوا فى إشعال ثورة ١٩١٩ وقيادة انتفاضة ١٩٤٦ والكفاح المسلح فى القنال عام ١٩٥١ وأن يثوروا ضد المسئولين عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى مظاهرات الطلبة ١٩٦٨ وضد المسئولين عن إفقار وتبعية الوطن فى مظاهرات الخبز فى يناير ١٩٧٧.

ولكن أصبح جيل محمد عطية محاصراً بين تعليم تلقينى هابط فى المدارس والجامعات يلغى قدراته على التفكير ويصادر حقه فى التعبير ويلقى به بعد التخرج إلى أتون وجحيم البطالة ويجبره على العمل فى المقاهى والكافتيريات لخدمة الزبائن من الأثرياء الجدد من تجار المخدرات والسلاح وأباطرة الفساد الحكومى وسادة السوق، هذا الجيل الذى يقف حالياً فى مذلة على أبواب البرامج الفضائية يستجدى وهما زائفا بالثراء والنجومية.

هل هذا هو مصير الشباب فى مصر فى الوقت الذي يواجه شباب فلسطين جرائم الإبادة اليومية التى ترتكبها الدولة الصهيونية ويواجه الشباب العراقى محاولات

الدمار الشامل التى تقذفها أمريكا وأعوانها ضد الشعب العراقى.

هل هذا هو النموذج المستقبلى أو طريق المستقبل الوحيد الذى يستهدفه ويخطط له النظام المصرى للشباب.

إننى أتساءل وكلى حزن، هل فوز محمد عطية الذى احتشد له بضعة آلاف من الشباب فى مطار القاهرة ليس ناقوسا يدق لكل من يعنيهم مستقبل هذا الوطن الذى سيصنعه جيل محمد عطية؟ إننى أقدر سعادة محمد عطية بهذا الفوز وأشاركه الفرح الشخصى إلا أننى لا أمنع نفسى من تأمل مغزى هذا الفوز وتأثيره فى مجتمع تضرب البطالة عموده الفقرى وينخر الفساد فى قياداته العليا ويشيع بين أفراده الوهم الزائف بالثراء من خلال برامج ومسابقات الفضائيات التى تروج لكل ما هو معاد للنهوض الجاد وتبدد ثروات الأوطان وتهدر طاقات الشباب بدلاً من القيام بدورها المتوقع فى بناء الاستنارة والوعى بتحديات العصر وتعزيز الانتماء الوطنى والقومى وفتح آفاق المعرفة الحقيقية والعمل الجاد واستنهاض الإرادات للوقوف فى وجه مشاريع الإبادة الصهيونية والأمريكية وتشجيع الشباب على الإبداع الذى يفتح أمامهم طريق المستقبل بدلاً من إهدار أعمارهم فى مسابقات التيه والضياع.

أيها الشباب انتبهوا إن مستقبل أوطانكم لن تصنعه المسابقات الخادعة ولا أوهام الفوز الفردى بل السعى الجاد لفهم حقائق العصر وامتلاك القدرة على التمييز بين هؤلاء الذين يدفعونكم للنهوض من خلال المعرفة والعمل الجاد وأولئك الذين يصرون على تهميشكم وإلغاء أدواركم وحرمانكم من حقوقكم المشروعة فى المشاركة فى ثروات هذا الوطن وتحديد مصائره وذلك يجركم إلى متاهات الضياع وأوهام المسابقات المزيفة.

صوت الجامعة – ١٩/ ٤/ ٢٠٠٤

7 لا أجد تفسيراً مقنعاً

يعلم الجميع أن الحصول على درجة الدكتوراه فى أى فرع من فروع المعرفة يتطلب إعداداً وتأهيلاً علمياً ومهنياً لا يقل عن عشر سنوات، يتردد خلالها الباحث على المكتبات وكبار الأساتذة المتخصصين، ينهل من خبرتهم الأكاديمية ويتابع مناقشاتهم العلمية فى الندوات والمؤتمرات، ومناقشات الرسائل فى القاعات الجامعية، وقد يتعرض الباحث لبعض الأزمات والمشكلات الاجتماعية أو المالية، ناهيك عن الإشكاليات العلمية التى تصادفه فى كل خطوة يتقدم خلالها فى مسيرته البحثية، وقد يكون الباحث سعيد الحظ فتضع الأقدار فى طريقه أساتذة أمناء يمنحونه المشورة الصادقة والرعاية المخلصة ويدفعونه بالتشجيع حتى يشتد عوده العلمى وترتفع قامته تدريجياً إلى أن يبلغ بر الأمان ويحصل على الدرجة العلمية.

أقول هذا بمناسبة الظاهرة التى استشرت فى السنوات الأخيرة والتى تتمثل في وجود حرف «د» الذى يرمز إلى لقب دكتور فى فلسفة العلم أمام العديد من النساء والرجال، الذين أعلم ويعلم الجميع أن تأهيلهم وثقافتهم لم تتجاوز أسوار المرحلة الجامعية الأولى وبتقدير مقبول، ولا أجد تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة سوى تفشى سطوة المال والنفوذ التى طغت على جميع القيم، ولم يقنع أصحابها بما حققوه من شهرة قد تكون مبنية على أسس حقيقية أحياناً، ولكنها فى الغالب ليست كذلك فامتطوا خيولهم الجامحة، وانتهكوا حرمة العلم وانتحلوا ألقابه لأنفسهم دون وجه حق ودون حياء. إننى أتعجب وأندهش وأتحسر على هذا التبجح والخواء الذى يملأ نفوس هؤلاء البشر.

الأهرام – ١٣/ ١١/ ٢٠٠٤

8 || استقالة ضابط شرطة

كان والده يحلم بإلحاقه بكلية الشرطة كى يتخرج ضابطاً تزهو به أسرته ويجدد لوالده ذكرى جده الذى كان يعمل نائب حكمدار بإحدى الأقاليم أوائل القرن العشرين كانت تركيبة الشخص النفسية والذهنية تنفر من ضباط الشرطة وزاده نفوراً منها سطوة والده وتسلطه البطريركى الذى كان يحرص على أن يحيطه بغلاف من السوليفان مدعياً خوفه على مصير ابنه ولو بلى عنقه وإجباره على تحقيق أمنية الأب امتثل الابن ودخل كلية الشرطة وعاش صراعات متصلة خلال سنوات الدراسة بسبب عدم تكيفه مع البيئة البوليسية التى ألحق بها قسرا ثم تخرج واحتفل به والده وكان يرقص طربا عندما رآه بالبدلة والكاب الميرى حيث استعاد ذكريات الأيام الخوالى مع والده ولمعت عيناه ببريق عجيب كان يعكس إحساساً بالنشوة التى لم يعهدها الابن فى والده من قبل استثمر الأب اتصالاته بكبار القوم ونجح فى استثناء ابنه من الذهاب إلى إحدى محافظات الصعيد وتم تعيينه فى أحد أقسام البوليس بالعاصمة أمضى الابن ثمانية شهور فى عمله صادف خلالها أهوالاً من الأحداث والحالات والجرائم وافتراءات رؤسائه وتعليماتهم وكاد يفقد عقله بعد أن فقد صوابه عدة مرات وكان على وشك الاشتباك اليدوى مع بعض رؤسائه فاقدى الضمير والحس الإنسانى مما دفعه إلى الذهاب إلى أحد الأطباء النفسيين بعد إصابته بانهيار عصبى ونفسى نصحه الطبيب بضرورة تغيير المهنة لأن تكوينه النفسى والعصبى لا يلائم هذه المهنة «ضابط بوليس» فهو لا يزال يملك ضميرا حيا وقلبا مرهفا حنونا ونفسا نقية وعقلا يقظا وفى اليوم التالى قدم استقالته وافتتح مكتبا للمحاماة.

صوت الجامعة – ٢٩ مارس ٢٠٠٥

9 السويس في زمن السلم

مدينة السويس..

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى..

أستشهد تحتك وتعيشى إنت..

صوت محمد حمام ينطلق من الراديو مردداً كلمات «الأبنودى» الخالدة عن مدينة السويس، التى وقفت على خط النار فى مواجهة تاريخية شجاعة ضد أعداء الوطن. سمعت الأغنية تنطلق من مذياع بأحد المقاهى رفعت عيناى كى أقرأ لافتة بعنوان (كافيتريا أكسفورد)، والتفت مذهولة إلى الجانب الآخر من الشارع الرئيسى كى أشاهد عمارة ضخمة عليها لافتة أخرى تحمل اسم (فندق البيت الأبيض).

تساءلت ما الذى حدث لهذه المدينة التى ألهمت الشعراء ببطولاتها الفذة والتى طالما تغنينا بصمود أبنائها عندما كانوا يرفعون لواء الدفاع عن شعب مصر كله، وكنا فى القاهرة نواصل حياتنا الطبيعية نعمل ونلهو ونتزاور، ونقرأ فى الصحف عن أخبار المعارك، وبطولة أهالى السويس، ولقد صادفتنى أثناء مرورى فى شوارع المدينة كثير من المبانى القديمة التى اخترقت أجسادها الصواريخ الإسرائيلية وأحدثت بها فجوات، ليتها تنطق بما حدث تذكرنا وتعيدنا إلى وعينا وتاريخنا القريب، المنازل القديمة التى تحمل آثار العدوان الإسرائيلى تقف شامخة، وبجوارها عشرات المبانى الجديدة، فنادق ومنازل وملاهٍ وشاليهات ومقاهٍ ودكاكين صرافة،

بعضها يضع الدولار فى صورة مكبرة كلافتة وشاهد على العصر الجديد الذى تعيشه المدينة الآن.

كنت أتوقع أن أشاهد دكاكين وبيوتاً وفنادق تحمل أسماء الشهداء أو المعارك التى خاضوها دفاعاً عن قدسية ترابها وإصرارهم على وضعها فى مكان القلب من جسد الوطن. كنت قد وصلت إلى ميناء السويس لاستقبال أمى عند عودتها من العمرة، أمضيت ٨ ساعات حتى يسمح لنا بدخول الميناء.. عالم فسيح تتداخل فيه كل نوعيات البشر والبضائع ولابسى الميرى والمحجبات والسافرات، وتقف المركب (القمر السعودى) ضخمة تثير فى داخلى شتى الانفعالات، الرهبة والخوف بسبب الضخامة، والغربة بسبب الأعداد الهائلة من البشر الذين يجرون الأكياس، والصناديق والحقائب ويأتى الصوت فى الميكروفون عالياً (البضائع أولاً ثم الركاب) ويتردد صدى الصوت فى داخلى (البضائع أولاً وأخيراً ثم يأتى دور البشر فى النهاية إذا كان لهم مكان)، فى صالة الجمرك ينتشر رجال الأمن والجمارك وبجوارهم العشرات من أشباه الرجال يعرضون خدماتهم المشبوهة تتعالى الأصوات وتختلط المساومات والعروض المريبة من جانب بعض المحترفين لهذه المهن العجيبة التى انتشرت فى موانينا المصرية. نحاول أن نتفادى هذا وذاك كى نهرب بجلودنا سالمين. تخترق السيارة طريقها بصعوبة عائدة إلى القاهرة فى الساعات الأولى فى فجر اليوم التالى تتداعى الذكريات.

جريدة الأهالى – ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

10 الحل العبقري

تكدس السكان أمام شقتى، فخرجت أستطلع الأمر، فوجدتهم فى حالة غضب وهياج شديد احتجاجاً على النظام الجديد الذى يقضى بتحميل فاتورة الكهرباء مبلغ ثمانية جنيهات شهرياً نظير جمع القمامة، وتكليف السكان بحملها يومياً إلى «الفناطيس» الموضوعة أمام العمارات، قالوا: كيف يتسنى لكبار السن أن يقوموا بهذا العمل خصوصاً سكان الأدوار العليا برغم أن عمال القمامة كانوا يقومون بجمعها يومياً من أمام الشقق نظير مبلغ ثلاثة جنيهات فقط شهرياً، علاوة على أنه لم يؤخذ رأينا فى النظام الجديد، وأين المجالس المحلية التى يجب أن تدافع عن حقوقنا ومصالحنا؟! تذكرت على الفور الحل العبقرى الذى ابتدعه محافظ قنا اللواء عادل لبيب الذى نجح فى تحويل محافظة قنا إلى قطعة من البهاء والبهجة والنظافة ليس لها نظير فى أنحاء مصر سوى مدينة الإسكندرية.

وقد حدثنى المحافظ عن تجربته فى زيارتى الأخيرة لقنا، فقال: لقد فكرنا – فى البداية – فى الاستعانة بشركة أجنبية، واكتشفنا أن ذلك سوف يكلفنا مليوناً ونصف مليون جنيه ولما كانت ميزانية المحافظة لا تسمح بذلك قررنا الاستعانة بالكفاءات المحلية من المهندسين وخبراء البيئة، وبعد إجراء الدراسات اللازمة وجدنا أنها ستكلفنا ٤٠٠ ألف جنيهاً فقط مع تشغيل العمالة المحلية من حملة المؤهلات المتوسطة، وبدأنا التنفيذ على الفور حيث تم توزيع الأكياس السوداء التى يتم تصنيعها محلياً على الأهالى نظير جنيهين شهرياً، ويتم يومياً جمع الأكياس فى ساعة

مبكرة من الصباح، ويقوم الشباب بوضعها فى القلابات التى تتولى حملها إلى المواقع المحددة لها خارج المدينة، ثم يتم فرزها وإعادة تدويرها، وهكذا تخلصنا من مشكلتين فى آن واحد: جمع القمامة وتنظيف المدينة، وتشغيل الشباب المتعطل دون الإخلال بميزانية المحافظة. والسؤال لماذا لا يتم تعميم هذه التجربة فى باقى المحافظات خصوصاً محافظتى القاهرة والجيزة؟ وإلى متى سنظل فاقدين الثقة فى الخبرة المحلية ومتعلقين بأوهام الخبرة الأجنبية حتى وإن تعارضت مع ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية؟!

الأهرام - الأربعاء ٢٨ مايو ٢٠٠٣

11 خبر عجيب.. وقضية مزمنة!!

يتردد فى الوسط الثقافى خبر عجيب مفاده أن الفنان رسام الكاريكاتير المتميز بعبقريته ومواقفه حجازى قد ترك شقته بالقاهرة وسلم مفاتيحها لصاحب المنزل وعاد إلى موطنه فى مدينة طنطا، ووجه الغرابة فى الموضوع أنه سلم شقته بدون أى شروط مالية أو اجتماعية، وهذا السلوك لم يعد شائعاً فى هذا الزمن الرديء وعندما تأملت هذا الموقف النبيل المترفع عن السلوكيات التى شاعت فى السنوات الأخيرة تذكرت على الفور مأساة آلاف الأسر التى تعتمد فى مصادر رزقها على الإيجارات الضئيلة للمساكن القديمة والتى لم تعد تفى بالحد الأدنى للضروريات الحياتية لتعساء الحظ، وأغلبهم من الأرامل والأيتام وكبار السن الذين لم يعد لهم أى مورد آخر سواء المعاشات أو الإعانات ولا يزالون متعلقين بأمل سرابى فى أن يصدر القانون الجديد للإسكان الذى يحمل لهم بعض الحلول العادلة لأزمتهم الخانقة، هناك مليوناً شقة خالية ومغلقة بمحافظتى القاهرة والجيزة وهناك ٦٥٠ ألف شقة لا يزيد إيجارها القديم على ثلاثة جنيهات و٢٣٠ ألف شقة يتراوح إيجارها بين خمسة جنيهات وسبعة جنيهات، وتشير الأنباء المؤكدة والمنشورة فى الصحف إلى وجود بعض العناصر المستفيدة من الوضع الراهن والتى تحول دون صدور القانون الجديد للإسكان، كما أن هناك إهمالاً قد يكون غير متعمد لاحتياجات وحقوق هذه الأسر المنكوبة والتى سدت أمامها جميع أبواب الرحمة برغم أنهم ملاك للمنازل القديمة ذات الإيجار المنخفض والذين يتعرضون لكافة أشكال الابتزاز والمساومة

من السكان الذين يورثون الشقق لأبنائهم وأحفادهم دون أدنى مراعاة لهؤلاء الملاك ضحايا القرارات الاشتراكية التى صدرت فى عصر كان يسعى لإنصاف ذوى الدخل المحدود بتوفير المساكن بإيجارات معقولة بمقاييس ذلك الزمان، ولكن رياح الخصخصة القاسية، وانتشار التمليك واشتداد أزمة المساكن داست بأقدامها الوحشية على [illegible] ملايين الشباب فى إمكانية الحصول على مسكن للإيجار، وكان ضمن هؤلاء [illegible] ملاك المساكن القديمة الذين لا حول لهم ولا قوة.

جريدة الأهرام - ١٦-١١-٢٠٠٣م

12 المناطق المحرمة

كنت عائدة منذ عامين من إحدى سفرياتى بالخارج، واستدعى الأمر أن أقف بسيارتى قريباً من مقر رئيس الجمهورية لكتابة بعض القرارات المهمة التى تمخض عنها المؤتمر العلمى الذى شاركت فيه فى سنغافورة للتنسيق مع زملائى لعقد المؤتمر القادم بمصر ولم يعترض طريقى أحد من الحراس وإنما فقط نظروا لى وتركونى حتى انتهيت من الكتابة ثم انصرفت.. وفوجئت هذا العام بحدثين أثارا انتباهى ولم يمنعانى من إجراء هذه المقارنة فقد اضطرتنى الظروف أن أقف على كورنيش النيل أمام السور الخلفى للسفارة الأمريكية لتسجيل بعض الأمور المهمة خشية أن تضيع من ذاكرتى فى زحمة الاهتمامات والمشاغل اليومية فإذا بى أفاجأ بحشد من الحراس الذين يلبسون ملابس مدنية يحاصروننى والشرر ينطلق من عيونهم وهم يحذروننى ويطالبوننى بضرورة الابتعاد فوراً لأننى أقف فى منطقة محظور الوقوف فيها، والحدث الثانى وقع فى الأسبوع نفسه عندما حاولت أن أركن سيارتى أمام نادى تجديف الشرطة المجاور لنادى تجديف جامعة القاهرة الذى كنت أتوجه إليه حيث جاءنى أحد المخبرين وأشار لى باستعلاء لا يخلو من الشراسة، وآمرنى بالابتعاد فوراً لأنها منطقة مخصصة للشرطة فقط إننى أتساءل هل صدرت قوانين لم تنشر فى جريدة الوقائع المصرية تفيد حرمان المواطن المصرى المسالم مثلى من الاستمتاع بحق المواطنة فى استخدام الأماكن العامة للتوقف برهة من الوقت إذا اضطرته الظروف؟ وهل تمت خصخصة أراضى الوطن لصالح بعض الجهات الأجنبية أو المحلية دون أن ندرى؟

بريد الأهرام - ٩ مايو ٢٠٠٤م

13 قضاة الأمس واليوم

حكاية سردها لى أحد المحامين المخضرمين فى قرية درنكة قال فى بداية الستينيات وفى إحدى ليالى الشتاء الباردة وبعد أن انتصف الليل دق أحد القضاة باب الحجرة المجاورة له فى استراحة القضاة بإحدى مدن الوجه القبلى وكان يقيم بها أحد المحامين الذين ترافعوا فى إحدى القضايا وكسبها ولما صدر الحكم لصالح موكلته التى استعانت به لطرد سيدة كانت تستأجر إحدى الشقق بعمارتها وتعثرت فى دفع الإيجار لمدة أربعة أشهر وكان الإيجار حينذاك لا يزيد عن ثلاثة جنيهات شهرياً رحب المحامى بالقاضى الزائر على غير موعد وسأله مستفسراً عن سر هذه الزيارة الليلية بادره القاضى بالتهنئة لفوزه بالحكم لصالح موكلته ولكنه أعرب له عن أسفه الشديد لأنه أصدر هذا الحكم المنصف بحكم النصوص القانونية ولكنه يفتقر إلى روح القانون لأنه أغفل وضع السيدة المتعثرة فى دفع الإيجار وكيف سيكون مصيرها بعد صدور الحكم بطردها واقترح عليه أن يبذلا جهدهما للاتصال بموكلته وإقناعها بضرورة التصالح مع السيدة المتعثرة بعد أن يدفع لها القاضى قيمة الإيجار المتأخر ووافق المحامى على هذا الاقتراح ولم ينم القاضى إذ ظل ساهرا يعتصر رأسه من القلق وعندما هل الصباح ذهب الاثنان إلى السيدة التى اندهشت لقدوم محاميها فى هذا الوقت المبكر وكان قد أخبرها تليفونياً بفوزها بالحكم لصالحها فظنت أنه جاء للحصول على باقى الأتعاب ولكنه أخبرها بوجود القاضى الذى جاء معه لإقناعها بضرورة الصلح مع جارتها وأخرج من جيبه قيمة الإيجار المتأخر زجرت

السيدة ورفضت وأصرت على إخلاء المرأة للشقة هرول القاضى إلى بعض السماسرة فى المدينة بحثاً عن شقة ملائمة للسيدة المطرودة أخبروه عن وجود بيت قديم ريفى معروض للبيع بثمانين جنيها عاد للتشاور مع المرأة التى أخبرته عن عجزها المطلق عن دفع هذا المبلغ الباهظ وكانت المفاجأة التى هزت كيان المرأة عندما أكد القاضى أنه قد دفع لها المبلغ وما عليها إلا استلام المنزل، الوجه الآخر لهذه الحكاية ما حدث فى نهاية التسعينيات عندما فوجئ أحد الشهود بصدور الحكم بالحبس ثلاث سنوات وعندما احتج المحامى وحاول أن يلفت نظر القاضى إلى هذا الخطأ الفادح أشار له بازدراء ولا مبالاة وجمع أوراقه وذهب وقاتل الشاهد المسكين ثمانية أشهر كاملة لتصحيح هذا الحكم الجائر هذا هو الفرق بين قضاه الستينيات وقضاة التسعينيات مع التأكيد على وجود الاستثناءات فى كلا العنصرين.

صوت الجامعة - ٨ مارس ٢٠٠٥

14 الوزير - السائق سابقًا

نشأ فى أسرة عمالية كان والده سائقاً ورث الحرفة عن والده وكان يتميز بالذكاء واستلهم من والده خبرته النقابية حيث تعلم منه فنون وأساليب الدفاع عن سائقى الشاحنات وسيارات الأجرة واستكمل مهاراته من والد زوجته الذى كان قيادة نقابية لامعة.

التقطته إحدى التنظيمات اليسارية وتدرج فى المواقع الحزبية حتى أصبح رئيساً لأحد الأحزاب السياسية التى خاضت عدة معارك انتخابية أوصلته إلى البرلمان ثم تولى إحدى الوزارات السيادية عندما فاز حزبه فى انتخابات الرئاسة فى ظل نظام يؤمن بتداول السلطة.

أما زوجته ابنة السائق القيادى القديم فقد كانت تزامله فى جميع المعارك التى خاضها حيث عكف على تطوير ثقافتها كما حرص على تربية وتعليم أبنائه الأربعة بنفس الروح والمبادئ الفكرية التى نشأ عليها وتخرج منهم اثنان انخرطوا فى العمل الحزبى ولمعوا فى مجالى المحاماة والتعليم، أما الاثنان الآخران فقد فضلوا الاكتفاء بوظائفهم فى مجالى الطب والبنوك ولكنهم ظلوا أوفياء لذات التوجه الفكرى والثقافة المرتبطة بحقوق الوطن وفقرائه.

ودارت الأيام ثم كلف رسمياً بزيارة إحدى الدول الكبرى التى كانت تتزعم مجموعة دولية تتبنى ذات التوجه الأيديولوجى الذى يؤمن بالعدالة الاجتماعية

وتطبق قوانينها وتنتهج سياسة خارجية تناهض توجهات الدول التى دأبت على اغتصاب أوطان الآخرين وتعلن فى المنابر الدولية تأييدها ودعمها لحقوق الشعوب التى تجاهد من أجل انتزاع سيادتها على مواردها وتعزيز مصائر أوطانها.

استقبل الوزير «السائق سابقاً» بحفاوة بالغة من قيادات الدولة الكبرى كما أقام له زعماء النقابات والتنظيمات الشعبية احتفالات جلجل فيها بصوته الجهورى وسجلت خلالها قدراته الخطابية، وشهدتها حشود جماهيرية من النساء والرجال فى العديد من الجامعات والمصانع والمزارع التى زارها، كذلك قامت زوجته والوفد النسائى المرافق لها بزيارة المتاحف والمدارس والنوادى الرياضية والقصور القديمة والمسارح وحضانات الأطفال حيث شهدت بعض العروض العالمية وأجرت حوارات عديدة مع زعيمات الجمعيات النسائية وصالت وجالت فى الأسواق واشترت العديد من التحف الفنية عدا الفراء والجواهر النادرة وفى إحدى زيارات الوزير «السائق سابقاً» لإحدى المزارع الجماعية حيث أقيمت مأدبة فاخرة له وللوفد المرافق حكى له وزير الزراعة فى الدولة المضيفة قصة تمرده على أسرته الأرستقراطية وانضمامه إلى التنظيمات اليسارية منذ أن كان طالباً يدرس الطب ثم صعوده الحزبى حتى أصبح مسئولاً عن المزارع الجماعية حينئذ نظر إليه الضيف نظرة جانبية تشع بمزيج من التأمل والدهاء ولاح على شفتيه شبح ابتسامة خفيفة وقال له «حقاً لقد خان كل منا طبقته فأصبحت أنت ابن الأرستقراطية مسئولاً عن مزارع الفقراء وأصبحت أنا السائق سابقاً وزيراً».

صوت الجامعة - ٥/ ٤/ ٢٠٠٥

15 المبادئ والحسابات !

دفعتنى ظروفى الصحية فى الفترة الأخيرة إلى اللجوء إلى العديد من كبار الأطباء لإجراء بعض الفحوص والجراحات المهمة فى العيون والاستعداد لجراحات أخرى فى غير العيون، وأدهشنى بل أزعجنى أن معظمهم يرفضون إجراء عملياتهم بالمستشفى الذى أنتمى إليه، وجاهدت مع زملائى أساتذة جامعة القاهرة طويلاً من أجل إنشائه وتخصيص قطاع مهم منه لمعالجة أعضاء هيئة التدريس، وقد أثبت هذا المستشفى وجوده وكفاءته وسد نقصاً ملحوظاً ليس بالنسبة للأساتذة فقط ولكن أيضاً للعديد من المواطنين من جميع الفئات الاجتماعية، هؤلاء الذين يتوقون إلى علاج عصرى يشرف عليه نخبة من أطباء وأساتذة القصر العينى من كلية الطب – جامعة القاهرة –، ولا شك فى أن مشروعاً ضخماً مثل هذا المستشفى لابد من أن تواجهه بعض الصعوبات ولا يخلو من السلبيات أو المعوقات الإدارية والفنية.

وقد استبدت بى الحيرة فى أمر هؤلاء الأطباء الرافضين إجراء عملياتهم بالمستشفى الكبير الناشئ ولذلك أجريت حوارات واستقصاءات متعددة مع العديد من الأطباء والإداريين داخل هذا المستشفى وخارجه، وتوصلت إلى بعض الاحتمالات، أولها أن المستشفى يعانى بعض أوجه القصور التى تتعلق بالإجراءات الإدارية أو الإمكانيات الفنية والطبية، أو هبوط مستوى الرعاية من حيث التمريض والمتابعة وكفاءة الأجهزة الطبية، وهذا سيتطلب من القيادات الطبية بذل المزيد من الجهد والإصرار لمعالجتها وتخفيف القيود البيروقراطية التى تحول دون

تجديد الأجهزة الطبية، فى الوقت المناسب ومراعاة التدريب المستمر لصغار الأطباء ولفريق التمريض، ولا يكون الحل هو مقاطعة المستشفى والتقليل من الدور والخدمات الجليلة التى يقدمها لمرضاه.

أما الاحتمال الثانى وهو الأخطر، فيتعلق بالشغف الجنونى من جانب العديد من الأطباء الكبار لتحقيق أكبر قدر من المكاسب من خلال المستشفيات الخاصة، خصوصاً أن أجور هؤلاء الأطباء سواء فى العيادات أو العمليات الجراحية بلغت مستوى من الارتفاع الجنونى لا يتناسب مع دخول الغالبية العظمى من أبناء الطبقة الوسطى، فما بالك بالطبقات الأخرى من الكادحين خصوصاً موظفى الدولة الشرفاء، حتى منصب وكيل وزارة، الذين ليس لهم دخول سوى مرتباتهم، والويل لهم إذا أصيبوا بمرض يتطلب إجراء عملية جراحية.

وهذا الاحتمال أصبح يقيناً فى ضوء تأكيدات معظم الذين ناقشت معهم هذه القضية، فما هو الحل، وهل تستطيع نقابة الأطباء أن تتدخل لوضع حد لمغالاة أجور الأطباء الكبار فى مهنة جليلة نتوقع أن تسمو فيها المبادئ الإنسانية، وتتراجع الحسابات النفعية المغالى فيها؟ أم أن رياح العولمة وقيم السوق قد اكتسحت فى طريقها منظومة القيم التى تربينا عليها ومازلنا نتطلع إلى استعادتها؟!

جريدة الأهرام – ٢١/ ١٢/ ٢٠٠٥م

16 المشهد على الجانبين

جمعتني الظروف بمجموعات متنوعة من الأطباء الذين ينتمون إلى أجيال وتخصصات مختلفة ويمارسون المهنة فى مختلف ربوع مصر من الصعيد إلى الوجه البحرى إلى العاصمة بأحيائها المرفهة ومناطقها الشعبية ودارت الحوارات حول شكاوى الأهالى من المغالاة فى أجور الأطباء، فضلاً عن ارتفاع أسعار الأدوية بصورة غير مسبوقة والتى تفوق دخول العاملين فى الدولة ناهيك عن أصحاب المعاشات مع استبعاد الفقراء والمهمشين من قائمة الحاصلين عى الحد الأدنى من الرعاية الصحية.

وفى ثنايا هذه الحوارات أثيرت قضايا كثيرة تناولت أخطاء بعض الأطباء وغياب نظام للتقاضى لمحاسبتهم على أخطائهم وإصرارهم على اقتناص أجورهم المرتفعة برغم إدراكهم عدم جدوى الكثير من العمليات الجراحية والصور المشينة للإهمال فى المستشفيات العامة وتحول المستشفيات الخاصة إلى بورصات للمزايدة على صحة المرضى والقصور الفاضح فى الخدمات التى تقدمها هذه المستشفيات.. وازدادت سخونة المناقشات فى بعض هذه الجلسات وتعالت الأصوات بعضها يندد بقصور الدور الرقابى لنقابة الأطباء ويتساءل البعض الآخر عن الأسباب الحقيقية التى تشل حركة النقابة إلى الحد الذى يجعلها عاجزة تماماً عن إلزام الأطباء المصريين بقوانينها وبمواثيق الشرف الطبية المعمول بها فى مختلف أنحاء العالم حتى بات الأمر وكان هناك عرفاً غير مكتوب بين الأطباء وشركات الأدوية ومعامل التحاليل والأشعات لاستنزاف آخر قطرة من المرضى دون منحهم العلاج الحقيقى

الذى يحقق لهم الشفاء الجزئى وليس الكلى.

وتحدث الأطباء عن همومهم قالوا إن هناك اعتقاداً خاطئاً لدى المرضى بأن الأطباء الذين يحصلون على أجور أعلى هم الأكفأ طبياً، فى حين أن التجارب قد أثبتت عكس ذلك تماماً وأن هناك مجموعة من الأسماء تسيطر على السوق الطبية فى مصر ولا يزيد عددهم على ألف طبيب من مجموع ٢٥٠ ألف طبيب فى نقابة الأطباء، وأن هؤلاء الأطباء الذين يحتكرون المشهد العلاجى بأجورهم المرتفعة وشهرتهم التليفزيونية والإعلامية يحجبون فى الواقع المشاكل والهموم الحقيقية التى يعانى منها آلاف الأطباء الكادحين الذين لا تنقصهم الكفاءة ولا الأخلاقيات ولكنهم يفتقرون إلى الفرصة والشهرة ويعانون من سوء فهم الرأى العام علاوة على عدم مساندة النقابة لهم بسبب الحظر المفروض على نشاطها والذى يرجع إلى أسباب سياسية وليس له علاقة بمهنة الطب ويعتبرون أنفسهم ضحايا أكثر من المرضى أنفسهم لأنهم لا يجدون من يصغى شكواهم وهم يدفعون ثمن الفساد العام الذى أسدل ستائره على سماء الوطن وشمل كل المواقع العلمية والمهنية ولم يعد أمامهم سبيل سوى السعى للخلاص الفردى.

تأملت المشهد على الجانبين المرضى ضحايا، وجموع الأطباء غير المشهورين ضحايا أيضاً ونقابة الأطباء مقيدة ووزارة الصحة مثقلة بأعبائها وروتينها وبيروقراطيات المتحكمين فى مصائرها.

إذن ما العمل؟ وكيف يتسنى لنا نحن المواطنين البسطاء أن نحصل على حقوقنا فى علاج طبى أمن ودواء بأسعار فى تناول دخولنا ورعاية صحية حقيقية للفقراء وكيف تستعيد هذه المهنة النبيلة ضمير روادها الأجلاء وكيف ومتى نحمى صحة أهالى المحروسة من سماسرة الدواء والطب؟

جريدة الأهرام – ١٩/ ٧/ ٢٠٠٥م

17 عولمة البشر

تتوالى منذ منتصف التسعينيات المظاهرات الغاضبة من آلاف الفلاحين والعمال والطلبة ضد منظمة التجارة العالمية وضد السياسات الإرهابية للحكومة الأمريكية والتى يروع بها بوش شعوب العالم بدعوى محاربة الإرهاب، والمحطة الحالية لهذه المظاهرات هونج كونج حيث تعقد منظمة التجارة العالمية مؤتمرها الوزارى السادس.. ورغم قيام أكثر من عشرة آلاف من الجنود بحراسة المؤتمر ووفوده وقمع المعارضين خاصة القادمين من كوريا الجنوبية، إلا أن المخاوف تتزايد من تكرار حادث انتحار الفلاح الكورى «لى كيونج هاى» الذى قتل نفسه احتجاجاً على سياسات منظمة التجارة العالمية أثناء اجتماعاتها السابقة التى عقدت فى كانكون بالمكسيك عام ٢٠٠٣ مما أدى إلى تأجيج المعارضة وفشل الاجتماعات.. ولا يعد هذا الفلاح الكورى الضحية الوحيدة لسياسات منظمة التجارة العالمية، فهناك ثمانية مليون من الفقراء يموتون جوعاً كل عام منهم صغار فلاحين وعمال زراعيين ينتجون الغذاء لصالح الشركات الاحتكارية الكبرى.. وإذا كانت الشعوب ترفع شعار «قلب قطار منظمة التجارة العالمية» فإن السبب وراء ذلك يرجع إلى أن الملايين الحاشدة من البشر فى مختلف القارات بدأوا يشعرون بالآثار الكارثية للعولمة على حياتهم اليومية، حتى ولو لم يكن لديهم وعى كامل عن العلاقة التى تربط بين أوضاعهم البائسة والنظام الاقتصادى العولمى، وفى الحقيقة أن الصلة بين السبب والنتيجة ليست واضحة فى أذهان الكثيرين، حتى فى صفوف المتعلمين والمثقفين

لأنها تتطلب قدرة على التحليل والتأمل لا تسمح بها ظروف الغالبية من هؤلاء الذين يلهثون خلف الرزق أو أحلام الثراء والجاه.. ولكن يمكن التأكيد على أن التوسع فى أشكال وحركات الاحتجاج والمقاومة التى بدأت عام ١٩٩٤ بانتفاضة فلاحى الزاباتيستا ضد سياسات الحكومة المكسيكية التى وقعت اتفاق النافتا مع الولايات المتحدة الأمريكية والتى تحولت إلى حركة منظمة وناجحة لمقاومة العولمة، كما شهد عام ١٩٩٥ انفجاراً عنيفاً لمظاهرات الطلبة فى فرنسا احتجاجاً على ارتفاع تكاليف التعليم، وفى أندونيسيا انهار حكم سوهارتو تحت وطأة الاحتجاجات الشعبية ضد الفساد والفقر، كما أن الأزمات الاقتصادية الحادة التى أصابت اقتصاديات دول جنوب شرق آسيا فى النصف الثانى من التسعينيات قد كشفت حقيقة الوهم الذى يروجه صندوق النقد الدولى الذى يزعم أن سياساته هى دواء فعال لا بديل له على مرارته لحل مشكلات الدول النامية وشفائها من جميع الأمراض، ثم جاءت أزمة «النمور الآسيوية» والتى تمثلت فى انهيار العملة وزيادة البطالة كى تثبت مدى الزيف والتضليل الذى يمارسه الدعاة لسياسات الصندوق من السياسيين ورجال الأعمال والإعلاميين.

وعلى خلفية هذا المشهد المتأزم بين ضغوط الثلاثى العولمى «الصندوق والبنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية» ومعاناة فئات بشرية واسعة من السياسات الجائرة، التى تطبقها الحكومات الخاضعة لتعليمات هذا الثلاثى المهمين كان اندلاع حركة مناهضة العولمة الرأسمالية يمثل ضرورة بقاء للملايين فى شمال العالم وجنوبه لمواجهة الفقر والمهانة والمرض والبطالة، فالأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقراً بشكل غير مسبوق فى التاريخ.

وقد منحت مدينة سياتل الأمريكية فى عام ١٩٩٩ شهادة الميلاد الرسمى لحركة

مناهضة العولمة، حيث اجتمع الآلاف من البشر من اتجاهات سياسية متعددة «اشتراكيين وفوضويين وشيوعين وعمال نقابيين وجمعيات مسيحية ومدافعين عن البيئة وعن حقوق المرأة ومن مناهضى العنصرية» للاحتجاج على اجتماع منظمة التجارة العالمية المنعقد هناك، وقد فشلت جميع اجتماعات المنظمة بسبب المظاهرات التى اندلعت فى جنوه وفلورنسا وبورتو الليجيرى، والمرة الوحيدة منذ سياتل التى حققت فيها منظمة التجارة العالمية نجاحاً فى المفاوضات كانت فى الدوحة عام ٢٠٠١ عندما منعت المظاهرات وسافرت الوفود الرسمية دون التوصل لاتفاق، ولكنهم عقدوا اجتماعاً استثنائياً لمن لم يسافر وأصدروا ما يعرف بإعلان الدوحة الذى وعدنا «بالتنمية والقضاء على الفقر فى العالم» ولم يسفر إلا عن زيادة الصادرات الزراعية الأمريكية إلى ٥٥٠ مليار دولار.

إن الاتفاقيات التى تطرحها حالياً منظمة التجارة تتعلق بخصخصة حق إنسانى حيوى لحياة البشر، وأعنى بها المياة التى سوف يترتب على خصخصتها ازدياد عدد المحرومين من الماء النظيف عندما تتحول المياه إلى سلعة تخضع لقوانين السوق، ومثلها الكهرباء والصرف الصحى والتعليم والصحة، ولم يبق سوى أجساد البشر التى تحولت بالفعل إلى سلعة رخيصة فى أسواق النخاسة العالمية والمحلية ولله الأمر من قبل ومن بعد؟!

صوت الجامعة – ١٩ ديسمبر ٢٠٠٥

18 هل الشباب محظوظون في بلادنا

فى إحدى اللقاءات الحرة التى أجريتها مع طلاب جامعة نيومكسيكو على هامش جلسات المؤتمر الدولى للإعلام الذى عقد عام ١٩٩٧ بالمكسيك تحلق حولى جمع من الطلبة والطالبات كنت متلهفة على التعرف على اتجاهات هؤلاء الشباب ومشكلاتهم وهمومهم وطموحاتهم وهل هناك منظومة قيم اجتماعية وأخلاقية تحكم سلوكياتهم أم أن هناك اختراقاً عولمى أمريكى تسلل إلى حياتهم خصوصاً وأنهم ملتصقون جغرافياً بالمجتمع الأمريكى، وهناك آلاف الشباب المكسيكى يتسللون إلى المجتمع الأمريكى عبر الحدود الهشة التى تفصلهم عن أمريكا.. تحدث شاب يدرس الطب قال إننا خليط من الأعراق ينتمى البعض منا إلى أصول هندية قديمة وينتمى البعض الآخر إلى الأسبان الذين غزوا مجتمعنا منذ خمسة قرون عدا العديد الذين ينتمون إلى أصول أوروبية ألمانية وفرنسية وبرتغالية وأقلية من أبناء الأقليات العربية الذين هاجروا إلينا من سوريا ولبنان منذ قرن ونصف، وقد انعكس هذا الخليط على منظومة القيم التى تتحكم فى علاقاتنا الأسرية والاجتماعية وتأثرت بها أخلاقياتنا ومعتقداتنا وأفكارنا، ولكن الطابع الغالب على مجتمعنا حالياً ينتمى فى مجمله إلى الثقافة الغربية الاستهلاكية ونحلم بالثراء والشهرة وأوهام الرفاهية الأمريكية خصوصاً وأن مجتمعنا يعانى من اتساع الفجوة بين الحكام والمحكومين وبين الأثرياء والفقراء لدينا ملياردير ات يعانون من التخمة وملايين الفقراء يعانون على الجانب الآخر من الفقر المدقع ويتحايلون على الظروف الشاقة

التى تحاصرهم بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة، سكت الشاب وألقى نظرة بانورامية على زملائه ثم استطرد قائلاً: أما نحن الشباب هناك تلال من المشاكل أقلها البطالة المنتشرة بين صفوفنا والتى تحيل أحلامنا فى لحظة إلى هشيم فى ظل الحرية التى تصل إلى حد الفوضى وتتحول إلى نوع من الانفلات بسبب غياب الرعاية الأسرية وانشغال جميع مؤسسات المجتمع بالجرى خلف الثروة والجاه والشهرة وهناك تيارات ثورية تحاول أن تحتوينا ولا نملك حالياً سوى حق الصراخ فى المظاهرات اليومية من أجل الخبز والبحث عن دور حقيقى نسعى من خلاله للمشاركة فى تحديد مصيرنا ومصير مئات آلاف من المقهورين فى مجتمعنا، هتفت فى سرى «يا إلهى كم تتشابه مشاكلهم مع مشاكل شبابنا رغم الحرية المتزايدة التى ينعمون بها» ثم تطلعت إلى فتاة اخترقت الصفوف ووقفت أمامى فى تحدى بالغ بملابسها البسيطة وحيويتها الفائقة وجمالها الآخاذ صاحت قائلة «إن المشكلة الأساسية التى نعانى منها أن أهالينا يتركوننا ننفصل عنهم فى سن صغير لا تزيد عن ١٦ عاماً نفرح فى البداية بهذه الحرية ثم لا نعرف ماذا نفعل بها ننطلق فى جنون إلى جنة العلاقات الجنسية وعندما نفيق نكتشف أننا نحصد الوهم وخيبة الأمل وعندما نعود إلى أهالينا يديرون لنا ظهورهم ويرفضون عودتنا إلى أحضانهم لأنهم منشغلون بهمومهم وأنانيتهم.

لقد ارتبطت بأحد زملائى وأنجبت طفلة أنكرها وهرب منى واضطررت إلى وضعها فى أحد صناديق القمامة تخلصاً من مسئوليتها وأنكرنى أهلى وأنا الآن أعانى الوحدة والضياع، هذا هو ثمن الحرية التى تحسدوننا عليها.. توقفت الفتاة قليلاً كى تلتقط أنفاسها ثم سألتنى قائلة حدثينا عن مشكلات الشباب فى بلادك انتبهت إلى السؤال الذى أخرجنى من حالة سرحان سرقتنى من الجلسة وقلت لها المشكلة

الأساسية التى تواجه الشباب فى مصر غير البطالة قيود الأهالى ومنظومة القيم التى تحاصرهم باسم الخوف عليهم من الوقوع فى الخطأ وحرمانهم من المشاركة فى العمل السياسى أو ممارسة الحب برقت عيون الشباب ثم هتفوا فى نفس واحد أن الشباب فى بلادك محظوظون برعاية أهاليهم ليتنا نحصل على ذرة من الرعاية الأسرية التى ينعمون بها تعجبت ولم أعلق، وها أنا ذا أقوم بتوصيل الرسالة إلى شبابنا لعلهم يستوعبون فحواها.

الأهالي – نوفمبر –١٩٩٨

19 اعترافات ضابط شرطة

جلس يتحدث بهدوء، بدأ يسرد قصة التحاقه بكلية الشرطة والأحداث المثيرة التى عايشها منذ تخرجه قال «لم أكن أنوى الالتحاق بكلية الشرطة لأننى كنت أحلم بدراسة الموسيقى فى الكونسرفتوار ولكن أمى التى تولت رعايتى بعد رحيل والدى أصرت على استعادة أمجاد والدها مأمور بندر قويسنا الأسبق من خلال شخصى، ولما كنت حريصاً على إرضائها قررت أن أجعل الموسيقى هواية عمرى وأن تكون الشرطة هى مهنتى ومصدر رزقى تفوقت فى دراستى وبعد تخرجى وقع على الاختيار للعمل فى حراسة إحدى الوزارات السيادية ثم تزوجت من إحدى قريباتى التى اختارتها أمى لى لإنقاذى من قصة حب طويلة ربطتنى بجارتى التى عشت معها أنشودة حياتى وكانت المرفأ الروحى الوحيد لى. اختزنت أحزانى وأفنيت نفسى فى عملى جاءت تقارير رؤسائى عنى ممتازة لذلك قرروا نقلى إلى إحدى الوحدات الأمنية رفيعة المستوى بعد عدة اختبارات اجتزتها بامتياز وكان المأخذ الوحيد كثرة ترددى على الحفلات الموسيقية العربية والأجنبية، واصلت عملى بكفاءة وصدق وإخلاص وانهالت علىّ المكافآت فى صورة سفريات للخارج ومنح مالية كبيرة واشتريت فيلا صغيرة فى المقطم وخصصت الدور العلوى لأمى وسكنت فى الدور الأول كى أمارس هوايتى باطمئنان فى الحديقة التى زرعتها بجميع أنواع النباتات والورود المبهجة، وكنت أحياناً أدعو أصدقائى الذين تجمعنى بهم نفس الهواية حيث كنا نمضى أوقاتنا فى العزف والاستماع لروائع الموسيقى

التراثية والحديثة وفى يوم ما وقعت فى يدى قضية تخص أحد المسئولين الكبار وكانت كل الأدلة تؤكد تورطه فى العديد من المخالفات الجسيمة التى تمس أمن الوطن، كتبت تقريرى بكل الدقة والأمانة وبضمير مستريح وإذ بى أفاجأ بحصار غير متوقع من رؤسائى وزملائى يطالبوننى بتغيير التقرير استجابة لأوامر عليا ظللت مؤرقاً عدة ليالى لم أستطع أن أفاتح أحداً من أصدقائى أو أسرتى استخرت الله وقررت أن أصر على موقفى وذهبت فى اليوم التالى إلى مكتب رئيسى فور استدعائى على عجل أخبرته بموقفى ابتسم فى سخرية وقال لى هذا الموقف ثمنه غالى يا فلان وهذا إنذارى الأخير لك هززت رأسى فى ثقة وهدوء وأكدت له تمسكى بما كتبته فى تقريرى، انتهى اللقاء وعدت إلى منزلى وفى المساء دعوت أصدقائى لجلسة موسيقية حالمة وأمضينا ليلة قمرية فاقت فى روعتها وشفافيتها كل لحظات العمر السابقة، وفى الصباح الباكر تلقيت على يد عسكرى شرطة ضخم الجثة مرسوماً بنقلى إلى وحدة الشرطة لحماية المسطحات المائية فى أحد فروع النيل العظيم.

سكت الضابط الفنان وأخذ يتأمل وجهى متوقعاً رد الفعل لم أعلق فى البداية ثم قلت له «يكفى أنك أرضيت ضميرك وهذا أثمن ما يبقى للإنسان».

صوت الجامعة — أول مايو ٢٠٠٦

20 المناصب وغياب المعايير

هناك آفة خطيرة تجتاح المجتمع المصرى فى جميع المواقع، والمؤسسات، دون استثناء، وهى التكالب على المناصب الرئاسية مهما صغر موقعها، وهذه الآفة تتميز بخلفية تاريخية برزت بوضوح من عصر محمد على، واستمرت عبر المراحل المختلفة وأصبحت سمة مصاحبة للهياكل الإدارية فى الوزارات والمؤسسات الإنتاجية والأكاديمية، وأفرزت كثيراً من التداعيات السلبية التى طالت منظومة القيم والسلوكيات والعلاقات الاجتماعية، وأوجدت معايير جديدة زاحمت القيم الإيجابية وأصبحت تشغل مكان الصدارة، فأصبح الموقع الرئاسى أهم من الكفاءة والأمانة والنزاهة.

ولم تفلت من هذه الآفة المواقع الحزبية والأكاديمية والمنظمات الأهلية التى تعتمد على العمل التطوعى.

ولعل أبرز ما يضاعف خطورة هذه الآفة هو أن التعيين فى المواقع الرئاسية أصبح يتم بلا معايير موضوعية، بل سادت معايير أخرى هدامة تتمثل فى الواسطة والشللية والمصالح الشخصية، وهى معايير تمثل مراحل بدائية فى تاريخ تطور المجتمعات، وقد تجاوزتها البشرية منذ العصر الزراعى بعد أن أصبحت الكفاءة الفردية هى المعيار الأساسى الذى قامت ونهضت بفضله المجتمعات الصناعية، وفى عصر المعلومات الذى يعتمد على الإنتاج الذهنى وتصاعدت فيه قيمة المعرفة الإنسانية، أصبح من المخزى والمشين أن ترتد بعض المجتمعات ومؤسساتها إلى هذا

الدرك، فتتوارى القيم الإنسانية المحورية، مثل الكفاءة والنزاهة لكى تحل محلها الفهلوة والنفاق والرشوة، وسائر منظومة الفساد التى أصبحت غولاً يهدد الكفاح اليومى لملايين الكادحين من الشرفاء وأصحاب الضمائر فى مختلف المواقع بدءاً بالأطباء والمعلمين والمحامين والموظفين العموميين، ورجال البنوك، والأجهزة الأمنية، وصولاً إلى أساتذة الجامعات.

أننى أؤمن بأن الحلقة الرئيسية للتغيير فى مصر تبدأ باجتثاث جذور الفساد، والتسيب الذى لم يبق على الأخضر واليابس، وأصاب ملايين الشباب بالإحباط، واللامبالاة، وفقدان الانتماء للوطن.

ويجب أن نبدأ بحملة قومية جادة تعيد للأجهزة الرقابية هيبتها وفاعليتها، وتسعى بإخلاص إلى إشراك من ينتمون إلى هذا الوطن بجميع شرائحه الاجتماعية، ومواقعه المهنية، والتشريعية، والأكاديمية فى صنع القرار الوطنى العام، وسائر القرارات التى تمس مفردات الحياة اليومية لهؤلاء البشر.

21 ضحايا العبارة الغارقة

صرخت الفتاة القروية التى تعمل مساعدة منزلية لدى أحد الأكابر عندما سمعت نبأ غرق العبارة «السلام ٩٨» فى البحر الأحمر وكانت تتابع بفرحة طفولية المباريات الكروية الساخنة وتتوجه بين حين وآخر إلى السماء تدعو من قلبها كى تفوز مصر ببطولة الأمم الأفريقية الخامسة والعشرين، لقد كانت العبارة المشئومة تحمل شقيقيها الشابين اليتيمين اللذين ذاقوا مع آلاف الشباب من أبناء الصعيد اليتم والفقر ومذلة البحث عن عمل شريف يصون كرامة الأسرة الكبيرة التى يعولوها بعد وفاة والدهم الذى كان يعمل فى أحد المحاجر الجبلية بمحافظة قنا، لطمت خدودها وتضرعت إلى مخدومها كى يسمح لها بالسفر فوراً لمتابعة هذه النكبة وحاول الرجل أن يهدئ من روعها ويطمئنها زاعماً تارة بأن الخبر ربما يكون غير صحيح وتارة أخرى يؤكد لها أن العبارة مستوفية لكل شروط الأمان لأنه يعرف صاحبها جيداً حيث تزاملاً منذ زمن بعيد فى الكثير من المشروعات التجارية البحرية والبرية كما أن صاحب العبارة يحظى بثقة الدولة ولذلك منحته شرف عضوية بمجلس الشورى، واصلت الفتاة الندب والنحيب وأصرت على الرحيل وارتبك الرجل الذى كان مرتبطاً بموعد للذهاب إلى الاستاد مع بناته وأبنائه لمشاهدة المباراة النهائية بين مصر وكوت ديفوار وكانوا يمرحون مع أصدقائهم فى إحدى حجرات الفيلا حيث كانوا يعدون أنفسهم لهذه اللحظة التاريخية برسم وجوههم بألوان العلم المصرى ويتبادلون القبعات والطراطير الملونة ويتقافزون فى

بهجة هستيرية وقد اختلطت أصواتهم وضحكاتهم مع صرخات الفتاة المكلومة، اضطر الرجل أخيراً تحت وطأة الإلحاح الموجع من جانب الفتاة إلى استدعاء أحد حراس الأمن بالفيلا وتكليفه بالسفر مع الفتاة إلى سفاجا.. وعلى أرصفة الميناء الحزين رأت الفتاة البائسة ما لم تكن تتوقعه طوال مسيرة الشقاء التى كابدتها منذ خروجها من قريتها البعيدة حيث تلقفتها أيدى السماسرة ودارت بها على بيوت السادة أثرياء الانفتاح والخصخصة، ولاقت الأمرين من أجل صيانة كرامتها والحفاظ على أعز ما تملك الفتاة الصعيدية.. لقد شاهدت الجموع الغاضبة تحاصرهم دروع الأمن المركزى يستجدون فى لهفة أخبار الضحايا من الأحباب الذين أجبرتهم قسوة الظروف وإهمال الحكومات وشراسة ولاة الأمر على ترك ديارهم وعيالهم والذهاب إلى الضفة الأخرى من البحر الأحمر، حيث الوعد والأمل فى أن يحصلوا على بعض الفتات المتبقى من موائد أباطرة النفط كان البرد قارصاً ولكن قسوة الإهمال والاستهانة بهم وبإنسانيتهم كانت أشد وطأة، التقت الفتاة ببعض أقاربها الذين هرولوا بحثاً عن جثث أشقائها دون جدوى ظلوا يتنقلون بين الرؤوس المفصولة عن أجسادها وبقايا الأذرع والأقدام صرخت الفتاة بأعلى صوتها وقد شقت ملابسها وتطلعت إلى السماء فى أنين موجع تخاطب إله الرحمة «لماذا يا ربى تعاقبنا ونحن لم نسرق أو نؤذى أحداً لماذا يا ربى ترسل علينا لعناتك ونحن أشرف البشر لماذا تترك الفاسدين واللصوص يسرقون وينهبون ويقتلون أحبائنا.. متى تنتقم لنا من هؤلاء الجبابرة المغتربين، ظلت تصرخ وتنتحب ثم سقطت مغشياً عليها.

صوت الجامعة – ٢٠ فبراير ٢٠٠٦

22 خواطر وذكريات على إيقاع راقصة روسية

قالت لى صديقتى (النساء والأطفال.. أولى الضحايا فى الحروب والأزمات.. وهم أكثر الناس احتياجاً للأمان والسلام الحقيقى).

زرت الاتحاد السوفيتى السابق عدة مرات كانت بدايتها فى مستهل سبعينيات القرن الماضى بدعوة من المستشار الثقافى الراحل الدكتور أسامة الخولى.

وقد بهرتنى فى هذه الزيارة أشياء كثيرة فى مجال الرعاية الصحية والخدمات التى كانت تقدمها الدولة لمواطنيها خصوصاً فى مجالى التعليم والثقافة.. وأبرز ما شد انتباهى آنذاك حضانات الأطفال الرائعة والاهتمام الرفيع المستوى الذى كانت توليه الدولة للطفل من رعاية طبية ونفسية وحرص على اكتشاف مواهبه وقدراته الفطرية والمتوارثة وإخضاعه لسلسلة طويلة من الاختبارات كانت تنتهى بوضع برنامج متعدد المراحل لمساعدة الطفل على النمو بصورة سوية، كم تمنيت كما تمنى أستاذنا الراحل العظيم محمد مندور أن أكون طفلاً فى الاتحاد السوفيتى لأنه على حد قوله «إن الطفل هناك ملك متوج» كذلك المرأة السوفيتية التى حررتها القوانين الاشتراكية من العبودية المزدوجة عبودية الموروثات التاريخية وعبودية العوز الاقتصادى والتهميش الاجتماعى والسياسى مما ساعد على إطلاق الطاقات الإبداعية للنساء فأصبحن عالمات متميزات وبطلات مرموقات دولياً فى الرياضة والباليه ومناضلات حقيقيات فى كل مناحى الحياة فى الطب والتمريض والتعليم

وعلوم الفضاء وبرزت أسماء عديدة مثل فالنتينا أول امرأة تجوب الفضاء مع الراحل جاجارين فى نهاية الخمسينيات، لقد استمتعت بعروضهن الفذة فى مسرح البولشوى كما لا أنسى مشاركتهم فى تقديم أشكال المساندة لحركات التحرر الوطنى العربية والإفريقية التى لمسناها فى المؤتمرات الدولية، وقفوا معنا فى معاركنا من أجل تحرير الجزائر وفلسطين والمطالبة بالإفراج عن مانديلا والدفاع عن حقوق شعوب الكونغو وناميبيا وجنوب إفريقيا وزيمبابوى وأنجولا وموزمبيق وبكوا معنا عند اغتيال جيفارا، والليندى وساعدونا على كشف دسائس ومؤامرات الصهيونية العالمية واحتضنوا العديد من أبنائنا وبناتنا الذين أوفدناهم فى بعثات دراسية بالاتحاد السوفيتى، وقدموا لهم كل أشكال الرعاية العلمية والإنسانية، كما لا ننسى مبادرتهم التاريخية فى بناء السد العالى، ومشاركة المئات منهم فى عمليات بناء وإنجاز جميع مراحل هذا الصرح الشامخ، ثم توالت زياراتي للاتحاد السوفيتى خلال حقبة الثمانينيات، والتى تراوحت بين المشاركة فى المؤتمرات العلمية وإلقاء المحاضرات فى معاهد الصحافة وأيضاً للعلاج، وعلى امتداد هذه الزيارات قابلت عشرات النساء السوفيتيات من مختلف الأجيال كان البعض منهن قد عاصرن الحرب العالمية الثانية وقدمن تضحيات هائلة من أجل دحر النازية وكن يحرص ن فى حفلاتهم المنزلية التى دعيت إليها أن يبدأن هذه الحفلات بأغنيات النصر حيث كانوا يشتركن مع رفاقهن من المحاربين القدامى فى العزف على البيانو والجيتار وترتفع أصواتهم الجماعية وقد امتلأت بزخم من الحيوية، التى تفوق أعمارهم التى تجاوزت الخامسة والسبعين فى ذلك الوقت، تداعت هذه الذكريات فى لحظة غير متوقعة عندما أعلنت زوجة شقيقى أنها قد أعدت مفاجأة لشقيقها فى ختام عرسه وإذ بها تعلن عن هديتها الفاخرة الراقصة الروسية كاتيا انتفضت على الفور وأخذت أحدق فى قوامها السمهرى وقدرتها الفذة على القفز هنا وهناك بإيقاع

سحرى أعاد إلى ذاكرتى إيقاعات راقصات الباليه فى عروض البولشوى الخالدة، ما أبعد ذلك الزمان الجميل، وما أشقانا فى هذا الزمن التعيس الذى يشهد راقصات البولشوى يتحولن إلى محترفات للرقص الشرقى ويتم استئجارهن لإحياء الأفراح والليالى الملاح فى أعراس أبناء القادمين من الخليج وأثرياء حقبة النفط اللعينة، دارت برأسى الذكريات وتوقفت عند نقطتين ذوي دلالة.. اللقطة الأولى فى مترو الأنفاق بمدينة باريس شهر مايو عام ١٩٩٣ وكنت أهرول مسرعة للحاق بموعدى فى السفارة الجزائرية للحصول على تأشيرة حيث كان من المقرر سفرى إلى الجزائر لمناقشة أحد طلابى فى رسالة الدكتوراه .

وكانت تصحبنى إحدى طالباتى التى تعد رسلة الدكتوراه بجامعة السوربون، وإذ تعترض طريقنا سيدة فى منتصف العمر تشى ملامح وجهها بالجدية والذكاء وترتدى ملابس لا تخلو من الأناقة وتؤكد انتماءها لشريحة النساء المهنيات وتتحدث الفرنسية بطلاقة وتقف بجوار عدد من الكئوس الفضية الضخمة ذات النقوش النادرة وبدأت تسرد قصتها قالت إنها أستاذة بأكاديمية العلوم السوفيتية وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى اضطرت إلى اللجوء إلى باريس يصحبها زوجها عالم الكيمياء وأطفالها الثلاثة وأنهم لم يتناولوا الطعام منذ خمسة أيام وتود بيع هذه الكئوس التى حصلت عليها هى وزوجها فى مناسبات علمية مختلفة مقابل أى ثمن انعقد لساننا من المفاجأة واعتذرنا لها بتمتمات غير مفهومة ولكننا وفى وقت واحد فتحنا حقائبنا لإخراج ما تيسر من النقود لإعطائها لهذه العالمة السوفيتية التى انهار وطنها على رءوس ملايين الشرفاء أمثالها، رفضت بشموخ وإصرار أن تأخذ فرنكا واحداً واستدارت إلى كئوسها فى انكسار موجع.

عندما خرجنا من محطة المترو إذ برفيقتى تجلس على أول أريكة تصادفها وتنخرط

فى بكاء مر وتصيح: ما الذى يضمن لنا حياة كريمة تليق بنا بعد أن نشقى ونجتهد ونحصل على أرفع الدرجات العلمية ثم تنهار أوطاننا بفعل الفساد أو المؤامرات أو أى سبب آخر، اللقطة الثانية كانت فى دولة البحرين فى صيف عام ١٩٩٨ عندما دعيت لاستلام إحدى الجوائز العلمية عن أحد بحوثى الجامعية عن المرأة والإعلام، ذهبت إلى إحدى المكتبات لشراء بعض الكتب وكانت ترافقنى إحدى الصديقات وهى أستاذة جامعية بحرينية معروفة بمواقفها القومية وعلى عتبة المكتبة وقفنا نتناقش حول آخر إنتاج عبد الرحمن منيف وإذ بى أرى بعض النساء الروسيات يخرجن من مبنى مجاور وفى حالة تبرج غير عادى أبديت دهشتى، أخبرتنى صديقتى والأسى يملأ عينها قالت: ألا تعلمين أن هذه العمارة مخصصة للنساء الروسيات المشاركات فى شبكات الدعارة الدولية» ألقيت بـ «مدن الملح» لعبد الرحمن منيف على المنضدة المجاورة وانتابتنى رعدة مفاجئة ولم أعلق ولكن كانت ملامح وجهى تحمل سحابات من الحزن والغضب الذى لاحظته الصديقة البحرينية فأسرعت تحاول أن تهدئ من روعى قائلة: «إن النساء والأطفال هن دائماً أولى الضحايا فى الحروب والأزمات التى تواجه الأوطان وهم أكثر الناس احتياجاً للأمان والسلام الحقيقى ولكن هل يدرك الساسة والحكام تلك الحقيقة البديهية.. أشك كثيراً خصوصاً بعد أن تحول معظمهم إلى خدام لمافيا السوق والاستثمارات المريبة والصفقات المشبوهة!!».

الأهالى ١١/ ١٠/ ٢٠٠٦

23 هذه الهدايا الإجبارية

كنت فى زيارة لإحدى قريباتى من اللواتى يعملن بإحدى الجامعات الخاصة. وقد هالنى كم الأكياس المملوءة بالهدايا والمكدسة فى صدر الصالون فلما استفسرت منها عن هذه الهدايا، أشارت باقتصاب عيد الأم سألتها، ومن هؤلاء السعيدات المحظوظات، أنا أعلم أن لديك أمك وحماتك فقط، إذن لمن الباقى عاجلتنى قائلة للأسف هدايا أمى وحماتى ليست بين هذه الأكياس، بل هذه هدايا سيقدمها أولادى لمدرسيهم من النساء والرجال بمناسبة عيد الأم والأسرة، وكم تكلفت هذه الهدايا؟، أجابت بحسرة ألف وخمسمائة جنيه! دارت رأسى وانتابتنى شحنة من الدهشة المزوجة بالغضب والأسى، والتعجب، وتذكرت على الفور ذكرى بعيدة ترجع إلى عام ١٩٥٦ عندما اقترح الراحل مصطفى أمين تخصيص يوم ٢١ مارس عيداً للأم رداً على رسالة وصلته من إحدى الأمهات تشكو من عقوق ابنها الوحيد، وقد استجابت الجهات الرسمية والشعبية لهذه الدعوة، ومنذ ذلك الحين أصبح عيد الأم مناسبة جليلة تضم الأمهات والأبناء فى جميع أنحاء الوطن، وانتهز التجار هذه المناسبة واستثمروها بكفاءة واقتدار، وتدريجياً انفصلت هذه المناسبة عن أهدافها الحقيقية، ولم تعد الوردة الجميلة أو الهدية الرمزية كافية فى عيد الأم، بل لقد انعكست روح العصر على جوهر المناسبة وأفقدتها مغزاها إذ اتسعت دوائر المستفيدات والمستفيدين بعيد الأم من المدرسات ورؤساء العمل والطامعين والطامعات من كل حدب وصوب، وأتساءل أى قيمة يمكن أن يغرسها المعلمون

فى وجدان وذاكرة تلاميذهم عندما يفرضون عليهم هذه الإتاوات الإجبارية التى تشيع المقارنات الجائرة بين الأطفال، وتنشر بينهم التفاخر البغيض، والتنافس الممقوت لإرضاء المعلمات، بل وتكرس كل القيم السلبية بين الأجيال الجديدة، ألا تكفى الدروس الخصوصية التى امتصت دماء الآباء، وقهرت الأسر، وأثقلت كاهلهم؟!

الأهرام – الأربعاء ١٧ مارس ٢٠٠٤

24 احتجاج الأحفاد

من الأعمال المجيدة التى يقوم بها التليفزيون المصرى حسن اختيار مواعيد إذاعة وبث برامج الأطفال، إذ يصر المسئولون على بثها يومياً فى الساعة ١٠,٣٠ – ١١ صباحاً حيث يكون جميع الأطفال من سن الخامسة فصاعداً فى مدارسهم فلا يتعرضون لهذه البرامج التى تكرس الضحالة والتفاهة وتعكس سطحية معدى هذه البرامج، فضلاً عن افتقار مقدميها للثقافة العامة، وتلك التى تتعلق بتنمية وعى وثقافة الطفل المصرى. وقد أعرب لى أحفادى عن احتجاجهم عدة مرات على مضامين هذه البرامج عندما أتيح لهم فى فترات الأجازة مشاهدة هذه البرامج، ويحمدون الله أنها تذاع فى فترات غيابهم عن المنزل ووجودهم بالمدرسة ويقولون: هل من المعقول أن تدور معظم هذه البرامج حول الموضوعات والأسئلة الروتينية التى تجاوزت قدراتهم بحكم إطلاعهم على مجلات الأطفال وتعاملهم مع الإنترنت عدا الخبرات العديدة التى يستقونها من مصادر المعرفة المختلفة فى المنزل وجماعات اللعب والمدرسة والنادى ومسرح الطفل ومهرجانات أفلام الأطفال وبرامج الأوبرا. ويواصلون احتجاجهم قائلين رداً على سؤالى هل هناك بعض الأمثلة هناك عشرات الأمثلة مثل السؤال الذى توجهه المذيعة إلى الأطفال عندما نستيقظ من النوم فى الصباح ماذا نقول لبابا وماما، عندما يزورون حديقة الحيوان تسألهم المذيعة اتبسطت من الجنينة تحب تزورها تانى؟ مين كان معاك غير ماما وبابا؟ ولا تسألهم عن أنواع الحيوانات ومعلوماتهم عنها ولا تكمل لهم المعلومات الناقصة وتسألهم

عن أنواع الخضار والفاكهة التى يأكلونها، ولا توضح لهم المزايا الصحية ولا الأسلوب الصحيح لتناولها وفوائدها الغذائية، ويتساءل أحفادى لماذا لا تهتم هذه البرامج بعرض خريطة مصر وشرح حياة السكان والأطفال فى محافظات الصعيد والإسكندرية وسيوه والسويس وبورسعيد والمنصورة، إحنا ما نعرفش حاجة عن الناس خارج القاهرة وبرضه الطفل العربى ليه ما يعرضوش كل مرة عن بلد عربى على الخريطة ويقولون لنا عن الأطفال فى فلسطين ولبنان والعراق وليبيا والجزائر وإزاى عايشين فى الحروب التى نسمع عنها ونراها فى نشرات الأخبار. وأيضاً عن العالم، عاوزين نعرف الأطفال فى أمريكا وأفغانستان والصين واليابان وإنجلترا عايشين إزاى وإيه اللعب اللى بيفضلوها والكتب التى يقرأونها وطعامهم إلخ.

انتهى كلام أحفادى ولا تعليق!

جريدة الأهرام - ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٢

25 الورقة السحرية

أرست المحكمة الإدارية العليا بمجلس الدولة مبدأ قانونياً مهما يؤكد أن الكفاءة والتفوق العلمى يجب أن يكونا الأساس فى اختيار العاملين بمجلس الدولة والهيئات القضائية عموماً، وذلك بمناسبة الدعوى التى رفعها أحد المواطنين الشبان اعتراضاً على رفض تعيينه لشغل وظيفة مندوب مساعد فى مجلس الدولة برغم حصوله على ماجستير فى القانونين العام والخاص دفعة ٢٠٠٢ واجتيازه المقابلة الشخصية وذلك فى الوقت الذى تم فيه قبول أحد زملائه بنفس الوظيفة رغم حصوله على تقدير مقبول فى الليسانس بعد أن أمضى سبع سنوات فى كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، ولكن «الواسطة اللعينة» رجحت كفته وجاءت حيثيات الحكم بليغة وشديدة الدلالة إذ أكدت المحكمة أنه لا يجوز لرؤساء الهيئات القضائية تعيين الأدنى فى الدرجات العلمية، والأقل فى مرتبة التخرج (الليسانس) عند تساويهما فى اجتياز المقابلة الشخصية بنجاح، وأن ذلك يعد مخالفاً للأساس القانونى فى التعيين بالوظائف العامة على أساس الكفاءة العلمية، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل طالبت المحكمة المسئولين بتدارك تلك الظاهرة قائلة إن السماح لضعفاء الفكر والكفاءة القانونية باعتلاء مناصب القضاء من شأنه أن يحكموا بين الناس بغير علم فيضلوا ويضلوا فى الوقت الذى ينظر فيه إليهم المتفوقون والمجاهدون فى سبيل العلم من بعيد يعصرهم الحقد والحسرة.

ومن خلال هذا الحكم ألقى نظرة بانورامية على جميع المواقع التنفيذية

والتشريعية والقضائية فى مصر وأتامل تجربة المجتمعات المعاصرة التى انهارت وتلك التى فى سبيلها إلى الانهيار فتتزاحم فى ذاكرتى الشواهد الموجعة والمفارقات الأليمة والعبر والعظات ولعل أبرزها تلك القصة المتداولة عن أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى ومحاولة المخابرات المركزية الأمريكية تجنيد أحد العملاء من الشخصيات البارزة فى الحزب الشيوعى السوفيتى، وقد ركزت مطالبها فى الاكتفاء بأن يقوم هذا المسئول باختيار العناصر غير الأكفاء وترشيحهم لشغل المواقع الحساسة فى جهاز الدولة، وقد قام هذا المسئول بتنفيذ مطلبها على مدى عشرين عاماً انتهت بالانهيار الداخلى لجهاز الدولة!

وعندما استعيد هذه القصة المؤلمة تقفز إلى الذاكرة تجربة الشاب المصرى الذى انتحر بسبب عدم قبوله فى امتحان الملحقين الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، وكان السبب المعلن لرفضه عدم لياقته الإجماعية فى الوقت الذى تم فيه قبول عشرات العاجزين علمياً والذين يعانون الضحالة الثقافية والعلمية، ولكنهم يملكون الورقة «الواسطة» التى تبرر قبولهم وليس مهما أن يمتلئ السلك الدبلوماسى المصرى خلال السنوات المقبلة بالعديد من ذوى العاهات المبتسرين فكرياً ووطنياً ومهنياً، هؤلاء الذين يجيدون فقط فن البروتوكول والانحناء فى المآدب الرسمية والمؤتمرات الدولية ولكنهم يفتقرون إلى الحد الأدنى من الكفاءة العلمية والقدرة على مواجهة تحديات العصر، بسبب بسيط هو أنهم لا يحملون رؤية ولا تتحمل أعوادهم الهشة عبء الدفاع عن قضايانا المصيرية فى المحافل الدولية.

وأتأمل الحال فى جامعاتنا المصرية فإذا بى أجد عشرات الأمثلة التى عاصرت معظمها ويزودنى زملائى فى الجامعات الأخرى بالمزيد منها، وتتلخص فى اختيار أقل العناصر كفاءة من الناحية المهنية والعلمية وأكثرهم هشاشة من الناحية

الأخلاقية، لكي يشغلوا المواقع القيادية فى إدارة الجامعات والكليات والأقسام العلمية والمراكز البحثية، وذلك بسبب الإصرار على حرمان أساتذة الجامعات من حقهم المشروع فى اختيار وانتخاب قياداتهم، والضحايا بالطبع هم البحث العلمى والعملية التعليمية والأجيال الجديدة من الطلاب التعساء وهنا من الطبيعى أن يكون نصيبنا هو الخروج من قائمة أى تصنيف عالمى أو إقليمى للجامعات المتميزة علمياً ومهنياً.

إننى أدعو إلى تعميم هذا الحكم القضائى التاريخى وتطبيقه على كل المواقع والهيئات والوزارات صيانة لما تبقى من حرص على استمرارية هذا الوطن الذى يظللنا جميعاً فقراء وأغنياء شرفاء وأدعياء وانتهازيين فهل نفيق ومتى؟!.

جريدة الأهرام – ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٦م

26 بانوراما احتفالات رأس السنة

فى نهاية القرن التاسع عشر، بدأت عادة الاحتفال برأس السنة الميلادية تغزو المجتمع المصرى، وعلى الأخص شرائحه العليا من سكان العاصمة والمدن الكبرى، وذلك فى سياق تغلغل الأجانب فى الحياة الاجتماعية للمصريين فى عصر الخديوي إسماعيل، بينما ظل أهالى الريف والطبقات الشعبية فى المدن يحتفلون برأس السنة الهجرية، ونادراً ما كان يحدث الاحتفال برأس السنة الميلادية إلا بعض الاستثناءات القليلة التى تمثلت فى كبرى البيوتات القبطية فى عواصم الصعيد وبنادرها.

والمعروف أن الاحتفال برأس السنة الهجرية، يعنى فى الموروث الشعبى أن يتم ذلك بأكل (الزفر)، أى ذبح الطيور مثل الدجاج والبط والأوز والحمام، وتؤكل مع الفطائر، أو الكسكسى، وتتلى آيات الذكر الحكيم والتواشيح ، وأحيانا تقام الأذكار الدينية فى تلك الليلة المباركة، حيث يجتمع أفراد الأسرة حول الأب والأم ويشاركون فى قراءة جزء من الآيات القرآنية، وأحيانا تحتفل الأسرة بأحد النذور، أو بإقامة ختمة، حيث يقوم عدد من الفقهاء بقراءة آيات القرآن الكريم وختمها، ويبدأون بعد صلاة العصر، ويستمرون حتى فترة ما بعد العشاء، ثم تبدأ صوانى الفتة والخراف والماعز، التى يقبلون عليها بشهية منقطعة النظير. ولابد من ذكر الراحلين في ذلك اليوم ، حيث يقوم أفراد العائلات في صعيد مصر بزيارة القبور، وتوزيع الصدقات ويسمونها (الرحمة)، المكونة من التمر والنبق والكعك والقرص وأحيانا البرتقال إذا كان الموسم فى الشتاء.. وتتوارى عادة الاحتفال برأس السنة

الهجرية فى المدن والعاصمة فلا يحتفل بها إلا الطبقات الشعبية والعائلات المتدينة وفى إطار محدود يقتصر على ضرورة إعداد طعام دسم فى تلك الليلة. أما الاحتفال برأس السنة الميلادية فقد أصبح طقساً شبه قومى، شمل معظم الفئات الاجتماعية. وقد أتيح لى فى الفترة الأخيرة أن أشهد هذا الاحتفال لدى شرائح اجتماعية وثقافية متنوعة.

كان الاحتفال الأول مع مجموعة من المثقفين فى منزل أحدهم. كان الجميع يرتدون أفضل ما لديهم، وهذا معناه أن النساء وضعن بعض الإكسسوارات (إيشاربات - بروشات) فوق ملابسهن التى غالبا ما يذهبن بها إلى العمل، ويشاركن بها فى اجتماعات وندوات المثقفين. أما الرجال فلا تغيير يذكر. بل إن بعضهم كان يرتدى الملابس العملية النهارية (بلوفرات وقمصان مقلمة وجاكيتات متواضعة.. إلخ) وقليل من النساء ذهبن إلى الكوافير، وانعكس ذلك على تسريحة الشعر. وكان الحديث يدور حول قضايا الوطن وعجز العرب، وهيمنة أمريكا وحلفائها، وبطولة الفلسطينيين، ومأساة أفغانستان وشعبها، وعن بعض المثقفين الذين يلهثون للفوز بعضوية الحظيرة الحكومية للثقافة.. ولا يفوت الحاضرين السخرية من المثقفين الرسميين، خصوصاً هؤلاء الذين يزعمون أنهم مقموعون - وكان بعضهم حاضراً فى الاحتفال- فى الوقت الذى يتمتعون بامتيازات وصلاحيات تفوق صلاحيات أى وزير ثقافة أسيوى أو إفريقى.. ولم يكف المثقفون الحاضرون عن الخوض فى سير الحكام، ولصوص الأوطان من رجال الأعمال المزعومين، ونهابى البنوك، وذلك أثناء التهامهم المزة المكونة من أطباق الترمس والخيار والجزر، والفول السودانى، واقتصرت المشروبات على نوعين من الكحوليات: الويسكى. والبيرة، غير المشروبات الأخرى مثل الكوكاكولا، وعصير البرتقال.

أما الاحتفال الثانى فقد كان منذ عدة أعوام، عندما دعانى أحد زملائى بالجامعة، وهو متزوج من أجنبية (سيدة من شمال أوروبا). التقيت فى مدخل الفيلا بشجرة عيد

للميلاد مضاءة بألوان مبهجة، وعلى البساط الأخضر فى الحديقة تناثر المدعوون، ومنهم بعض الأجانب . وكانت النساء يرتدين ملابس السهرة السوداء الشفافة. وكان بعضهن يغطين أكتافهن بالشيلان ذات التطريز الروسى القديم، والبعض الآخر كن يضعن بلا مبالاة فرو المنك ، حيث كانت تتدلى فوق أجسادهن رؤوس الثعالب ، وسائر الحيوانات المحرم صيدها دوليا. وكانت تتدلى من آذانهن الأقراط الماسية، حيث تتعانق الألوان القرمزية والفضية فى إطار خلاب . كان الجميع وقوفا ويتهادى أغلبهن فى ليونة ودلال، وقد التفت حول أعناقهن القلادات البلاتينية المنمنمة ذات البريق الأخاذ.

وكان الجميع يرتشفون كئوس الشمبانيا والويسكى، وأنواعا أخرى من الكحوليات لا أعرف اسمها بالضبط وكان بعضهم يتحدث بالإنجليزية أو الفرنسية ، وكان البعض يناقش بصوت مرتفع نسبيا الصفقات وأسعار البورصة ، ومستقبل العملة الأوربية الجديدة (اليورو)، وفى ركن منزو كان يجلس بعض أساتذة الجامعات يرتشفون أكواب العصير، وقد استغرقهم الحديث عن الشللية ومخالفات بعض رؤساء الجامعات، وحالات الثراء المفاجئ التى أصابت بعضهم، وعن اختيارهم دون معايير موضوعية، وعن انحسار الدور الثقافى للجامعات ، وسيادة الروح النفعية لدى الأجيال الجديدة من الباحثين. ثم أطفئت الأنوار وأعلن مولد عام جديد. وأعلنت سيدة الدار عن افتتاح البوفيه، الذى كان ممتدا بطول الحديقة، وقد امتلأ بالديوك الرومية الذهبية اللون، والحيتان الكبيرة المحاطة بالمايونيز والكافيار، وأنواع غير مألوفة لى من الفطائر والمعجنات. واكتفيت بكسرة صغيرة من الخبز الأسمر، مع بعض أنواع الجبن الأبيض، حفاظا على سلامتى المعوية والنفسية. وكل رأس سنة وأنتم طيبون.

جريدة الأهالى – يناير ٢٠٠٧

27 العرافة وهموم فتاة مصرية

قالت العرافة للفتاة القلقة على مستقبلها «أرك تلبسين ثوب الزفاف ذى اللون الأسود وتتدحرجين من قمة جبل شاهق» علقت الفتاة بصوت خافت «ألا يكفى ما لاقيته من أهوال بسبب دفاعى عن حقوق أهلى المغلوبين على أمرهم وكرامة وطنى الذى داسته أقدام البغال وتسلق فوق أكتافه الانتهازيون والسماسرة وعملاء العدو الصهيونى والأمريكى وأصبح شرفاء القوم أذلاء يغالبون أقدارهم بما يمتلكوه من معرفة ووعى وعرق وكفاح متواصل من أجل حماية أطفالهم وإنقاذ نسائهم» ضحكت العرافة بسخرية وقالت : (الغريب أن أحد كبار المسئولين المتهم فى عدة قضايا فساد والإتجار فى المواد الممنوعة وتمتد أملاكه على اتساع عدة محافظات قبلى وبحرى ويمتلك عدة قصور فوق ضفاف البحر والنهر وتبلغ أرصدته فى بنوك سويسرا عدة مليارات هذا الشخص جاءنى وألقى أمامى عدة آلاف من الجنيهات وطلب منى أن أرى طالعه وقد رأيت العجب فى هذا الطالع رأيته يقف فوق سفينة كبيرة زاهية الألوان وبجواره مراكب صغيرة مهشمة وقديمة يرتدى ملابس الملوك ويرفع يده بعصا أبنوسية ويغنى وأنت التى تكافحين لا تجدين سوى المطاردة والتشريد والعوز ما هذا الغم سوف أكسر بللورتى وأعتزل هذا العمل)، ردت عليها الفتاة لا تكسرى بللورتك ولا تعتزلى هذا العمل لأن بللورتك تقول الصدق أكثر من إعلامنا المشوه والمسئولين الكبار الذين يكذبون جهاراً نهاراً ولا يكفون عن الإدلاء بالتصريحات الوردية ويساعدهم الإعلام الرسمى الفاسد الذى أدمن

التضليل وإخفاء الحقائق وانجرف ضمن جوقة المفسدين وأصبح همه الأكبر التركيز على مباريات الكرة ومسابقات الوهم بالإثراء وإغراء ملايين المواطنين المفقرين بالجرى خلف الآمال الضائعة وأوهام الكسب الحرام. التقطت الفتاة أنفاسها وتناولت كوباً من الماء ثم استطردت بصوت مجروح يظلله الشجن ويغلفه اليأس قالت لقد استشهد أبى فى حرب ١٩٤٨ ولحقه ثلاثة من أشقائى وأبناء عمومتى فى حرب ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف ١٩٦٩ واكتملت المأساة بإصابة شقيقتى بالعمى نتيجة إصابتها بخراطيم مياه النار من رجال الأمن فى إحدى مظاهرات طلاب الجامعة ضد اتفاقية الصلح مع العدو الصهيونى عام ١٩٧٩ لقد علمونا أنه لا كرامة لمواطن فى وطن مهان يبيع أرصدته وصناعاته وكرامته فى سوق النخاسة ونخر سوس الفساد فى جميع أركانه وكلما لجأت إلى أحد الكبار كى يساعدنى فى العثور على عمل شريف يحاول استدراجى للعمل معه فى حمل حقائب مشبوهة ونقلها إلى عواصم أجنبية أو استخدامى كواجهة لصفقات مشبوهة وكلما امتنعت حاصرونى وهددونى فى رزقى وأمانى الشخصى وسمعتى حتى أصبحت جميع أبواب الرزق الشريف مسدودة فى وجهى ماذا أفعل؟!

أجهشت العرافة بالبكاء واحتضنت الفتاة وقالت لها «إن الله يمهل ولا يهمل وسوف يأتى الفجر مهما طال الليل لا تيأسى من رحمة الله».

صوت الجامعة ١٠ إبريل ٢٠٠٧

28 الواحة المنسية

فى صحبة فريق متميز من أعضاء نقابة الصحفيين أتيحت لى زيارة الواحات البحرية التى تبعد عن القاهرة ٣٦٦ كيلومترا والتى شهدت فى الماضى البعيد وبالتحديد خلال الحقبة الرومانية ازدهاراً حضارياً كان امتداداً للحقبة الفرعونية إذ كان يسكنها مليون فرد عمروا الأرض وزرعوها بأشجار الزيتون وبنوا المعابد والمقابر وسجلوا على جدرانها مظاهر الحياة اليومية ثم تغيرت الأحوال فى العصور التالية وهجرها الناس ولم يعد يسكنها سوى ٣٥ ألف مواطن يعيشون على فتات ما تركته لهم الظروف من بقايا الحضارة القديمة التى تباهى بها أسلافهم وتتمثل فى زراعة فقيرة وحرف شبه مندثرة وأنشطة خدمية لأفواج السائحين القادمين من أوروبا وألمانيا وايطاليا ومن اليابان الذين يأتون مدفوعين بحب الطبيعة والحياة الفطرية للتعرف على بقايا الحضارة القديمة والاستمتاع بالرحلات الصحراوية التى تتميز بها هذه الواحة الرائعة التى تنفرد بمساحة شاسعة من الصحراء البيضاء الزاخرة بأجمل ما وهبته الطبيعة من جبال بللورية وتماثيل طبيعية للشجر والبشر.

تجولنا فى الواحة والتقينا بالوجوه الطيبة من الرجال ولم نشاهد وجه امرأة واحدة من أهالى الواحة فهى تعيش خلف أسوار كثيفة من التقاليد الصارمة التى تحرمها من المشاركة والتفاعل مع حركة الحياة والعطاء خارج البيوت ورغم انتشار التعليم بين الأجيال الجديدة فى الواحة إلا أن التقاليد لا تزال لها سطوتها الذكورية التى تخيم على العقول والنفوس وتحول دون التفكير فى مواكبة العصر الذى يشهد حراكا مجتمعيا

تصدره الطلائع المستنيرة من الرجال والنساء معاً. وبرغم ما يتميز به أهالى الواحة من روح الانتماء الأصيل للوطن وتراثه وتاريخه العريق إلا أنهم يشعرون بكثير من الأسى والمرارة بسبب عدم تحديد انتمائهم الإدارى، فهم تارة يلحقون بمحافظة مرسى مطروح ثم يغير الحكم المحلى تبعيتهم ويصبحون تابعين لمحافظة الجيزة وأخيرا أصبحوا ملحقين بالمحافظة الجديدة المسماة ٦ أكتوبر وقد تسبب هذا الوضع فى تهميشهم وحرمانهم من رعاية الدولة سواء فى قطاع المشاركة السياسية فلا يوجد بها إلا الحزب الوطنى الحاكم ولا يوجد تمثيل للأحزاب الأخرى ولا توجد بالواحة جامعات أو معاهد ويقتصر التعليم فيها على بضع مدارس ابتدائية وإعدادية وثانوية واحدة وثلاثة معاهد أزهرية. وبرغم حصول قرية منديشا على الجائزة الأولى فى النظافة فى محافظة الجيزة التى تشكو من تراكم القمامة فى مختلف ميادينها وشوارعها وأيضا حصول عاصمتها مدينة الباويطى على المركز الأول فى النظافة فى محافظة ٦ أكتوبر إلا أن باقى قرى الواحة تعانى معاناة شديدة من نقص الخدمات خصوصا فى مجالات الصحة فلا يوجد بها سوى مستشفى مركزى يفتقر إلى الإمكانيات الطبية والبشرية فلا توجد غرفة إنعاش ولا بنك دم ولا غسيل كلى ولا معامل تحليل ويديرها طبيب ممارس عام بدون كوادر تمريض.

وقد تعرض العديد من الأهالى للوفاة والإصابات البالغة بسبب عدم وجود سيارات إسعاف وأطباء متخصصين علاوة على الطرق الترابية غير المرصوفة وغياب الإنارة وعدم وجود شبكة مواصلات داخلية.

لقد حملنى أهالى الواحات البحرية مطالبهم المشروعة والضرورية وأناشد المسئولين فى وزارات الصحة والثقافة والكهرباء والحكم المحلى أن يضعوا هذه الواحة على أجندتهم وأن يحاولوا تعويضها عما لاقته من نسيان وتقلب وعدم استقرار بين المحافظات فهى تضم أغلى ما أنجبه الوطن من بشر وما تركته الحضارة المصرية من آثار.

الأهرام – الأحد ٢٨/ ٣/ ٢٠١٠

29 خدم المراحل المنحطة

جاءتنى صحفية تعمل فى إحدى الصحف المستقلة لإجراء حوار معى عن هؤلاء الذين كانوا يروجون للتطبيع مع إسرائيل ويتظاهرون الآن بتأييد المقاومة الفلسطينية فى مواجهة حرب الإبادة الصهيونية بادرتنى بالقول : أريد أن أعرف أين كان هؤلاء عندما كان يناضل الفلسطينيون من أجل حقوقهم الوطنية المشروعة بينما كان هؤلاء يرفعون أعلام التطبيع ويتبادلون الزيارات مع الإسرائيليين ويستقدمون الوفود الإسرائيلية كسياح وكخبراء فى الزراعة بل ولا يستنكفون مشاركة أعضاء السفارة الإسرائيلية فى مصر فى احتفالهم بيوم ١٥ مايو الذى يعتبرونه عيد استقلالهم وهو فى الواقع أسود يوم فى التاريخ العربى يوم اغتصاب فلسطين وتسليمها للصهاينة، وتحت مظلة كامب ديفيد والصلح مع العدو الصهيونى، قام الإسرائيليون على مدى عشرين عاماً بمسح المجتمع المصرى من أسوان إلى مرسى مطروح وتسللوا إلى كافة الأماكن والمواقع الهامة والحساسة فى كل قرية ومحافظة وميناء ودير ومدرسة ومستشفى فى شمال مصر وجنوبها وانتهكوا خصوصيتنا وسبروا أغوار خفايانا وكوامن أسرارنا الحياتية وفى اللحظة المناسبة لهم هددونا بضرب السد العالى، قلت لها ولكن المظاهرات التى شارك فيها الآلاف من شباب مصر وأطفالها ونسائها أكدت بما لا يقبل الجدل أن مصر الحقيقية ترفض الوجود الصهيونى وتدرك بفطرتها وبتاريخ شهدائها أنه لا سلام ولا استسلام لكل أشكال المساومة والتواطؤ والخداع وإذا كان هناك فئة ضالة قد انساقت خلف الأوهام فإن مصر بتراثها الوطنى وضميرها القومى ووعى طلائعها المستنيرة

والملتزمة قد اكتسحت هؤلاء المتنطعون كما كشفتهم وقاطعتهم منذ البداية ودليل ذلك موقف النقابات المهنية ونوادى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الذين قاطعوا التطبيع وجرموا كل من تسول له نفسه أو مصالحه الأنانية زيارة إسرائيل أو إقامة علاقات معها.

واصلت الصحفية حديثها بانفعال قائلة: ماذا يقول هؤلاء المطبعون والمروجون للصلح مع العدو الصهيونى بعد أن انكشفت الأستار وزال الوهم؟ ماذا يقول الوزراء الذين كرسوا جهود وزاراتهم لخدمة الإسرائيليين وأصبحت مكاتبهم مزاراً دائماً للوفود الصهيونية؟ ماذا يقول الكتاب والصحفيين الذين زاروا إسرائيل عدة مرات وأصبحوا أبواقاً للترويج للصلح مع العدو الصهيونى وتطبيع العلاقات معه؟ ولماذا يظل الصحفيون الذين كشفوا بالوثائق والأدلة الدامغة أهوال التخريب الذى ألحقه الإسرائيليون بالزراعة المصرية وحولوا حقولنا الخصبة إلى أراضى بور بتقاويهم المسمومة ألا يدعونا ذلك إلى إعادة النظر فى مفهوم التطبيع ذاته؟ تتساءل ثم تجيب: إننى أرى أن التطبيع يعنى أساساً عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعى مع الدول التى تربطنا بها مصالح وعلاقات تاريخية، أما العدو الصهيونى الذى يهدد وجودنا ذاته وليس مصالحنا وأمننا القومى فحسب هل يمكن إقامة علاقات طبيعية معه؟ إن التطبيع مع إسرائيل يعنى فى جوهره عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعى أى العداء والخصومة التاريخية والآتية والمستقبلية مع هؤلاء الذين جاءوا من الدول الأوروبية كى يغتصبوا أراضينا وينتهكوا حقوقنا ويشردوا أهلنا فى فلسطين وبدلاً من أن يحلوا مشكلتهم مع أوطانهم الأوروبية التى اضطهدتهم ولفظتهم وصدرت أزمتهم إلى العالم العربى دون ذنب جنيناه جاءوا إلينا كغزاة وسفاحين. تتساءل مرة أخرى: هل نحن مسئولون عن المشكلة اليهودية إنها مشكلة أوروبية ويجب أن يحلها هؤلاء الذين خلقوها.. صمتت الصحفية قليلاً ثم استطردت: حتى المطربين الذين أصبحوا يجيدون الأغانى ويتغزلون فى الشعب الفلسطينى وبطولاته أين كانوا فى السنوات الماضية

عندما كانوا يصدعون رؤوسنا بالأغانى التافهة والهابطة؟ هنا تدخلت كى أهدئ من انفعالها وأوضح لها بعض الأمور قلت لها: باعتبارك دارسة للتاريخ سوف تفهمين جيداً ما سوف أقوله لك.. يخبرنا التاريخ العربى وعلى الأخص المصرى والفلسطينى فى فترات المد الثورى والوطنى يصبح جميع الناس وطنيين حتى الراقصات وتجار المخدرات وفى فترات الجذر والتراجع والاستسلام لسطوة القوى الأجنبية يظهر الوطنيون الحقيقيون المستوعبون لتاريخ أوطانهم يقبضون على ثوابتهم الوطنية كالقابضين على الجمر يواصلون مسيرة النضال بدأب وصلابة لا يحنوا رؤوسهم ولا ترهبهم الضغوط والسجون والمعتقلات مهما اشتدت وطأتها ولا تبهرهم الإغراءات من مناصب وأموال مهما سطع بريقها الزائف.. هذه قصتنا قصة الشعب المصرى مع التطبيع ولكن أود أن ألفت نظرك إلى أن تصاعد النضال الفلسطينى وبطولات الاستشهاديين فى مواجهة المغتصب الصهيونى هى صاحبة الفضل الأول والأساسى فى كشف الأساطير المضللة التى نسجتها الصهيونية منذ أوائل القرن العشرين وتحالف معها المتواطئون والمستسلمون من الحكومات العربية، وجماعات المصالح، لقد انكشفت حقيقة الصهيونية كحركة عنصرية استعمارية، لقد أصبح القاصى والدانى من بلجيكا شمالاً إلى جنوب أفريقيا جنوباً والصين شرقاً والأرجنتين غرباً أصبح الجميع فى جميع أنحاء الأرض يدركون حقيقة الوطن الفلسطينى المغتصب وحقيقة الصهيونية وزبانيتها من العملاء الخونة. هدأت الصحفية ثم قالت: ولكن لا يزال الطريق أمامنا طويلاً وشاقاً حتى يسترد الشعب الفلسطينى سيادته على كامل ترابه الوطنى وحتى تتطهر الأرض العربية من هؤلاء المغتصبين.. قلت لها: هذه ضريبة الانتماء إلى الأوطان وهذا هو الفرق بين الوطنيين الحقيقيين وبين هؤلاء الذين يسايرون الموجة والذين أسميهم خدم المراحل المنحطة فى تاريخ الوطن.

العربى الناصرى – مايو ٢٠١٠

30 البكاء على أبواب الكعبة

هذه الأمنية الغالية التي تتمناها معظم النساء المسلمات خصوصًا المتدينات والتي تستعين بها النساء الشعبيات في دعواتهن وأمانيهن للأحباب بزيارة قبر الرسول والكعبة المشرفة كانت بالنسبة لي تجربة مؤجلة لأسباب عديدة ولكن عندما جاء أوانها وتوفرت الرغبة والإمكانات والصحبة قررت أن أعيشها بصحبة نجلي ، كانت البداية في المدينة المنورة التي كنت دائمًا أستعيد ما سمعته وعرفته عن أهاليها المعروفين بالسماحة ودماثة الخلق وشوارعها وأحيائها التي تشع سكينة وطمأنينة وصفاء .

الذين أفسدوا صفاءها بأصواتهم الجشة ينادون على أردأ ما أنتجته المصانع الآسيوية الصينية والكورية والهندية من ملابس ولعب أطفال وموبايلات لأن المنتجات الجيدة أصبحت حكرًا للمولات «المتاجر الكبرى» التي تمتلئ بها فنادق المدينة ، وقد أثار دهشتي تكرار المحال التجارية التي تبيع نفس السلع دون محاولة للتنويع أو التخصيص .. في الحرم النبوي ذلك المكان المقدس الذي يضم قبر الرسول ﷺ ويتكون من عدة ساحات للنساء والرجال وتبدأ منها المداخل إلى المسجد وكل مدخل يحمل اسم أحد الصحابة فهناك باب عمر بن الخطاب وباب علي بن أبي طالب وباب عثمان بن عفان وتتصدر هذه المداخل عدة صفوف من الأنابيب الضخمة ذات الحنفيات الحديثة المملوءة بماء زمزم وبجوارها صفوف من الأكواب البلاستيك التي تُلقى في السلة بعد استخدامها ، لقد أسعدني الاعتناء الفائق بالحرم معماريًا وتأثيثًا وإشرافًا ورعاية وتذكرت يوم أن كنت طفلة في الأربعينيات عندما سألت أمي عن معنى شعار

«ساعدوا فقراء مكة والمدينة» الذي كان يملأ حوائط البيوت في حي روض الفرج وشرحت لي أمي حينذاك ما المقصود بفقراء مكة والمدينة ولماذا نساعدهم قالت : «إن مصر دولة تملك إمكانيات وفيرة والدين يأمرنا بأن نساعد إخواننا الأفقر والأكثر احتياجًا » سرحت طويلاً فيما آلت إليه أحوالنا بعد ظهور النفط وهرولة المصريين إلى حيث توجد المراعي الجديدة ولكن لم أمنع نفسي من التساؤل هل وجد المصريون في الأرض المقدسة المعاملة التي يستحقونها من إخوتهم في الدين وفاء لما قدمه أجدادهم للأسلاف من أهالي الحجاز ونجد ومكة وسائر مدن المملكة الذين خصهم الله بأعظم رسالة على أيدي خاتم المرسلين وحبتهم الأرض بالثروة السوداء فالحظ قد طوقهم من السماء التي لم تبخل بالرسالة المحمدية كما أن الأرض لم تضن بالنفط وهنا أتوقف لدى مقولة سمعتها من أحد الإخوة من أهالي الطائف والخبر عندما أخبرني عن سؤال طرحه عليه ابنه الذي لم يتجاوز العاشرة قال : «لماذا لم تنزل الرسالة المحمدية في مصر ونزلت هنا في الجزيرة العربية؟» فأجابه الأب قائلاً : «إن مصر لم تكن في حاجة في ذلك الزمان للرسل والأنبياء لأن حضارتها قديمة وخرج منها فكر التوحيد على يد إخناتون منذ خمسة آلاف عام ولكن أهالينا هنا في الجزيرة العربية كانوا أحوج ما يكونون للأنبياء موسى وعيسى ومحمد الذين جاءوا لإنارة الضمير الإنساني والارتقاء بالنفوس والعقول والأخلاق » .

وعندما أعود إلى الحرم النبوي في القاعات المخصصة لنساء التي تشهد تزاحمًا شديدًا حيث تختلط الأصوات واللهجات واللغات فنسمع العربية قليلاً ولكن الهوسا والأرودو والتركية والصينية والهندية والفارسية تتداخل ويلهو الأطفال بالعرائس والبنادق الصغيرة وفجأة يعلو صوت المطوعة منذرًا ومنبهًا نحاول تنظيم هذا الحشد النسوي والجنوني تتشابك بعض اليدي وترتفع بعضها الآخر محمولة بالصنادل والشباشب .. رهبة المكان وفخامة المعمار الإسلامي المزود بكل ما استحدثته

التكنولوجيا من إضافات تتناقض تمامًا مع بؤس هذه الحشود وتدني السلوكيات وانفجار الألسن بالشتائم والدفع بالأكواع والأقدام من جميع الألوان البشرية البيضاء والسوداء والصفراء والقمحية والبنية يختلفون في الأعراق والأجناس واللغات ولكن يجمعهم الزي الإسلامي العباءة السوداء التي تخفي جسد المرأة وفي معظم الأحيان وجهها . أكوام نسائية حاشدة من المتحجبات والمتقبات اللواتي فقدن القدرة على التزاحم والتفاهم ولكن يجمع بينهن غضب مكتوم وقهر مزمن الذي يظهر في سلوكيات الزحام نادرة هي الوجوه النسائية السمحة أو المبتسمة تأملت العيون الجميلة المختفية خلف النقاب ولم أتبين في البداية حقيقة ما تخفيه هذه العيون القلقة المنكسرة ولكنني استقبلت بعض الإشارات من عيون هؤلاء النسوة ينم بعضها عن الرضا والاستسلام ولكن معظمها يعكس حالات من القلق والمعاناة الدفينة التي لم تفلح العيون في إخفائها أو مداراتها . كم عمر الغضب لدى هؤلاء النسوة؟ وماذا ورثن عن جداتهن وأمهاتهن؟ بعض العجائز المتشحات بالسواد وأحيانًا بأثواب بيضاء كن ينتحبن بحرارة تدمي القلب ويتوجهن إلى قبر الرسول رافعات أيديهن بالدعاء على من ظلمهن واغتصب حقوقهن وكن يختمن الدعاء بأن الرسول أوصاهن بالصبر وأن الله يمهل ولا يهمل وأن الجنة هي مثوى الصابرين والصابرات وهن الصابرات المكلومات لا يطلبن من الله سوى الستر ، الستر كلمة سحرية سمعتها بعدة لغات وكنت أحرص على أن أستفسر عن المعنى ودلالته في أذهان الكثيرات ممن صادفتهن أمام قبر النبي ﷺ كانت أكثر الدعوات بالصحة والستر والتوبة والهداية لمن ظلموهن .

لماذا عجز هؤلاء النسوة سواهم من الرجال في استلهام روح الرسالة النبوية والقيم العظيمة التي أفنى الرسول حياته من أجل إرسائها ونشرها بين البشر ، قيم التسامح وليس الاستسلام ، إحقاق الحق والدفاع عنه وليس إهداره واغتصابه ، المودة والرحمة وليس التنابذ والشقاق والغطرسة ، لقد حمل لنا الرسول رسالة نبيلة تحث على الجهاد

من أجل إرساء العدل والرحمة والحرية ومناصرة الحق ولكن أين نحن من كل هذا؟ وهل تحولت العمرة إلى وسيلة للدعاء والتنفيس عن الظلم والقهر وهل يصلح دعاء العجائز والمقهورين كبديل عن الوعي وامتلاك إرادة التغيير والثورة على الظلم والقهر؟ تساؤلات طافت بذهني وظلت معلقة دون إجابة ، في إحدى المرات ضللت أنا ورفيقتي طريق الخروج من الباب الذي جئنا منه وإذ بنا نلتحم بحشود رجالية تتراوح ما بين ذقون بيضاء وسوداء وركبت عليها وجوه وطواقي وأيدي تمسك بالمسابح الطويلة وأجساد تحمل السراويل الملونة والبيضاء وتعلوها أكوام غامضة من الأردية والشيلان ويفتقر بعضهم إلى الحياء بل يحاولون بكل الطرق الاقتراب من النساء إلى حد الالتصاق بأكتافهن وأردافهن ويتطاير الشرر من عيون النساء محاولات بأيديهن وألسنتهم دفع هذا الجنون الذكوري الكامن في عيونهم والذي لم يتحشم أو يتوارى حتى أثناء الزيارة المقدسة .

الزحام كان شديدًا في جميع الأوقات سواء في صلاة الفجر أو الظهر أو العصر والمغرب والعشاء وقد تعلمنا أن سلوك الحشد أثناء الزحام دائمًا ما يعكس حقيقة البشر عندما تتحكم فيهم الغرائز البدائية الميل لإزاحة الآخر واختراق «الصفوف دون استئذان واستخدام الأكتاف والأكواع والأقدام أحيانًا والمثير للانتباه لحظة التفتيش عند البوابات ووقوف النساء في استكانة وتوسل أمام حارسات المسجد النبوي ثم استئنافهن للروح العدوانية والهرولة والتكالب على حنفيات مياه زمزم ورغم كثرتها ورعاية مشرفات النظافة إلا أنها كانت مرآة صادقة لحالة الفوضى الأنانية التي لا تزال تسكن وتعشش في نفوس المعتمرات وتنعكس على سلوكياتهن المنفرة ، وجوه نسائية وردية وأخرى ضامرة وثالثة شاردة ورابعة تنضح بالأسى والتعاسة جميعهن أتين يبحثن عن الخلاص والطمأنينة والاغتسال من الذنوب والشكوى المرة من الظلم وأنانية وجشع ذوي القربى ، وعدم الإنصاف ، إن التزاحم الشديد حرمني من

الاستمتاع والتأمل والتواصل الروحي كما أطاح بروح الطمأنينة والجلال التي تحيط بالمكان فقد أسرعت معظم المعتمرات عند دخول الأرض الشريفة إلى إلقاء أثقالهن وأكوام الحزن والقهر المكبوتة وانفجرت به في بكاء مرير وارتفعت الأيدي المحمومة بالدعاء والتكبير واختلطت الأصوات المشحونة بالشجن والعويل مع صراخ الأطفال . في هذا المناخ الهستيري لم يعد هناك أدنى أمل في خلق التواصل والتفاعل مع ذكرى هذا الإنسان المبدع الذي حاول ترويض أعتى البشر وأشرسهم وغرس تلك الدعوة النبيلة والرسالة المحمدية الجليلة ، في طريقنا من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لزيارة الكعبة الشريفة كانت البداية في الأوتوبيس عندما أرهفنا السمع إلى أحد لواءات الشرطة الأجلاء الذي شرح لنا بصورة سلسلة ومبسطة مناسك العمرة وأخذت أستعيدها مع نجلي تجنبًا لأي خطأ غير مقصود وعند الوصول إلى مكة أذهلتني الأبراج الاستثمارية العالية التي تحاصر الكعبة حتى أصبح من العسير تبين موقعها ولكن ظل المكان المقدس محتفظًا بجلاله ورهبته خصوصًا عند رؤية الكعبة وترتفع الأيدي بالتحية للحجر الأسود وترتمي النساء على أستار الكعبة وتنكفئ رؤوس الرجال تلهج بالدعاء والأمل في التوبة والنجاة من عذاب النار ولم أسمع دعاء واحدًا لنصرة الشعب الفلسطيني وتحريره من الاحتلال الصهيوني أو تحرير الشعب العراقي من الاحتلال الأمريكي أو الشعب الأفغاني أو أي دعاء للشعوب وحقها في حياة عادلة وآمنة بل اقتصرت الدعوات على الأماني الشخصية للأهل والأصدقاء بالصحة والنجاح والستر والنجاة من عذاب النار ولم أسمع أي دعاء بأن يحمينا الله من الخوف والخنوع والحماقة والغباء والاستسلام للقوى التي تنهب أقواتنا وتدوس على كرامتنا وتهدر حقوقنا بل تغتصبها ، ولكن أثناء طوافي بالكعبة اخترق أذناي دعاء أحد المعتمرين يقول : «ربنا يفك أسر مصر، قادر يا كريم» أحسست بقدر من الراحة وتمنيت أن يطور هؤلاء المسلمين والمسلمات دعاءهم ويحاولوا تجاوز ذواتهم الضيقة ودعواتهم الذاتية والفردية ،

لقد تأملت تلك الدعوات المفرطة في الذاتية والتي كان يرددها المعتمرون في ذات الوقت الذي كانت شاشات الفضائيات تتحدث عن حرق الصهاينة لأحد المساجد بالضفة الغربية ولم نسمع دعاء واحد ضد الصهاينة أو ضد الحكام المستسلمين ، إن الجموع الحاشدة من المسلمين كانوا يطوفون حول الكعبة كأفراد يفتقرون لروح الجماعة يملأ قلوبهم الخوف والرغبة في التوبة من الذنوب التي ارتكبوها وكأنهم جاءوا فقط للتطهر وطمأنة الذات وليس لاستلهام روح الإسلام الحقيقي التي تحثنا على التواصل الإنساني ومقاومة الظلم والجهاد من أجل حياة عادلة والذود عن الأراضي المقدسة ورد العدوان الصهيوني عن بيت المقدس .. حقًا ما أتعس وأبأس أحوال المسلمين في عالم ترتفع فيه هامات الظلم وقوى البغي الذين يواصلون انتهاك حرمة الإسلام ودياره ومساجده وإذلال أهله . إن الإشكالية التي واجهها الرسول منذ ١٥ قرنًا لا تزال مستمرة وهي سلوك البشر والسباق الجنوني بين التعلم والكارثة وأخشى أن أستعيد مأثورة المؤرخ البريطاني الشهير هـ.ج. ويلز بعد أن عاصر الحرب العالمية الأولى إذ قال : «إن تاريخ الحضارة الإنسانية ما هو إلا سباق بين التعلم والكارثة وإني أرى أن الكارثة قد ربحت السباق ، ولكنني أختلف مع هـ.ج. ويلز فالكارثة أي الجشع والأنانية والفردية والتعصب وتهميش الآخر قد تنتصر هذه القيم السلبية في مرحلة ما ولبعض الوقت ولكنها لا يمكن أن تنتصر طوال الوقت .

سلام وإجلال للنبي العظيم وصحبه الكرام من الأبرار والشهداء .

العربي الناصري – مايو ٢٠١٠

31 المفاجأة المدهشة !

كنت عائدة إلى منزلي بعد يوم مرهق أمضته في حوارات علمية مع بعض علماء وأساتذة الأعلام بالمجلس الأعلى للجامعات في إطار حلقة نقاشية امتدت ٤ ساعات وفي أثناء العودة تذكرت ضرورة مروري على السوبر ماركت لشراء بعض اللوازم الغذائية وعند تقاطع شارع مراد بالجيزة فوجئت برجل المرور يستوقفني ويطلب الرخصة ومقابلة السيد ضابط المرور المختبئ في الكمين على الجانب الآخر من الشارع ، فخرجت من السيارة واتجهت إلى الضابط وقدمت له رخصة القيادة والسيارة وكدت أسلمه الرقم القومي ورجوته أن ينهي إجراءات المخالفة ودفع الرسوم المطلوبة رغم أنني كنت أسير خلف سيارتين سبقتاني في نفس الطريق وعندما أخبرته بهما قال إنه لم يرهما وفي أثناء حديثي معه جرت أمامنا عربة كارو اجتازت الطريق الخطأ وقطعت الشارع بمنتهى الثقة والاطمئنان ونبهت الضابط إلى ذلك ولم يجب وأصر على عدم إنهاء الإجراءات بل تجاوز حدود اللياقة بقوله إني سوف أذهب إلى نيابة المرور وسيتم حبسي أربعة أيام وغرامة ألف جنيه مقابل استرداد الرخصة .

وحاولت أن أتماسك بعد أن أصابني الدوار وأخبرته بأنه ليس من اللائق أخلاقيًا أن يتحدث معي بهذه الصورة فأشار بيده وخرج من السيارة وبدأ التهديد .

عدت إلى منزلي وقد احترق دمي وارتفع معدل السكر وكدت أصاب بغيبوبة .

فهل هذه مهمة الشرطة في التعامل مع الجمهور؟ وهل يدرك هذا الضابط أن

سلوكه غير العادل والخالي من الإنسانية سوف يضاعف من تشويه الصورة الذهنية لرجال الشرطة لدى الجمهور؟ لقد استطعت باتصالاتي أن أسترد الرخصة وكانت المفاجأة المدهشة هي المستوى الرفيع من التعامل والتفاهم لدى قيادات المرور خصوصًا مدير مرور الجيزة اللواء كامل ياسين ، حيث اكتشفت الفجوة الهائلة بين مستوى القيادات ومستوى رجال الشرطة في الشارع ، من أمناء يبتزون الجمهور ويستغلون براءتهم وعدم إلمامهم باللوائح ويطلبون إتاوات كان ضحيتها نجلي خلال شهر رمضان الماضي عندما اعترضه أمين شرطة في ميدان التحرير وحصل على مائة جنيه دون وجه حق ودون إيصال وكتبت عن تلك الواقعة في حينها ، لقد أثارت هذه الوقائع وغيرها الكثير من التساؤلات التي أطرحها على وزارة الداخلية لإعادة النظر في تأهيل الضباط والأمناء ، ولقد أكد خبراء المرور أن تغليظ العقوبات ليس حلاً ولابد من البحث عن حلول أخرى جديرة بتصحيح المنظومة المرورية بأكملها بعد أن وصلت تكلفة حوادث المرور إلى ٦ مليارات جنيه سنويًا ، و٧ آلاف قتيل و٢٧ ألف مصاب يتوفى منهم عدة آلاف .

كما أكد هؤلاء الخبراء أن أحد أسباب هذه الكوارث سوء اختيار أعضاء فرق العمل وعدم تأهيلهم وتدريبهم مما يترتب عليه سوء اختيار مكان الكمين وأوقاته ، وعدم الاهتمام بوضع إشارات توضيحية لإرشاد الجمهور في الأماكن المهمة ، ويسبق ذلك كله فرض إتاوات ظالمة على المواطنين أو التشدد غير المبرر في التطبيق غير العادل للقانون والكيل بعدة مكاييل يكون ضحيتها المواطن البسيط .

أيضًا صورة رجل الشرطة فضلاً عن تعميق روح العداء وعدم التعاون بين الجمهور والشرطة وهم أعز أبنائنا ومنهم كثيرون يتميزون بالالتزام والنزاهة والرغبة الحقيقية في خدمة الجمهور ، وعلينا أن نعترف بأن مشكلة المرور في مصر لن تحل بجهود وزارة الداخلية فقط بل هناك أطراف رسمية عديدة يجب أن تشارك

فيها أولها المحليات وهيئات التخطيط والتشريع ، والجمهور أيضًا ولكن ليس من العدل والنزاهة أن يدفع الجمهور الثمن وحده .

وفي النهاية أتمنى أن أجد أذانًا صاغية من المسئولين عن مشكلة المرور في مصر .

الأهرام ٢٥/ ٥/ ٢٠١٠

الفصل الثاني

المسكوت عنه في الثقافة المصرية



1 هل لمصر سياسة ثقافية؟

هل هناك سياسة ثقافية لمصر؟ وما هى أولوياتها؟

هل تكفى المؤتمرات الاحتفالية والمهرجانات التى تخلق صخبا عالميا ولا تترك أى مردود إيجابى، هناك بالفعل مؤتمرات كثيرة وندوات أرضية وتليفزيونية وكتب كثيرة تدفع إلى المطابع ومهرجانات ثقافية لا تتوقف ولكن هل هذا يكفى لتجديد وتنوير العقل الجمعى فى مصر، هل ترميم الآثار وإنفاق الملايين على بناء قصور وأبنية جديد للأنشطة الثقافية دون الاهتمام بوضع برامج جادة طويلة المدى للأنشطة الثقافية ودون الاهتمام بتربية كوادر فى مختلف مجالات الإبداع، هل هذا وحده يكفى؟ وهل هناك سياسة ثقافية للجامعات ومراكز البحوث والهيئات المختلفة التابعة لوزارات الإعلام والتعليم؟

هل هناك خطة قومية للسينما والمسرح وخطة لنشر ورعاية الإبداع الثقافى فى المجالات العلمية والفكرية والأدبية والفنية والدينية دون خوف من ،رقابة العلنية والمسترة؟!

هل هناك خطة وبرامج ثقافية تسعى إلى تشكيل رؤية نقدية معاصرة لما يجرى حولنا لدى المواطن المصرى فى كافة مجالات الإبداع المسرحى والسينمائى والدراما التليفزيونية والبحث العلمى والفقه الدينى.. إن تشكيل العقل والوجدان الجمعى تقع مسئوليته الأولى على كل من وزارات التعليم، والثقافة والإعلام، فهل هناك

تعاون وتنسيق حقيقى بين الوزارات والهيئات المعنية بإنتاج الثقافة ونشرها.. إن كل وزارة تنفرد بسياستها وتحرص على عدم مد الجسور للتفاعل والتنسيق مع الوزارات الأخرى التى تعمل فى نفس المجال وتنشغل بذات الهموم والقضايا، وتعانى هذه الوزارات من قصور بنيوى تراكم عبر السنين فأنتج أوضاعاً مشوهة عاجزة عن التعامل مع التحديات التى يطرحها العصر الحالى بتعقيداته وملابساته وإشكالياته العديدة. تعانى الأحوال الثقافية فى مصر من العشوائية وترهل أداء المؤسسات القائمة وسيطرة الشكلية والبيروقراطية على جميع الأنشطة الرسمية للوزارات المعنية بالثقافة فى مصر إذ تغلب التراكم الكمى للمنتج الثقافى والفكرى وغاب عنصر النوع والتميز ولذلك نشاهد عشرات الصحف والمجلات الثقافية والكتب والترجمات ولكننا لا نعيش واقعاً ثقافياً ناهضاً وأعتقد أن السبب يكمن فى العقلية التى تخطط للثقافة فى مصر إذ تميل إلى الدعاية والترويج والتسويق التجارى للثقافة أكثر من اهتمامها ببناء مشروع للنهضة الثقافية والواقع أن المجتمع المصرى قادر دوماً على رفد الواقع بالعقول المبدعة والمواهب الخلاقة ولكن السياق الديماجوجى الذى يهتم بالمظاهر والشكليات لا يتيح للمواهب الجادة فرصة المشاركة أو التأثير كما أن لدينا إمكانيات مادية ضخمة ولكن يتم إنفاقها بمنطق السوق والعقلية التجارية وسد الخانات والدوران فى حلقة مفرغة من العموميات واجترار الاجتهادات الماضاوية والتقليدية والتى كانت تصلح للعصور التى أنتجتها.. نحن نعانى من تهميش الخطاب العقلانى النقدى المستنير سواء فى تعاملنا مع الفكر الوضعى أو الفكر الدينى ولا يمكن أن ننكر أن هناك بعض المحاولات الفردية الجادة والمخلصة المبعثرة هنا وهناك تتمثل فى أنشطة بعض المؤسسات أو المجلات الثقافية ولكنها وحدها لا تكفى لأن الثقافة لا تنهض إلا فى إطار منظومة

متكاملة تسهم فيها جميع المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية والإعلامية وتسعى من خلال التعاون والتنسيق إلى خلق مناخ ديمقراطى حقيقى وفعال يتغلغل فى حياة الناس ويؤثر فى سلوكياتهم وأفكارهم ورؤيتهم للواقع ويشجع ذوى المواهب على طرح إبداعاتهم دون خوف والاهتمام بقضايا وطنهم ومجتمعهم كى يصبح قادراً على مواجهة تحديات عصره.

صوت الجامعة ٦ مارس ٢٠٠٢

2 أزمة الثقافة العربية

تعانى الثقافة العربية من أزمة مركبة متعددة الأبعاد لا يمكن أن نعزوها فقط إلى قلة الأعمال الإبداعية وغياب المبدعين ولكن يمكن إرجاعها فى الأساس إلى سببين محوريين هما:

أولاً: أزمة صناع القرار أى الحكام العرب وتبعيتهم شبه المطلقة لصناع القرار الدولى وهم بالتحديد الولايات المتحدة الأمريكية والبنك والصندوق الدوليين ومنظمة التجارة العالمية.

ثانياً: أزمة المثقفين العرب الذين ينقسمون إلى ثلاث فئات فئة تم ترويضها واستقطابها لصالح مؤسسات الحكم وفئة ثانية تم استقطابها لصالح المراكز الأجنبية التى تحتكر حقل النشاط الأهلى وتدفع بسخاء لأنصارها والمتعاملين معها وتنشر شبكاتها الأخطبوطية بإغراءات سخية تستهدف احتواء الأجيال الوسيطة والجديدة فى أنشطة مظهرية ذات ضجيج إعلامى مفتعل وحصاد مجتمعى محدود ومضلل ويتركز نشاطها فى العواصم العربية ويدور حول ندوات ومؤتمرات احتفالية لا ينتج عنها سوى وريقات إعلامية لا تغنى ولا تسمن ولا تضيف جديداً. أما الفئة الثالثة من المثقفين فهى تضم هؤلاء الذين يتبنون فكر التغيير الذى يجسدونه فى دفاعهم عن قضايا الأوطان والفئات المهمشة والكادحة ويتم استبعاد هذه الفئة بشكل منتظم من كافة المواقع ذات التأثير فى صناعة القرار الوطنى فى كافة الميادين ويتم ذلك من خلال الضغوط البيروقراطية والأمنية.

وفى ظل هذا المناخ لابد أن تطرح قضية مسئولية المثقفين العرب وضرورة سعيهم لامتلاك الجبهة الثقافية من خلال جهد جماعى منظم لتشكيل رؤية مشتركة حول القضايا المصيرية مثل الصراع العربى الإسرائيلى وقضايا التنمية البشرية والإنسانية فى الوطن العربى ويستلزم ذلك تطوير الخطاب الثقافى بحيث يتركز حول تشخيص مشكلات الواقع العربى الراهن والتحديات والتهديدات المطروحة على الوطن العربى بشعوبه وحكامه داخلياً وخارجياً.

فإذا كان المثقف العربى لا يعانى من العجز الذاتى بقدر ما يعانى من الحصار والتكبيل بالقيود السياسية والاقتصادية والأمنية فإنه مطالب بفك قيود التبعية للأنظمة الحاكمة وعدم السير فى ركابها مع ضرورة العمل فى نفس الوقت على التخلص من التبعية للمركزية الثقافية الغربية (الأوروبية الأمريكية) إلى المدى الذى لا يؤدى إلى الانغلاق على التراث كذلك يقع على المثقف العربى مسئولية التخلص من السلوكيات والممارسات المظهرية التى تكرس الازدواجية والانغلاق فى دائرة النفع الشخصى دون مراعاة للصالح العام أو القضايا الكبرى ولذلك عليه أن يسعى لتطوير قدراته وتعميق انتماءه لأمته وثقافته من خلال تواصله مع كل ما هو إيجابى ومستنير فى تراث تاريخه الاجتماعى والثقافى ومن خلال التواصل مع رفاق الاستنارة فى إطار برنامج عمل جماعى يهدف إلى تمكين الشعوب العربية من المشاركة فى صنع القرارات الوطنية والدفاع عن حقوقهم الأساسية وعلى رأسها حقهم في حرية التعبير واقتسام عائد الثروات الوطنية بصورة تضمن عدالة توزيعها على كافة شرائح المجتمع العربى وذلك وصولاً إلى المدى الذى يجبر النظام العربى الرسمى على احترام الإرادة الشعبية ويعكس ذلك الاحترام فى قراراته وتوجهاته وسياساته وإلا فإنه سيواجه عاجلاً أم آجلاً بإرادة شعبية جماعية تنتزع منه الأمانة والمسئولية التى أؤتمن عليها.

صوت الجامعة - ٥ مارس ٢٠٠٣

3 الرغيف .. والتثقيف

نحن نعيش فى مجتمع يعانى من عدة أزمات اقتصادية وتشريعية فى ظل التحول إلى اقتصاد السوق منذ أوائل التسعينيات، وتتمثل أبرز هذه الأزمات فى زيادة حجم البطالة وتضخم القطاع الحكومى والتوسع فى تحديث البنية الأساسية على حساب المشروعات الخدمية فى الصحة والتعليم فضلاً عن زيادة الديون بالإضافة إلى الأزمة الدستورية التى تشير إلى ضرورة تعديل دستور ١٩٧١ الذى ينص على أن مصر دولة اشتراكية مما يتناقض مع اقتصاد السوق.

وفى ظل الأوضاع الحالية تحول المواطنون إلى كائنات تلهث وراء لقمة الخبز، إذ لم يعد لديهم الوقت أو الإمكانيات المادية للقراءة أو المشاركة فى إدارة شئون المجتمع، لقد أصبح التحدى الذى يواجه المواطنين يتمثل فى مضاعفة قدراتهم المهنية للحصول على عمل إضافى أو الحصول على أجر أعلى وجاء ذلك على حساب الثقافة والتثقيف ومتابعة الموضوعات الجادة.

واستفادت وسائل الإعلام من الأزمة المجتمعية فركزت على ترويج الثقافة الاستهلاكية «الجريمة والرياضة والمنوعات والإعلانات والجنس» من خلال آليات أدت إلى سيادة أخلاقيات السوق على حساب الأخلاقيات المهنية ومنظومة القيم الاجتماعية وفى سياق ذلك تم تحويل جمهور القراء إلى مستهلكين وتحويل الصحيفة إلى سلعة، كما لعبت الشركات المتعددة الجنسية دوراً أساسياً فى نشر هذه الثقافة من خلال الإعلانات وتهميش الأدوار الاجتماعية والثقافية للصحافة.

لقد أدى هذا التحول فى وظائف الصحافة إلى هبوط مصداقيتها بعد أن تحولت الصحف إلى أدوات للتسلية والإلهاء وتحول الصحفيون إلى موظفين ومستثمرين من نوع جديد يتاجرون بالقيم المهنية ويتلاعبون بالمعرفة ويسخرونها لخدمة ذوى النفوذ الاقتصادى والسياسى، لقد تدهورت صورة الذات لدى الصحفيين كما تدهورت صورتهم لدى الرأى العام، وأدى تغلغل رجال الأعمال واختراق السلطة التنفيذية للصحافة المصرية إلى اختفاء الوظيفة الأساسية للصحافة وأعنى بها النقد والكشف عن الفساد وسوء الإدارة والظلم الاجتماعى، إذ تحولت المادة الصحفية إلى مادة إعلانية دعائية لمن يدفع وهذه هى فيروسات الفساد التى عصفت بجوهر المهنة. يضاف إلى ذلك اعتماد الصحفيين على المصادر الرسمية وتقارير العلاقات العامة فى تغطية الأنباء المحلية الشئون الخارجية وقد أدى ذلك إلى اختفاء النقد الاستراتيجى وإن بقى النقد الأمبيريقى المبعثر فى جزيئات تتناول بعض الممارسات التنفيذية ولا تقترب من نقد السياسات العامة للدولة أو القيادات المركزية فى السلطة. ورغم أن الصحف الحزبية قد ساهمت فى خلق رؤية بديلة للقضايا لدى الرأى العام، إلا أن استمرار السلطة التنفيذية فى سياساتها الاقتصادية والثقافية التى أدت إلى المزيد من الإفقار ونشر ثقافة المهرجانات، كل ذلك أصاب الرأى العام بالإحباط بسبب تبنى السلطة لشعار يقول «دعهم يقولون ما يشاءون ونحن نفعل ما نريد»، والواقع أنه ليس مهما أن نستثمر مستحدثات التكنولوجيا فى تطوير أداء الصحافة وتبقى المضامين العامة والمصادر الرسمية والعلاقات المهنية أسيرة للمعلنين وللسلطة التنفيذية وتتحول المهنة إلى وظيفة مهمتها التخديم على كل هؤلاء على حساب دورها الأساسى فى توعية الجمهور وتثقيفه والدفاع عن حقوق المستضعفين والهوية الوطنية والأمن القومى المصرى والعربى.

صوت الجامعة- ١/ ٣/ ٢٠٠٤

4 الفقر الثقافي

أحسست بخجل شديد عندما نظرت إلى القاعة ووجدتها خاوية إلا من المتحدثين الكبيرين اللذين استضافهما الصالون الثقافى لمجلة «الدوار» أحدهما : أ. عبد الرحمن الشافعي مخرج مسرحى قدير كرس حياته لدراسة الموروث الشعبى وتحويله إلى عروض مسرحية ، والثانى أستاذ جامعى متخصص فى التراث الشعبى «د. سميح شعلان» ثم لحق بهما الروائى المعروف محمد مستجاب وبعد فترة قصيرة اكتملت حلقة الدوار ولكن بدون جمهور ظل الخجل والدهشة يحاصرانى وبدأت معاتبة الذات.. هل قصرنا فى الإعلان عن الأمسية خصوصاً وأنها تتناول قضية تراثية خلافية توالى عليها المبدعون من مؤلفين ومسرحيين وأساتذة جامعات ولا تزال تثير الكثير من الجدل شأنها شأن العديد من السير العشر المعروفة ولكنها أكثرها زخماً خصوصاً فى صعيد مصر لأنها تتناول سيرة أبو زيد الهلالى التى لا تزال حية فى وجدان أهالى الصعيد إلى درجة تقسيمهم إلى أحزاب وفرق هناك حزب أبو زيد وآخر موالى لدياب وثالث للزناتى وهكذا إلخ.

تساءلت كيف يصل بنا الحال إلى هذا المستوى من التراجع عن متابعة فعاليات ثقافية جادة حقيقية توقعت أن تزدحم القاعة بالعديد من الشباب والشابات المتعطشين للمعرفة والثقافة من طلاب كلية الإعلام حيث علقنا الإعلان وكذلك شباب الصحفيين الذين يترددون على نقابتهم التى شهد البهو الرئيسى بها إعلاناً ساطعاً عن الندوة ولم نكتف بذلك بل استكملناه بالنشر فى الصحف القومية

والحزبية.

لاحظ الضيفان الكبيران خجلى وارتباكى بسبب غياب الجمهور قاموا بتهدئة خاطرى مؤكدين أن هذه الظاهرة السلبية انتشرت فى المجتمع المصرى خلال السنوات الأخيرة وهذا أمراً يدعو للأسى من ناحية ولكنه يلزمنا بضرورة تأمل هذه الظاهرة كجزء من المشهد الثقافى العام ودراسة أسبابها سرحت طويلاً فى المدرجات التى لم تعد ممتلئة بطلاب العلم وقد كانوا فى الماضى يتسابقون بالجلوس على حافة النوافذ وإحضار كراسى من خارج القاعة والندوات الثقافية والعروض المسرحية التى كانوا يتسابقون ويتزاحمون عليها ما الذى حدث لشباب مصر من الأجيال الجديدة هل قصرنا فى تربيتهم وتثقيفهم وتوعيتهم بأهمية الثقافة ودورها فى بناء البشر؟.. هل الأزمات الاقتصادية المتلاحقة الحلقات قد جرفتنا وهمشت دور وتأثير الثقافة فى حياتنا فأصابتنا بالفقر الثقافى وأفسحت الطريق واسعاً أمام التفاهة والضحالة والفهلوة والسوقية كى تشغل مواقع الجدية والالتزام والشوق إلى بهجة المعرفة تساؤلات ظلت تشغل خيالى وتثير الارتباك فى وجدانى رغم تدفق عبد الرحمن الشافعى فى حديث ممتع وأسر عن السيرة الهلالية والحلم العربى الضائع لقد قدمها برؤية درامية وعرض مسرحى مبهر شغل صدارتها الراوى المبدع الراحل عزت القناوى الذى رحل مبكراً فى عمر لم يتجاوز الثلاثين عاماً إلا قليلاً وقد حرص المخرج المتميز أن يضعه فى بؤرة العرض المسرحى على عكس ما اعتادت عليه العروض المسرحية السابقة وذلك إيماناً منه بموهبة وعبقرية هذا الشاب الصعيدى المسكون بالسيرة الهلالية التى تخلقت فى كيانه وامتزجت بالأجواء الأسطورية المتوارثة فى صعيد مصر وكان المخرج قد التقطه ووقع عليه احتياره من بين عشرين راوياً تخصصوا فى إنشاد العرض عبر الفيديو وتأملنا

المحطات التى توقف لديها المخرج شارحاً لنا جوهر الرؤية التى استخلصها وحرص على إبرازها والتى تؤكد أن البطل الفرد مهما حسنت نواياه وعظمت قدراته النبيلة وإرادته الأصيلة فى تغيير الواقع محكوم عليه بالهزيمة والخسران فى إطار بيئة امتلأت بفقر النفوس وفسادها وأن الخلاص الحقيقى وتغيير الواقع لا يتحقق إلا بجهد جماعي يشارك فى إنجازه بشر نبلاء مخلصين قادرين على تفعيل إرادة التغيير وتطهير الواقع من الدجالين والسماسرة ولصوص الأوطان.

صوت الجامعة - أول مارس ٢٠٠٥

الفصل الثالث

المسكوت عنه في الإعلام المصري



1 هل الإعلام العربي لا يزال عاجزا ؟!

لن نذكر أن الإعلام العربى قد تجاوز بعض قصوراته التى فرضتها ظروف نشأته منذ الحقبة العثمانية مروراً بالضغوط وأساليب القهر المتنوعة التى فرضتها المرحلة الاستعمارية على حرية التعبير وصولاً إلى مرحلة الاستقلال حيث لم تستطع الصحافة العربية أن تتجاوز صوت حكوماتها وإن ظلت تناضل بشتى الطرق للتحايل على القيود الخفية والمرئية التى فرضتها ضرورات أمن الحكومات والبلاد ولكن الثورة التكنولوجية فى الاتصال والمعلومات فرضت ضروراتها وشروطها ومنحت للصحافة العربية هامشاً من الحرية والتطور قابلاً للاتساع ومع كل ذلك فإن الخطاب الإعلامى العربى لايزال غير قادر على استيعاب خبرات الماضى والتكيف مع ضرورات الحاضر وتحدياته ولعل أبرز مثال الخطاب الإعلامى العربى تجاه القضية الفلسطينية إذ لم يزل يغلب عليه الطابع الدعائى البلاغى المفتقر للفاعلية والتأثير خصوصاً وأنه يركز على الرأى العام العالمى الذى يحتاج إلى جهد جماعى قومى لدراسة احتياجات وطبائع ومصالح الشرائح المختلفة من القوى العالمية التى لا تعترف بحقوق الشعب الفلسطينى وتتواطأ سراً وعلناً مع مزاعم الإسرائيليين الذين أجادوا استثمار الهولوكوست وجندوا وسائل الإعلام الغربى لمساندة الباطل الإسرائيلى ضد الحق الفلسطينى وإننى أتساءل لماذا لم يستثمر الإعلام العربى حتى اليوم عشرات المجازر الإسرائيلية ضد الفلسطينيين بدءاً بدير ياسين وكفر قاسم وقبيه ومروراً بصابرا وشاتيلا ومذبحة المسجد الأقصى وانتفاضة

الثمانينيات وأساليب التطهير العرقى الذى لا يزال يمارسه الإسرائيليون بكل ضراوة ووحشية ضد النساء والشيوخ والأطفال والشباب والفسلطينى؟ لماذا لا تترجم هذه الأحداث المأساوية إلى صور إعلامية ناطقة تبثها الفضائيات العربية بجميع لغات العالم وتتوجه بها إلى الرأى العام العالمى وعلى الأخص كهنة الديمقراطية الغربية كى نستثير ما تبقى فى ضمائرهم من حس إنسانى وإدراك لقيمة العدل وحق جميع شعوب الأرض فى التمتع بسيادتها الوطنية على أراضيها ومقدساتها.

وهل يمكن أن يتحقق أى نصر مرحلى أو استراتيجى اعتماداً على بسالة الأطفال الفلسطينيين الذين قدر لهم أن يفتدوا العالم العربى كله بشجاعتهم الأسطورية.. وهل الرأى العام العربى فى حاجة إلى المزيد من المعلومات عن حرب الإبادة الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى لقد أصبنا بتخمة إعلامية قد تؤدى مع العجز العربى الشامل إلى التبلد وهل يمكن أن نحصل على تأييد ومساندة العالم الخارجى بالخطاب السياسى ذى الطابع العمومى الذى لا يزال الإعلام العربى يقف على أعتابه؟ لقد استثمر الجزائريون كافة المذابح الفرنسية ضد الشعب الجزائرى وظلوا يطرحونها على الرأى العام العالمى طوال سبع سنوات ولم يكتفوا بعدالة قضيتهم واستمرار الكفاح المسلح وكذلك فعل حزب المؤتمر الأفريقى بجنوب أفريقيا وكانت الجبهة العالمية والغربية على وجه التحديد أهم جبهات النضال الأفريقى لإبراز بشاعات النظام العنصرى حتى أن مانديلا عندما زار هذه الدول بعد خروجه من السجن استقبل استقبال الأبطال فى العواصم الأوروبية ولم يكن قد حصل بعد على استقلال بلاده بل كل النظام العنصرى لا يزال يمارس أشرس معاركه ضد شعب جنوب أفريقيا. لقد جعل شعب جنوب أفريقيا ذكرى مذبحة

شاريفيل التى ذهب ضحيتها عشرات الأفارقة على أيدى البيض عام ١٩٦٠ يوماً وطنياً يحتفلون به حتى اليوم كى لا تنسى الأجيال الجديدة التضحيات الغالية التى قدمها الآباء من أجل القضاء على النظام العنصرى لماذا لا نتقى إحدى المجازر الإسرائيلية ضد الفلسطينيين مثل دير ياسين أو صابرا وشاتيلا ونجعلها حدثاً قومياً نحتفل به سنوياً ونبثه فى كافة وسائل الإعلام المحلية والعالمية ونحاول من خلاله أن نوقظ ضمائر المتواطئين فى الغرب ونؤكد لهم أن حل المشكلة اليهودية لا يمكن أن يتحقق على حساب الشعب الفلسطينى علاوة على تنشيط الذاكرة القومية لدى الأجيال الجديدة فى العالم العربى.. لا شك أن الإعلام هو الضلع الثالث لقضايا التحرر الوطنى العادلة ولا يقل أهمية عن الضلعين الآخرين وأعنى بهما الضلع النضالى المسلح والضلع الدبلوماسى.. هذه هى الخبرة الأساسية التى تعلمناها من الثورات الوطنية فى الجزائر وجنوب أفريقيا وفيتنام.. وهذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجه الإعلام العربى الرسمى والشعبى فهل نعى؟ ومتى نتحرك؟.

صوت الجامعة – ١٧ أكتوبر ٢٠٠١

2 صحيفة المقطم وقناة الجزيرة

فى عام ١٨٨٩ كلف الاحتلال البريطانى فى مصر الثلاثى الصحفى الشامى فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس بإصدار صحيفة المقطم للدفاع عن المصالح البريطانية ولمناوءة الأهرام التى كانت موالية للنفوذ الفرنسى فى مصر آنذاك وقامت المقطم بدورها على أكمل وجه مستفيدة من تراث الدهاء البريطانى فى بث الفرقة وإحداث البلبلة لدى الرأى العام المصرى من خلال فتح صفحاتها للرأى والرأى الآخر.. هذا الشعار الذى أرسته المدرسة البريطانية فى الإعلام الموجه لشعوب المستعمرات مستندة إلى كونه يمثل حجر الزاوية فى حرية التعبير وحرية الصحافة وهذا الشعار صحيح فى جوهره ولكن الأحداث أثبتت أنه سلاح ذو حدين فهو يقوم على فلسفة تنظر للحقيقة على أنها أمر نسبى وليس مطلقاً ذلك أن تعاظم الاهتمام بمفهوم الرأى واعتباره المرجعية الأخيرة للقارئ ينتج عنه بالضرورة اغتيال مفهوم الحقيقة أو التغطية عليه خصوصاً إذا كان الكاتب متمكناً وقادراً على التلاعب بالألفاظ والمعانى وكان القارئ كما هى العادة يفتقر إلى المقدرة العلمية التى تمكنه من تحليل الآراء وتفنيدها وتكون النتيجة هى انحياز القارئ إلى الكاتب الأكثر مهارة فى الاقناع أو على الأقل يخرج القارئ بانطباع أن كلا طرفى النزاع على شيء من الحق وشيء من الباطل وحينئذ يصاب بالبلبة ويفقد الرؤية الصحيحة لحقيقة الصراع بين الشعب المصرى وأهداف الاحتلال البريطانى.

هذا هو ما يحدث الآن بالضبط ولكن باستخدام تكنولوجيا إعلامية جديدة هى

الفضائيات وقد حل الصراع العربى الصهيونى والإرهاب الدولى محل الاحتلال البريطانى وتقوم قناة الجزيرة بدور صحيفة المقطم مستلهمة شعار الرأى والرأى الآخر من المدرسة التى نشأت فى رحابها وهى مدرسة الإذاعة البريطانية والذى يريدون أن يقولوا لنا من خلاله أن وظيفة الفضائيات هى مجرد إتاحة الفرصة لجميع الآراء كى تجد طريقها إلى آذان وعيون المشاهدين.

وهناك مثلان محددان يؤكدان صحة ما أقوله أولهما يتمثل فى تركيز قناة الجزيرة بشكل مبالغ فيه على حصار مقر قيادة السلطة الفلسطينية وتعمقها فى تفاصيله بدرجة مثيرة للتعجب وذلك رغم أن الجميع كان يعلم أن نية المعتدين الصهاينة لم تكن تستهدف تصفية قيادة السلطة الفلسطينية بل كانوا يتعمدون إذلالها وإشغال الرأى العام العالمى بها وبمصيرها عن المجازر وعمليات الإبادة الجماعية المنظمة ضد الشعب الفلسطينى، كذلك يلاحظ تركيز الجزيرة بشكل مبالغ فيه أيضاً على تصوير العدوان وكأنه نتيجة نزاعات شارون الشخصية الدموية الأمر الذى حال بين المشاهد وبين فهم العدوان فى ضوء سياقه التاريخى الصحيح وهو أنه جزء من مخطط ترميم اتفاق أوسلو وفى نفس الوقت جزء من حرب العولمة التى تقودها الولايات المتحدة ضد المقاومة فى جميع أنحاء العالم، كما حال هذا الوضع بين المشاهد وبين فهم موقع هذه المجازر كحلقة فى سلسلة المجازر التى ارتكبتها مختلف القيادات الصيهونية ضد الشعب الفلسطينى قبل وبعد قيام الكيان الصهيونى.

أما المثل الثانى فهو يتمثل فى الدور الذى تقوم به قناة الجزيرة فى خدمة المخطط الأمريكى لإلهاء الرأى العام بشرائط بن لادن الوهمية والمفبركة والذى تطالعنا به هذه القناة بين الحين والآخر لتعزيز الادعاء الأمريكى فى إلصاق تهمة أحداث ١١ سبتمبر بمجموعة بن لادن وأعوانه دون تقديم أدلة حقيقية موثقة فى الوقت الذى

تتأهب فيه الولايات المتحدة الأمريكية لتنفيذ مخططاتها التوسعية بالسيطرة على منابع النفط فى العراق وبحر قزوين وإحكام قبضتها على المواقع الاستراتيجية التى تمكنها من محاصرة الصين وإيران وجنوب روسيا وفرض هيمنتها الكاملة على العالم العربى وتصفية القضية الفلسطينية.

لقد وقعت الجزيرة فى الفخ وأضحت تقوم بنفس الدور الذى كانت تقوم به صحيفة المقطم فى مصر منذ قرن مضى إذ أصبح دورها ليس التغطية الإعلامية ولكن التغطية على حقائق العصر وخدمة السادة الجدد..

صوت الجامعة ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٢

3 شهداء الإعلام في العدوان الأمريكي على العراق

إذا كان ضحايا المعارك العسكرية فى العدوان الأمريكى البريطانى على العراق قد بلغوا الآلاف من الشهداء العراقيين والمئات من القتلى الأمريكيين والبريطانيين فإن الضحايا من الإعلاميين والصحفيين لا يمكن أن يقاس فقط بعدد الأفراد الذين استشهدوا أثناء تأدية واجبهم المهنى فى ساحة القتال «١٣ شهيداً» وأولئك الذين طردوا وحرموا من أداء مهنتهم فضلاً عن الصحفيين الأمريكيين والبريطانيين الذين ألحقوا بالحملة العدوانية «٤٦٢ صحفياً» وزودوا بقائمة من التعليمات المشددة من البنتاجون ويضاف إلى ذلك القصف الأمريكى المتعمد لفندق فلسطين مقر المراسلين الأجانب وقصف مكاتب قناتى الجزيرة وأبو ظبى.. بل امتدت قائمة الضحايا من الصحفيين العرب والأجانب كى تشمل بعض نجوم الإعلام الغربى مثل بيتر أرنيت لذى يملك سجلاً مهنياً مبهراً منذ حرب فيتنام إلى حرب الخليج الثانية. إذ تقرر فصله من شبكة NBC بسبب فشل البنتاجون فى مراقبة الرسائل المتلفزة التى كان يرسلها أرنيت من بغداد ويشاهدها الرأى العام الأمريكى، ولأنه الصحفى الأمريكى الوحيد العامل داخل خط النار كما أن له مصادره الخاصة والقوية المنفصلة عن هيمنة البنتاجون على الصحفيين الأمريكيين العاملين فى بغداد وقد قامت NBC بطرد أرنيت وأصدرت بياناً أكدت فى أن الرجل لم يعد يعمل لحسابها نظراً لقيامه بالإدلاء بحديث للتليفزيون العراقى أعلن فيه أن خطة الحرب الأولى التى وضعها الجنرالات الأمريكيون قد فشلت فشلاً

ذريعاً نظرا للمقاومة العراقية الشديدة التي أساء هؤلاء تقديرها.. وعلى الرغم أن المحطة قد دافعت عن مراسلها المخضرم فى البداية إلا أنها عادت وأصدرت البيان المذكور والذى أخلت فيه سبيل أرنيت إلى الأبد.. ويعكس هذا القرار مدى الضغوط التى مورست على الـ NBC من جانب المتشددين المساهمين فى تمويل مؤسسة ناشيونال جرافيك والمالكة للمحطة بالإضافة إلى الضغوط المهنية التنافسية التى تعرضت لها المحطة من جانب محطات أخرى مثل شبكة فوكس نيوز التى يملكها اليمين الأمريكى المتطرف والمدعومة من صقور الإدارة الأمريكية والتى هاجمت أرنيت بشدة بعد إدلائه بالحديث المذكور إلى التليفزيون العراقى. كما تعرض مراسلو الجزيرة فى بغداد للقصف المكثف من جانب قوى الغزو خصوصاً بعد إذاعتها لصور الأسرى والقتلى الأمريكان. وقد قامت بورصة نيويورك بمنع مراسل الجزيرة عمر السكرى من تقديم فقرته الاقتصادية كما قام الهاكرز الأمريكان بمهاجمة مواقع الجزيرة على الإنترنت حيث فوجئ زوار الموقع بالعلم الأمريكى مرفوعاً على صفحته الأولى. وتعرض مراسل شبكة فوكس نيوز الأمريكية للترحيل فوراً من الساحة التى جاءها على ظهر دبابة أمريكية بحجة عدم التزامه بقائمة التعليمات التى زوده بها البنتاجون عندما طلب من المصور المصاحب له أن يركز عدسته على الأرض كى يرسم بأصبعه خارطة على الرمال توضح سير المعارك. وعلى الجانب الآخر تعرضت قناة العربية لسخط الكوايتة الذين اتهموها بالانحياز ضدهم وطردوا مراسلها من الأراضى الكويتية والأقسى من ذلك سحبت هيئة الاستثمار الكويتية العرض الذى كانت قدمته للإسهام فى تمويل هذه القناة. ولا شك أن الضحية الأولى للحرب ضد الإعلاميين والصحفيين هى الحقيقية التى أرادوا إسكات صوتها الأمر الذى يعد مخالفة فاضحة للمادة ٧٩ من البروتوكول الأول المضاف إلى اتفاقات جنيف والذى يعد تقنيناً لقاعدة قانونية دولية مستقرة

تتضمن توفير مركز دولى محمى حماية دولية خاصة للصحفيين والمراسلين والمصورين ومن يعاونهم فى مناطق النزاعات المسلحة وبالتالى فالاعتداء عليهم يعد جريمة حرب ويقع على عاتق الدول المعتدية مسئولية محاكمة من ارتكب الاعتداء على الصحفيين ويجب عليها تعويض الضحايا والجرحى وأسرهم وتختص المحكمة الجنائية الدولية بالفصل فى قضاياها وتحريك الدعوة من جانب الدول التى يتبعها الضحايا من خلال بلاغ أو شكوى يقدم إلى المدعى العام للمحكمة الجنائية للبدء فى إجراء التحقيق فى الوقائع.. ولا شك أن الفشل الإعلامى لقوات الغزو وضعهم فى مأزق إعلامى فاضح أمام الرأى العام العالمى فى مواجهة الصحفيين الشرفاء الذين حاولوا نشر حقيقة الجرائم التى ارتكبتها قوات الغزو بحق المدنيين العراقيين والتى شملت تدمير البنية الأساسية والمرافق والجسور والكبارى والمستشفيات والجامعات والمتاحف والأحياء السكنية والأسواق الشعبية والمؤسسات الصحفية والإعلامية مما أدى إلى سقوط عدد كبير من الضحايا تحية إكبار وإجلال لهؤلاء الشهداء من الصحفيين والإعلاميين الذين سطروا بدمائهم الذكية الحقيقة التى لن تغيب وهى أن مهنة الصحافة ليست مهنة البحث عن المتاعب ولكنها مهنة البحث عن الحقيقة حيثما وجدت فى ساحات القتال أو فى خفايا الحياة المدنية.

صوت الجامعة ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٣

4 فيروسات الفساد

نحن نعيش فى مجتمع يعانى من عدة أزمات اقتصادية وتشريعية فى ظل التحول إلى اقتصاد السوق منذ أوائل التسعينيات، وتتمثل أبرز هذه الأزمات فى زيادة حجم البطالة وتضخم القطاع الحكومى والتوسع فى تحديث البنية الأساسية على حساب المشروعات الخدمية فى الصحة والتعليم فضلاً عن زيادة الديون بالإضافة إلى الأزمة الدستورية التى تشير إلى ضرورة تعديل دستور ١٩٧١ الذى ينص على أن مصر دولة اشتراكية مما يتناقض مع اقتصاد السوق.

وفى ظل الأوضاع الحالية تحول المواطنون إلى كائنات تلهث وراء لقمة الخبز، إذ لم يعد لديهم الوقت أو الامكانيات المادية للقراءة أو المشاركة فى إدارة شئون المجتمع، لقد أصبح التحدى الذى يواجه المواطنين يتمثل فى مضاعفة قدراتهم المهنية للحصول على عمل إضافى أو الحصول على أجر أعلى وجاء ذلك على حساب الثقافة والتثقيف ومتابعة الموضوعات الجادة.

واستفادت وسائل الإعلام من الأزمة المجتمعية فركزت على ترويج الثقافة الاستهلاكية «الجريمة والرياضة والمنوعات والإعلانات والجنس» من خلال آليات أدت إلى سيادة أخلاقيات السوق على حساب الأخلاقيات المهنية ومنظومة القيم الاجتماعية وفى سياق ذلك تم تحويل جمهور القراء إلى مستهلكين وتحويل الصحيفة إلى سلعة، كما لعبت الشركات المتعددة الجنسية دوراً أساسياً فى نشر هذه الثقافة وتهميش الأدوار الاجتماعية والثقافية للصحافة.

لقد أدى هذا التحول فى وظائف الصحافة إلى هبوط مصداقيتها بعد أن تحولت الصحف إلى أدوات للتسلية والإلهاء وتحول الصحفيون إلى موظفين ومستثمرين من نوع جديد يتاجرون بالقيم المهنية ويتلاعبون بالمعرفة ويسخرونها لخدمة ذوى النفوذ الاقتصادى والسياسى، لقد تدهورت صورة الذات لدى الصحفيين كما تدهورت صورتهم لدى الرأى العام، وأدى تغلغل رجال الأعمال واختراق السلطة التنفيذية للصحافة المصرية إلى اختفاء الوظيفة الأساسية للصحافة وأعنى بها النقد والكشف عن الفساد وسوء الإدارة والظلم الاجتماعى، إذ تحولت المادة الصحفية إلى مادة إعلامية دعائية لمن يدفع وهذه هى فيروسات الفساد التى عصفت بجوهر المهنة. يضاف إلى ذلك اعتماد الصحفيين على المصادر الرسمية وتقارير العلاقات العامة فى تغطية الأنباء المحلية وعلى وكالات الأنباء فى تغطية الشئون الخارجية وقد أدى ذلك إلى اختفاء النقد الاستراتيجى وإن بقى النقد الأمبيريقى المبعثر فى جزيئات تتناول بعض الممارسات التنفيذية ولا تقترب من نقد السياسات العامة للدولة أو القيادات المركزية فى السلطة. ورغم أن الصحف الحزبية قد ساهمت فى خلق رؤية بديلة للقضايا لدى الرأى العام، إلا أن استمرار السلطة التنفيذية فى سياساتها الاقتصادية والثقافية التى أدت إلى المزيد من الإفقار ونشر ثقافة المهرجانات، كل ذلك أصاب الرأى العام بالإحباط بسبب تبنى السلطة لشعار يقول «دعهم يقولون ما يشاءون ونحن نفعل ما نريد»، والواقع أنه ليس مهما أن نستثمر مستحدثات التكنولوجيا فى تطوير أداء الصحافة وتبقى المضامين العامة والمصادر الرسمية والعلاقات المهنية أسيرة للمعلنين وللسلطة التنفيذية وتتحول مهنة الصحافة إلى وظيفة مهمتها التخديم على كل هؤلاء على حساب دورها الأساسى فى توعية الجمهور وتثقيفه والدفاع عن حقوق المستضعفين والهوية الوطنية والأمن القومى المصرى والعربى.

صوت الجامعة – أول مارس ٢٠٠٤

5 الإعلام الأمريكي وقناة الحرة

لقد كان الإعلام وسيظل لسان حال يعبر عن فكر ومصالح مالكيه من الأفراد والجماعات والدول والمؤسسة الأمريكية المالكة للفضائية الجديدة المسماة بالحرة خصصت لها ما بين ٤٥ إلى ٦٢ مليون دولار طبقاً للتقارير الصحفية المنشورة. وتهدف هذه الفضائية إلى تحسين صورة أمريكا عربياً، أى أنها ستعبر عن مصالح الجهة التى تمولها. ولقد كشفت «الحرة» عن توجهها الأمريكى منذ اللحظة الأولى والذى تجسد فى اللقاء الحصرى الذى أجرته مع بوش الذى كرر الخطاب التقليدى عن الديمقراطية ولابد من التعرض لتقييم هذه الفضائية من خلال معيارين أولها الهدف وثانيها: الجمهور المستهدف.

عن هدف الفضائية الحرة يقول العاملون بها: إن هدفها هو تحقيق الديمقراطية والحريات العامة فى العالم العربى، أى حرية الصحافة وحرية الانتخابات وحرية المجتمع ككل وهى ذات العبارات التى يستخدمها بوش فى حواراته المختلفة. ولا شك أن الديمقراطية مسعى لكل إنسان عربياً كان أو غير عربى وهى مبدأ أصيل لا يمكن الاختلاف على أهميته. ولكن هناك اختلافاً حول مضمون الديمقراطية فهو عبارة مطاطة فضفاضة وقد استغلها الكثيرون لتحقيق مصالحهم الشخصية والفئوية والطبقية التى يمثلونها حتى أنها أفرغت من مضمونها الحقيقى وابتذل معناها. واكتفاء الفضائية الحرة والعاملين بها برفع شعار الديمقراطية والحرية فقط يعنى أن تستمتع بها الشرائح الاجتماعية القادرة اقتصادياً وأن يتم استبعاد تلك الشرائح الاجتماعية الفقيرة والمهمشة بحكم عدم قدرتها على المشاركة العامة.

إن الاقتصار على الاستمتاع بالحقوق السياسية وإسقاط وتهميش الحقوق الاجتماعية هو الفارق بين مفهومنا للديموقراطية ومفهوم الفضائية الأمريكية الناطقة بالعربية فارتباط الحقوق السياسية بالحقوق الاجتماعية يعني ارتباط الديمقراطية بالعدل الاجتماعي.

أما المعيار الثاني الخاص بالجمهور المستهدف: فالفضائية «الحرة» تستهدف أساساً العقل الجمعي العربي انطلاقاً من اعتقاد المسئولين عنها أن جمهورهم من المشاهدين العرب يفتقرون إلى الحد الأدنى من الإدراك والوعي والذكاء أسوة بالأمريكيين الذين شهد العالم بفداحة جهلم وانسياقهم خلف قيادتهم السياسية مثل القطعان التائهة والسؤال المطروح هو هل يمكن أن تنجح هذه الفضائية في تجميل وجه السياسة الأمريكية القبيح الذي تؤكده كل يوم ممارسات الهيمنة والغطرسة الأمريكية والكيل بمكيالين؟ وهل يمكن أن تخلق هذه الفضائية مصداقية لدى الرأي العام العربي رغم الممارسات الأمريكية المساندة للجرائم الإسرائيلية في فلسطين علاوة على جرائم أمريكا ذاتها في أفغانستان والعراق؟.

إن هناك خيارات إعلامية كثيرة أمام المشاهدين العرب أكثر توازناً ومصداقية. ولا شك أن متابعة يوم واحد من البث الفضائي لهذه الحرة يؤكد أنها حلقة في سلسلة متكاملة من الآليات الإعلامية الأمريكية.. إذاعة سوا ومجلة هاي تكشفان عما تخطط له أمريكا لإعادة تشكيل الرأي العام العربي واستقطاب العملاء والبلهاء والمخدوعين والمغرضين أما الأسوياء الأذكياء المنتمون لأوطانهم فسوف يقاطعونها أو على أحسن تقدير يتابعون من خلالها الخطط الأمريكية تجاه العالم العربي.

إننا لا نرفض الفضائية الجديدة مع البقاء في مواقعنا الجامدة العاجزة بل لابد من تحديد أجندتنا الوطنية والسعي لتفعيلها سياسياً واجتماعياً لمواجهة الأجندة الأجنبية والأمريكية بالتحديد التي يحاولون فرضها علينا.

صوت الجامعة – ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤

6 لا عزاء للصحفيين

تأملت ما حدث فى المؤتمر الأخير للصحفيين العرب أنماط متنوعة من الصحفيين العرب التقوا على مائدة مؤتمرهم الذى عقد فى القاهرة التى لا تزال تحمل بعض ملامح اللقب القديم «عاصمة العروبة» فالعرب كانوا يأتون إليها منذ زمن بعيد كى ينهلوا من علم وثقافة وفن روادها فى مختلف فروع الحياة وكى يقتبسوا من شيوخها الحكمة ومن نسائها فنون إدارة البيوت وتربية الأبناء ومعاملة الأزواج ومن أثريائها أساليب الاستمتاع الحضارى بأجمل ما أنتجته حضارتهم وحضارات الآخرين ومن فقرائها الصمود فى مواجهة الفناء والاستعاضة بالحب والتضامن عن المظاهر المادية الصاخبة، فقد كانوا يتنظرون فى بلادهم مجيء السفن القادمة من مصر تحمل الصحف المصرية وأخبار الساسة والحكام والعلماء والفنانين وأبطال الرياضة فيتحيزون إلى الوفد فى مواجهة الآخرين الذين يؤيدون الأحرار الدستوريين ويتعصبون لفريق الأهلى لكرة القدم مقابل أنصار الزمالك، ويتابعون معارك العقاد وطه حسين ومساجلات المازنى وسلامة موسى وتوفيق دياب ومحمد مندور ويحفظون عن ظهر قلب نوادر كامل الشناوى وعبد الرحمن الخميسى ويرددون أشعار بيرم التونسى وحافظ وشوقى وصلاح عبد الصبور وعبد المعطى حجازى ويلتفون فى الخميس الأول من كل شهر حول أجهزة الراديو يستمتعون بالطرب الأصيل من سيدة الغناء العربى أم كلثوم، جاءوا الآن يمثلون أجيالاً مختلفة شهد بعضهم جزءاً من الزمن العربى الجميل وتوقف الآخرون عند أسوأ ما

أنتجته فترة الانحسار والتراجع العربى فى ظل الحقبة النفطية: التمزق والتآمر والروح القطرية والانتهازية والتبعية ولكل ما يأتى من الغرب والانتماء للذات الأمارة بالسوء أكثر من الانتماء للأوطان وتراثها المضيء ولقد جاءوا الآن يحملون قيم عصرهم النفعية والأنانية وشراء النفوس الضعيفة وقد تحالف هؤلاء مع أشباههم من الصحفيين المصريين، وتآمر الجميع علىّ بأنانيتهم وضحالتهم وتكالبهم على المناصب الرخيصة والتى تتيح لهم الجلوس طوال العمر تحت أقدام الحكام وسادة السوق. رأيت صغارهم يهرولون من أجل مزيد من الفتات المتساقط من موائد كبار الانتهازيين الذين تربعوا على قمة الاتحاد ما يزيد على ثلاثين عاماً وحجبوا عن الأجيال الجديدة من الصحفيين فرص التقدم والمشاركة فى حمل المسئولية واكتساب الخبرة ممن سبقوهم ومحاولة إصلاح ما أفسده هؤلاء القراصنة.. ولم ينتبهوا إلى الحقيقة المرة العالقة بذاكراتنا جميعاً والتى تشير إلى دورهم البغيض فى إصابة الصحافة العربية بالعقم والخضوع المطلق للحكومات ودوائر السوق والسماسرة من المعلنين وتجار النخاسة، أدهشنى مدى الخواء النفسى والعقلى والوجدانى الذى تنطوى عليه هذه القيادات التى أثرت وتضخمت من المناصب الرئاسية وضجيج الأبهة الزائف والثروات المسروقة من عرق الصحفيين الشبان أدهشنى إصرارهم على اقتناص المواقع القيادية والاحتفاظ بها مدى الحياة وشراستهم فى استبعاد وتشويه العناصر الواعدة من الأجيال الجديدة.

والسؤال هو: هل فشلت المغانم التى اقتنصوها والفرص التى حرموا منها من أحق بها فى تحقيق رضائهم عن أنفسهم؟ وهل لا يزالوا يشعرون بالحرمان الذى صاحبهم منذ بداياتهم المتواضعة مهنياً واجتماعياً؟ وما هى المغانم الجديدة التى يتطلعون إليها؟ مزيد من الثروات، مزيد من السلطة البراقة؟ من المؤكد أنهم لا

يتطلعون إلى تحقيق مزيد من الكرامة للمهنة المستضعفة أو الأمان المادى والأدبى للصحفيين الحيارى التائهين. وإذا كانت الصحافة العربية وحريتها وحقوق أبنائها قد انتهكت على أيدى الحكومات وسماسرة السوق فإن ما حدث من شروخ وانتهاكات للمهنة وأبنائها على أيدى هؤلاء السادة «الذين انتهى عمرهم الافتراضى» يدير الرؤوس ويدمى النفوس ولا عزاء للصحفيين العرب.

العربى الناصرى – ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٤

7 حقوق الصحفيين وحرية التعبير

تواجه حرية التعبير والرأى هجمة شرسة من جانب الحكومات العربية رغم ما تزخر به الدساتير العربية من نصوص تؤكد على حقوق الأفراد والجماعات فى تلقى المعلومات وتداولها ونشرها بجميع الوسائل المتاحة ورغم أننا نعيش مرحلة تاريخية تعرف بالسماوات المفتوحة وحرية الإبحار فى شبكات المعلومات الدولية وأبرزها الإنترنت.

تلقيت دعوة من منظمة العفو الدولية فرع تونس لإلقاء محاضرة عن حرية الصحافة وحقوق الصحفيين والإعلاميين العرب بمناسبة اليوم العالمى لحرية الصحفى وسافرت على الطائرة المصرية يوم ٣ مايو. وفى اليوم التالى قمت بإلقاء المحاضرة فى مقر المنظمة بتونس، حيث احتشد عدد كبير من الصحفيين والإعلاميين والسفراء وأيضاً حقوق الإنسان. وهالنى قلة عدد النساء الحاضرات فلما استفسرت عن ذلك أخبرونى بأن الاتحاد الديمقراطى للمرأة التونسية كان يعقد ندوة عن حقوق المرأة فى نفس الوقت.

تحدثت عن الإطار التاريخى والقانونى لحرية التعبير وأوضحت العلاقة العضوية بين حرية الصحافة والحريات العامة، وأنها ليست امتيازاً للصحفيين فقط، بل ترتبط بصورة جدلية بالواقع المجتمعى الشامل، ثم أشرت بالتفصيل إلى الواقع الراهن للصحافة العربية وسقوطها بين فكى الحكومات العربية من ناحية وسطوة المعلنين وثقافة السوق من ناحية أخرى. وأشرت إلى القيود التشريعية العديدة التى

تكبل مهنة الصحافة وتهدر حقوق الصحفيين فى الوصول إلى مصادر المعلومات وتميل إلى تغليظ العقوبات التى تصل إلى حد الحبس والتشريد والمطاردة. بل والاعتقال والاغتيال. وضربت عشرات الأمثلة الحية التى تمتد على مساحة الوطن العربى من الجزائر إلى تونس والعراق ومصر والسودان وليبيا ولبنان والكويت والسعودية والأردن واليمن وفلسطين. وتعرضت للنضال التاريخى الطويل للصحفيين فى مواجهة الحكومات العربية منذ نشأة الصحافة العربية مصحوبة بصدور أول تشريع قانونى عام ١٨٥٧ فى ظل السلطان العثمانى عبد العزيز، واستمرار هذا النضال طوال فترة السيطرة الأوربية على العالم العربى وصولاً إلى مرحلة الاستقلال الممتدة حتى اليوم، حيث تراكمت القيود التشريعية ولم ينج منها أى تشريع بل تكاثرت وأصبحت غابة شائكة من القوانين والإجراءات غير القانونية التى تحاصر حرية التعبير وتسعى بدأب وخبث من أجل تكميم الأفواه.

وكان لابد أن أختم محاضرتى بالسؤال التقليدى: ما العمل؟ وقد تركت الإجابة للحاضرين واكتفيت بإبراز الأسباب التى تحول دون تطبيق ديمقراطية الاتصال فى الوطن العربى. والتى تتلخص فى الهوة الطبقية والاجتماعية داخل المجتمعات العربية وبينها وبين بعضها وأزمة المثقفين العرب الذين يتأرجحون بين ضغوط السلطة وإغراءاتها علاوة على غياب التراث الديمقراطى فى جميع الأبنية الاجتماعية والسياسية والثقافية بدءاً بالأسرة والقبيلة ومؤسسات التعليم الذى يقوم على التلقين والأحزاب السياسية وتجمعات المثقفين، فلماذا يشذ المجال الإعلامى والصحافة العربية عن هذا المناخ العام الذى ترسخ عبر السنين محكوماً بسلطة الموروثات الثقافية والاجتماعية من ناحية ومدعوماً بممارسات السلطة بجميع أشكالها من ناحية أخرى.

وبدأ النقاش وانهالت الاستفسارات والتعليقات والمداخلات واستمر ما يقرب من الثلاث ساعات ارتفعت خلالها نبرة الاحتجاج على الظلم الواقع على حرية التعبير سواء للصحفيين أو لغيرهم.

أدهشنى وأثار إعجابى تلك الرغبة الصادقة التى تموج بها الصدور.. الرغبة فى المشاركة الحقيقية فى إدارة شئون الأوطان وحدودها الدنيا حرية التعبير إيماناً منهم بأن عصر السلاطين والملوك قد ولى، وأن النفوذ الأجنبى قد انحسر على الأقل من الناحية الشكلية.

التف حولى مجموعة من الشباب يريدون مواصلة الحوار وامتدت أياديهم تزودنى بلفائف من الأوراق كان أبرزها تقرير لجنة الحريات الذى أصدرته جمعية الصحفيين التونسيين بمناسبة عيد حرية الصحفى فى ٣ مايو حول واقع الحريات الصحفية فى تونس وقد شارك فى إعداده فريق من شباب الإعلاميين والصحفيين التونسيين، وقد أشار بالتفصيل وبصورة متوازنة وموضوعية إلى الإنجازات التى تحققت وإلى القيود الكثيرة التى لا تزال تحاصر حرية الإعلام فى تونس. وقد لفت انتباهى أن هذا التقرير لم يقتصر على تناول أوضاع الصحافة والصحفيين بل شمل جميع وسائل الإعلام، وركز على احتكار الدولة التام للإعلام المرئى والمسموع، وأشار إلى المحاولات العديدة التى قام بها بعض المواطنين التوانسة لإنشاء إذاعات حرة غير أنها رفضت جميعها رغم لجوء أصحابها إلى القضاء الذى رفض دعاويهم من ناحية الشكل.

وتحدث زياد الهانى الشاب التونسى أبرز نشطاء حقوق الإنسان وقد تلقى تعليمه فى بغداد فى الكيمياء النووية، ولكنه تفرغ حالياً لرفع الدعاوى أمام القضاء احتجاجاً على التغطية المختصرة والمحدودة لجنازة الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة

مؤسس تونس الحديثة، واحتجاجاً على حرمانه من حقه فى إنشاء إذاعات حرة بقرطاج هدفها نشر ثقافة وقيم التسامح والسلام وحقوق الإنسان وترسيخ الهوية الوطنية، وقد وصل به الأمر إلى مخاطبة رئيس الجمهورية إعمالاً لحقه كمواطن فى الاحتجاج على رفض دعاويه أمام القضاء مستنداً إلى القانون رقم ٤٩ الصادر عام ١٩٩٠ الذى يلغى احتكار الدولة الكامل للإعلام المرئى والمسموع والذى يستند إلى الأمر الصادر فى إبريل عام ١٩٩٧ والمطالبة بمساواته بالترخيص الممنوح لشركة سيدات ببث القناة التليفزيونية الخاصة (فتاة أفق) والصادر فى ٤/ ٩/ ١٩٩١.

هذا الزخم والإصرار الذى شهدته من جانب الشباب التونسى ذكرنى بثورة الغضب التى عكستها مظاهرات الشباب المصرى والمغربى و لأردنى والجزائرى واليمنى والليبى والسعودى احتجاجاً على حرب الإبادة الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى واحتجاجاً على عجز وتقاعس الحكومات العربية، ذلك الغضب النبيل الذى يتحسس طريقه نحو منهج عمل سوف يحمل التغيير القادم لا محالة.

ودروس التاريخ القريب والبعيد تؤكد لنا ذلك كل لحظة. ولكن للحكومات منطقها، ويبقى للشعوب مواصلة النضال حتى تشرق شمس الحرية التى طال انتظارهم لها. ولعل الحكم الصادر بحبس المناضلة البرلمانية الأردنية توجان الفيصل لأنها مارست حقها الشرعى فى حرية التعبير لن يكون آخر الصفحات فى ملحمة النضال العربى من أجل حق المواطن العربى فى ممارسة التعبير والمشاركة.

جريدة الأهالى – ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٢

8 متى تصبح الصحافة صوتاً للفقراء ؟

هناك مقولة مغلوطة تشير إلى أن الكمبيوتر قد أدى إلى ظهور عصر المعلومات، والواقع أن الصحافة المطبوعة هى التى بدأت هذا العصر، ولكن عصر المعلومات بكل المستحدثات التكنولوجية من كمبيوتر وأقمار صناعية (شبكات معلومات وفضائيات) أصبح مسخراً لخدمة السوق العولمية والمتحكمين فى حركة رؤوس الأموال والسلع والأفكار والمعلومات وصارت المجتمعات الغربية تعتمد على نموذج التركيز على المعلومات الذى يقوم على تقديم كم كبير من المعلومات، وعبر وسائل الاتصال، وساهمت الإنترنت فى زيادة المعلومات، ولكن هل هذه المعلومات تشكل معرفة؟ إن نوع المعلومات التى تحملها الإنترنت لا تؤدى إلى خلق معرفة شاملة، بل هى تقتصر على المعلومات الخاصة بزيادة المهارات المهنية أو البحث عن وظيفة أو الحصول على مزيد من الأرباح أو تمضية الوقت فى المتع الرخيصة أو كم كبير من المعلومات المبعثرة عن موضوعات معينة فاقدة للترابط والاتساق. كما أن الدراسات تشير إلى أن الإسراف فى استخدام الإنترنت، قد أدى إلى انكماش الفرد داخل اختصاصه واحتياجاته الشخصية وزيادة فرديته وغياب إحساسه بالمجتمع وتضاؤل إدراكه ووعيه بالقضايا العامة. والسؤال الذى طرحته وقائع المؤتمر الرابع للصحفيين المصريين ما الذى جعل الصحافة المصرية فى عصر المعلومات أقل تأثيراً فى مجريات الأحداث فى المجتمع، خلافاً لما يؤكده تاريخها وأدوارها التنويرية والوطنية فى المراحل السابقة رغم ما نحظى به الآن من امتلاك

للمستحدثات التكنولوجية والتأهيل الأكاديمى والمهنى للصحفيين واتساع مساحة نشاطهم ووجود نقابة للصحفيين تدافع عن حقوقهم المهنية والاجتماعية .

والإجابة هى أن عصر المعلومات ومستحدثاته التكنولوجية فى المعلومات والاتصال لا توفر إطاراً حقيقاً للمعرفة ولا تحمل إجابات على أسئلتنا. إنهم يقولون إننا سنجعل التعليم أفضل باستخدام الكمبيوتر وسنجعل ممارسة الدين أفضل وسنجعل عقولنا تفكر بشكل أعمق ولكن ثبت أن كل ذلك غير صحيح، لأن الكمبيوتر أداة لتصنيع المعلومات والتلاعب بها وقد تم توظيفه لخدمة المتحكمين فى السوق وله أجندة ورسالة تتناقض تماماً مع أجندة وهموم وحقوق الغالبية العظمى من أهالينا فى مصر المحروسة خصوصاً الكادحين والبسطاء والفقراء. فمستحدثات الثورة الاتصالية والمعلوماتية لا تزال وستظل من نصيب الفئات والنخب المتعلمة والقادرة اقتصادياً والمرتبطة مصالحها بالسوق وفى ضوء ذلك ستظل الصحافة هى وسيلة اتصال الفقراء من المتعلمين الساعين للحصول على المعرفة الحقيقية التى تقوم على التغطية الشاملة للأحداث وتكشف عن مكامن الفساد والظلم الاجتماعى وسوء الإدارة ؛ هذا هو جوهر مهنة الصحافة التى يرتبط مستقبلها بمدى قدرتها على توعية الجمهور بحقوقه ومسئولياته واحترام احتياجاته ومخاطبته كجمهور من المواطنين وليس من المستهلكين. لقد أدى طغيان الاعتبارات التسويقية على الصحافة المصرية خلال العقدين الأخيرين إلى توارى القيم المهنية والرسالة المجتمعية للصحافة، الأمر الذى أدى إلى الأزمة الراهنة التى يعانى منها الصحفيون ومهنتهم. ولكى تزدهر الصحافة المصرية لابد أن تضع وظائفها المجتمعية فى صدر اهتماماتها وأن يدرك القائمون عليها أنها ليست مشروعاً تجارياً هدفه الربح عن طريقه زيادة التوزيع والإعلانات. ولا شك أن الالتزام بالدور

المجتمعى للصحافة سوف يسهم فى حل العديد من المشكلات المهنية مثل عدم رضا الصحفيين عن مهنتهم واستعادة الصحافة لمصداقيتها لدى الجمهور. ولكى تعود الصحافة المصرية إلى جمهورها لابد من نموذج جديد للمعرفة يركز على المعلومات الشاملة المستمدة من المصادر المتنوعة الرسمية والأهلية والخبراء والمتخصصين كما يحتاج هذا النموذج إلى صحفيين ينتمون إلى المهنة وقضاياها ويستوعبون تاريخها ويلتزمون بأخلاقياتها ويسعون بجرأة وشجاعة للكشف عن مكان القصور والفساد فى المجتمع المصرى ويواصلون أداء رسالتهم النبيلة بقدر كبير من الوعى والجسارة والالتزام دفاعاً عن سيادة الوطن وحقوق الفقراء والمستضعفين.

صوت الجامعة ٨ مارس ٢٠٠٤



الفصل الرابع

المسكوت عنه في الجامعات المصرية



1 انتهى كلام الباحث

جاءنى أحد المعيدين الذين يعملون بإحدى الجامعات الإقليمية وقد اكتسى وجهه بموجة عارمة من الغضب والحيرة والممزوجة بالأسى. ولما حاولت أن أهدئ من روعته وحيرته صاح محتجاً: أرجوك أن تسمعينى يا دكتورة أولا ثم تقولين ما تشائين من كلمات المجاملة والتهدئة، أنا قررت أن أترك البحث العلمى رغم أننى أوشكت على الانتهاء من رسالة الماجستير وقد أتيت إليك توا من مناقشة إحدى رسائل الماجستير بكليتى وقد منحت اللجنة لصاحبها الدرجة العلمية بتقدير ممتاز بعد أن أكد عضو اليمين أن جزءاً كبيراً من الرسالة منقول، ولم يشر الباحث إلى المراجع مما يعد سرقة علمية، كما أن الباحث غير مؤهل أصلا لمعالجة هذا الموضوع. وأن منطلقاته خطأ مما جعل نتائجه غير علمية، وأكد عضو اليسار صحة ما قاله عضو اليمين. وأضاف إليه تصحيحاً لما ذكره الباحث عن الفلسطينيين من أنهم إرهابيون كما أوضح بالتفصيل الأخطاء الفاضحة فى إسناد المراجع الأجنبية وكانت المفاجأة بعد كل هذا هو منح الطالب ممتاز. هل تطلبين منى بعد ذلك أن أثق فى هؤلاء الأساتذة، وقد سبق أن كتبت فى الصحف وأبلغنا المسئولين فى الجامعة ولم يستجب لنا أحد؟ كيف يستعيد الأساتذة مصداقيتهم وكيف نواصل نحن صغار الباحثين حياتنا العلمية، وقد اهتزت كل النماذج الأكاديمية واكتسحت المجاملات والشللية فى طريقها جميع القيم الجامعية وأخلاقيات البحث العلمى. (انتهى كلام الباحث).

ورغم علمي بأن هذا يحدث يومياً فى كثير من الجامعات الإقليمية وغير الإقليمية غير أننى أصبت بشيء يشبه الدوار ولم أستطع أن أرد على الباحث البائس وسرعان ما أفقت إلى نفسى وقررت أن أشرك كل المهتمين بالتعليم الجامعى وأصحاب الضمائر.

هؤلاء الذين يؤلمهم كثيراً ما آلت إليه الأحوال داخل جامعاتنا صرخة أرجو أن تجد من يحولها إلى فعل جرىء لتغيير الأحوال والله من وراء القصد.

جريدة الأهرام - ٢/ ١١/ ١٩٩٧

2 تساؤلات حائرة

بعد أن أصبحت الجامعات الخاصة أمراً واقعاً علينا أن نتأمل ممارساتها التعليمية والبحثية والاجتماعية بروح النقد الهادف إلى إبراز إيجابياتها ونقد سلبياتها سعيا لتصحيح مساراتها وتفعيل دورها العلمي والمجتمعي.

وفي هذا الإطار نطرح التساؤلات التالية:

- هل الجامعات الخاصة مؤسسات ربحية أم خدمية؟ بمعنى هل تستهدف تحقيق أرباح تضاف إلى الأرصدة الشخصية لأصحابها أم أنها تنفق هذه الأرباح على تطوير العملية التعليمية والبحثية مثل التوسع في المعامل والمكتبات وإيفاد أعضاء هيئة التدريس للخارج والتبرع للمشروعات القومية والتقليل من الإنفاق على الإعلانات والدعاية.

- هل تقدم هذه الجامعات نظما دراسية ومجالات بحثية جديدة لا تتوافر في الجامعات الحكومية، أم أنها تكرر بالضبط المقررات التي تنص عليها اللوائح الدراسية في الجامعات الحكومية؟

- هل يجري متابعة الأوضاع المالية لهذه الجامعات وهل تخضع فعلاً للجهاز المركزي للمحاسبات وللضرائب أم أن أصحابها يجيدون فنون التهرب الضريبي والالتفاف حول المساءلة المحاسبية؟

- هل الجامعات الخاصة خيار قابل للاستمرار والنمو والتطور في ظل أوضاعها

الراهنة مثل اعتمادها الكامل على الكوادر العلمية الذين أعدتهم الجامعات الحكومية وتحتاج إلى عطائهم، وهل الأفضل دعم الجامعات الحكومية القائمة والتى تواصل دورها فى ظل ضآلة الإمكانات وكثافة الأعداد الطلابية وهروب القوى الفاعلة من أعضاء هيئة التدريس لتحسين أوضاعهم الحياتية أم أن الأفضل فتح جامعات جديدة، خاصة أن متابعة أنشطة الجامعات الخاصة التعليمية والبحثية والمالية أمر يستلزم الاهتمام الجدى من جانب أجهزة الدولة المعنية، خصوصا أن التجربة لا تزال وليدة ولا يملك المجتمع المصرى رفاهة أن تتعرض للفشل أو التعثر.

بريد الأهرام ١٩/ ٣/ ٢٠٠١

3 الجامعة بين الماضي والحاضر

عند بداية كل عام جامعي يمر أمام عينى شريط طويل من الذكريات يحمل القليل من الأحداث المفرحة والكثير من الشجون والأحلام المؤجلة تتعلق بهذا الصرح الشامخ تاريخه المضيء ومسيرته الشاقة ومستقبله الغامض أين جامعة اليوم من جامعة الأمس لقد كانت البداية أقوى من سطوة المحتل البريطانى، ومؤامرات القصر لأنها خرجت من صفوف الشعب المصرى الذى سارع بجميع فئاته من الوجهاء والبسطاء ومن النساء والرجال أقول سارع للتبرع بكل نفيس وغال من أجل إنشاء أول جامعة أهلية مصرية فى العالم العربى وأفريقيا أضاءت ربوع الوادى فى أوائل القرن العشرين وجسدت بقيامها جماع الروح الوطنية ومدى أصالة وعمق الرغبة فى التعلم وتقديس العلم كقيمة عليا لدى الشعب المصرى.

ولقد ظلت الجامعة تقوم بدورها فى تخريج الأجيال وإنتاج المعرفة العلمية وتكريس السيادة الوطنية وغرس روح الانتماء والولاء لهذا الوطن العظيم قرابة ما يزيد على مائة عاماً، وكان طلابها يتصدرون صفوف الحركة الوطنية كما كان أساتذتها يمنحون بسخاء جل عطاؤهم لكل باحث جاد يطرق أبواب المعرفة والبحث العلمى، ولكن تعرضت الجامعة فى السنوات الأخيرة لرياح عاتية أفقدتها استقلالها وكيانها المتميز وجعلتها رهينة لتقلبات وأهواء السلطة السياسية وكان لابد أن يتم ذلك على حساب منظومة القيم والتقاليد التى سعى الرواد الأوائل إلى غرسها وتثبيتها ثم جاءت رياح السوق والخصخصة كى تكتسح ما تبقى من هذه

القيم والأصوليات وأصبح تجار التعليم الجامعى ينافسون تجار اللحوم والفاكهة، وكان لابد أن يتوارى البحث العلمى وتصبح الشهادة الجامعية سلعة تشترى بالدروس الخصوصية أو من خلال الجامعات الخاصة.

وعلى سبيل المقارنة بينما كانت عليه الجامعة وما آلت إليه الآن انتقيت من تاريخ الجامعة وثيقة مهمة كتبها طه حسين فى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين خلال عمادته لكلية الآداب والرسالة مؤرخة «أول ديسمبر ١٩٢٦» وجه طه حسين رسالته إلى مدير الجامعة يضع فيها استقالته من وظيفته المرموقة كعميد بكلية الآداب فى كفة ويضع فى الكفة المقابلة تصحيح أوضاع وتوفير الميزانية اللازمة بكلية الآداب لإنشاء كراسى جديدة والمعروف أن إنشاء الكراسى فى الجامعة يعد من أعمال التأسيس التى ارتبط بها اسم طه حسين فى تاريخنا الحديث. ولنتأمل ما جاء فى الرسالة : «حضرة صاحب المعالى مدير الجامعة المصرية أتشرف بأن أرفع إلى معاليكم استقالتى من منصب العميد لكلية الآداب راجياً أن تتفضلوا فتأمروا برفعها إلى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف، الذى يحملنى على هذا التصرف حرمان كلية الآداب من الاعتماد الإضافى الذى منح للجامعة ٥ آلاف جنيها وهو على كل حال لن يكون أقل من المبلغ اللازم لإنشاء الكراسى الثلاثة التى صدرت المراسيم بإنشائها ولما عدت من أوروبا وجدت أن هذه الكراسى لم تنشأ لها الدرجات الملائمة فى الميزانية وقد فهمت أن هذا جاء من عمل وزارة المالية فلم أنكر على الجامعة شيئاً وإنما سعيت فى إصلاح الأمر عند وزارة المالية نفسها وقد عرضت وجهة نظرى على وزير المالية أمس فتفضل بقبولها ووعدنى بإنشاء الكراسى دون مساس بالميزانية فلما طلبت هذا صباح اليوم إلى حضرة صاحب العزة السكرتير العام تبينت منه أن ليس إلى ذلك سبيل لأن الجامعة وزعت الاعتماد

ولم تعط منه كلية الآداب إلا مقداراً ضئيلاً لا يكاد يتجاوز ألف جنيه، ولما كان هذا التصرف مخالفا لما اتفقت عليه مع معاليكم من جهة ومضيعاً لمصالح الكلية والتعليم فيها من جهة أخرى وسادا للطريق فى وجه جماعة من رجال التعليم لا ينبغى أن تسد أمامهم الطريق فإنى آسف أشد الأسف لأنى لا أستطيع أن أحتمل تبعته ولا تبعة المنصب مادام هذا التصرف قائماً. وأرجو أن تقبلوا تحيتى الخالصة وإجلالى العظيم».

انتهت رسالة طه حسين التى تشف عن عزة نفس وتمسك بالحق مما أصبح نادر الوجود فى جامعاتنا اليوم أين العميد أو الأستاذ الجامعى الذى يقدم استقالته احتجاجاً على عشرات الانتهاكات التى ترتكب ضد الجامعة وتقاليدها العلمية وقيمها الأخلاقية، والتى تتمثل فى إلغاء انتخابات العمداء وخفض نفقات البحث العلمى إلى أقصى حد وغياب المعايير فى اختيار وتعيين القيادات الجامعية وإلغاء اللائحة الطلابية ووضع الحركة الطلابية تحت وصاية الأساتذة الموظفين واستشراء الدروس الخصوصية فى كليات الطب وغيرها .. إن جامعاتنا المصرية فى حاجة ملحة إلى ثورة من الداخل لتصحيح مساراتها.

صوت الجامعة ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٢

4 هل البحث العلمي في خطر؟!

ما الخطر الحقيقى الذى يهدد الحياة الأكاديمية اليوم؟

سؤال مطروح على جميع المشتغلين بالبحث العلمى، سواء فى الجامعات أو مراكز البحوث، قد يجمع هؤلاء وأولئك على أن ضعف الميزانيات المخصصة للبحوث والتى لا تزيد على ٣ فى الألف هى الخطر الأكبر، وإجاباتهم لا تخلو من الصحة ولكن هذا لا يمثل وحدة الخطر الحقيقى إذ أن التهديد الأعظم يكمن فى هذا الكم الهائل من البحوث العلمية التى لا تزيد على كونها صياغات معادة وركيكة لموضوعات تقليدية أو اقتباسات غامضة مترجمة من بحوث أجنبية.

فالأمر الشائع الآن بالنسبة للعلوم الاجتماعية والإنسانية على وجه الخصوص تلك القوائم الطويلة من البحوث والدراسات التى تقدم من أجل الحصول على درجات علمية أو للترقية فى السلم الوظيفى الجامعى، والتى تصدرها مجلات صادرة عن بعض الجامعات الإقليمية، ويشرف عليها مجموعة من أشباه المتخصصين الذين يدعمون بعضهم بعضاً ويقومون بتحكيمها بصورة شكلية ويوصون بنشرها، وهى فى الواقع لا تؤصل ما هو معلوم من المعرفة العلمية ولا تضيف فكراً جديداً فى مجالات العلم الاجتماعى والإنسانى، بل تدعم الأسوار العالية للجهل المتبادل من خلال تفتيت المعرفة العلمية إلى مناطق نفوذ أضيق وحصرها فى دوائر محدودة ضيقة لا تساعد على الشمول المعرفى.

ومما زاد الأمر تفاقماً ذلك الانبهار الطاغى بالثورة الإلكترونية التى يعتقد معظم

الباحثين أنها سوف تحل جميع المشكلات وتزيل جميع العقبات وتخلع على المتعاملين معها أوسمة البهاء والتفرد العلمى متجاهلين الحقيقة البسيطة التى تشير إلى أن هذا الفيض الهائل من المعلومات لا يصنع معرفة حقيقية، بل قد يؤدى إلى مزيد من الارتباك والتشوش خصوصاً فى ظل غياب الرؤى الاستراتيجية التى تحدد أولويات القضايا والمجالات البحثية الأولى بالرعاية والاهتمام، والمداخل النظرية والمناهج الملائمة التى تتحقق من خلالها وحدة المعرفة، ولا شك أن هناك بعض الدراسات الجادة والتى تحوى بعض سمات الألمعية والنبوغ ولكنها قد تضيع وتتوه فى لجة هذا الفيضان من الأعمال الضحلة.

وقد لا أكون مبالغة حين أقول: إن هذا الفيضان المعلوماتى قد التهم الحياة الفكرية الأكاديمية التى لا تتجدد إلا بخلق دوائر ومنتديات للتفاعل العلمى الحقيقى، تكرس نفسها لمناقشة وتقييم البحوث والأعمال العلمية المنشورة وتسعى بجدية من أجل تحويل بؤرة التركيز لدى الباحثين من الكم إلى الكيف، وتعمل على تشجيعهم على اقتحام مجالات غير تقليدية وأن يبذلوا جهوداً جادة فى تأصيل بحوثهم.

ولكن كى يتحقق ذلك لابد أن نوفر لهم مناخاً أفضل يتنفسون فى ظلاله روح البحث والرغبة فى الإجادة، والسعى إلى التأصيل والاقتناع الداخلى العميق بأن المعرفة العلمية والسعى لامتلاكها والتزود بها هى أرقى أشكال التحقق الإنسانى، بل هى الثروة الحقيقية الأبقى والأجدر بالاهتمام من شتى أنواع البريق الزائف الذى تمنحه المناصب التى يلهث خلفها الكثيرون.

صوت الجامعة ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٢

5 الباحث ليس نبيًا

لا شك أن العولمة بسياساتها وآلياتها وتجلياتها والتى تأخذ منحنى سرى فى إنتاجها وترويجها تتطلب جهداً متواصلاً من أجل رصدها من خلال البحث العلمى للكشف عن آثارها غير المرئية بالنسبة لغالبية الناس خصوصاً أنها تمنح كل المغانم للمتحكمين فى السوق العالمية وتلقى بكل المغارم على عاتق الكادحين والشرفاء فى جميع الطبقات كما تحرم جميع البسطاء والمستضعفين من أبسط حقوقهم الإنسانية وهنا يبرز دور الباحثين والعلماء فى ضرورة تنبيه الناس إلى مخاطر السياسات الراهنة التى تتحكم فى مسار العولمة فهناك التزام اجتماعى وأخلاقى يفرض على هؤلاء الباحثين ضرورة تجاوز الأسوار الجامعية والقيود الأكاديمية وأن يحملوا معرفتهم إلى خارج دور العلم إذا لا يقتصر دور هؤلاء الباحثين على البحث داخل الأبراج العلمية فى الجامعات ومراكز البحوث والاكتفاء بالحصول على تقدير واهتمام الباحثين الآخرين الأمر الذى يشكل إحدى صور التحفظ والهروب من مواجهة الواقع والاشتباك مع مشاكله وقضاياه وتحدياته ويفرز تداعيات وآثار اجتماعية وثقافية وخيمة.

وهنا نطرح قضية الدور الاجتماعى للباحثين فالباحث العلمى ليس نبياً ولا مفكراً معزولاً عن واقع مجتمعه بل تقع على عاتقه مسئولية مزدوجة يتمثل بعدها الأول فى دوره الأكاديمى فى قاعات التدريس والبحث فيما يتمثل بعدها الثانى فى دوره الآخر المكمل للدور الأول وأعنى به ضرورة التصدى للمشكلات التى

يواجهها مجتمعه فى مجالات التعليم والثقافة والصحة والاقتصاد والسياسة وعلى الباحثين الذين ينتمون للعلوم الاجتماعية أن يدركوا أن جهودهم الفردية ستكون محدودة الأثر بينما لو نظموا أنفسهم وحرصوا على القيام بجهد جماعى فسوف يؤثرون بصورة أكثر فاعلية فى تنبيه الناس وفك الالتباس وتوصيل الوعى الصحيح وكشف الآليات الشائعة لتزييف الوعى وخلق الشروط الملائمة للإبداع الجماعى وهذه هى الخطوة الأولى فى رحلة التغيير الحقيقى للواقع الذى يبدأ بالوعى الجماعى فالوعى الفردى ليس وحده بقادر على إحداث التغيير ولا شك أن خلق حركة اجتماعية واعية نشطة مرهونة بدور الطلائع من الباحثين الجادين فى مواجهة قوى التسلط والفساد والتى تستمد سطوتها واستمراريتها من ضعف وتشرذم القوى الواعية فى المجتمع وأعنى بها العلماء والمثقفين والنشطاء فى العمل الاجتماعى والأهلى.

وإدراك هذه الحقيقة الجوهرية يفرض علينا ضرورة السعى لخلق آليات للتواصل والتعاون بين جماعات العلماء والمثقفين كى نمهد الطريق لإمكانية ولادة حركة اجتماعية ناهضة وقادرة على خلق ظروف التغيير الحقيقى الذى يستهدف رد الاعتبار لإنسانية الكادحين والمهمشين والبسطاء.

صوت الجامعة ١٩/ ٣/ ٢٠٠٣

6 فيروس المناصب

من الظواهر التى شاعت أخيرا فى الأوساط الجامعية والعلمية استشراء أنواع قديمة متجددة من الفيروسات أبرزها فيروس المناصب واعتقاد الكثير من الأساتذة الجامعيين أن المنصب أهم من الإنجازات العلمية وتربية الكوادر رغم أنه من المتوقع أن تكون هذه الإنجازات هى الطريق والوسيلة الأساسية للصعود الوظيفى فى السلك الجامعى.

وهذا الفيروس اللعين عندما يتمكن من شخص يمتص جميع خلاياه الحية التى تمنح الشخص القدرة على العطاء العلمى والتفاعل الإنسانى مع الآخرين، إذ سرعان ما تفسد هذه الخلايا تدريجيا بمجرد جلوس الشخص على كرسى السلطة وتتحول الدوافع الخيرة النبيلة إلى أنانية وتمركز حول المصلحة الشخصية فلا يطيق صاحب المنصب النقد أو صدق القول بل يطرب للثناء وهناك شلل النفاق الموجودة فى كل عصر وأوان جاهزة ومستعدة لتقديم خدماتها وتبدأ أسطوانات الثناء المزيف والتبجيل الأجوف ويحصدون مقابل ذلك بعض فتات الموائد الذي يتمثل في مناصب تنفيذية وبعض الامتيازات المادية مقابل التخديم على صاحب السلطة وتجميل وجهه وتبرير أفعاله التي تتناقض مع المصلحة العامة ولا بأس من الهجوم عليه سرا لمجاراة المعارضين، أما الفيروس الثاني الذي أصاب الأوساط الجامعية فهو يتمثل في النهم الذي يصل إلى حد السعار والذي أصاب العديد من الأساتذة خصوصاً هؤلاء الذين ينتمون إلى فئة الشباب ومتوسطي الأعمار ليس فى

مجال الإنتاج العلمي من خلال تقديم إضافات جديدة فى مجال البحوث أو ابتكار أساليب تعليمية جديدة لإنقاذ الأجيال الجديدة من آفة التلقين والمذكرات المشبوهة ولكنه النهم من أجل اقتناص أى فرصة للكسب المادى من خلال الانتدابات للجامعات الخاصة والإقليمية والتعليم المفتوح بحيث يصبح من المستحيل أن يتوافر لهؤلاء الأساتذة الوقت أو الجهد للقراءة ومتابعة التطورات التى تطرأ فى مجالات المعرفة العلمية. ولذلك أهيب بجميع المسئولين عن مستقبل التعليم الجامعى الإسراع بالتدخل لإنقاذ العقل الجمعى بالجامعات المصرية والسعى بإخلاص من أجل تغيير أجندة الأولويات الجامعية ووضع معايير موضوعية لاختيار القيادات الجامعية وضوابط لتقييم أدائهم وتطويره وتشجيع المؤتمرات العلمية الجادة والتقليل من المهرجانات الاحتفالية الدعائية وإعلاء قيمة البحوث الجامعية والاهتمام بإعداد الكوادر الجامعية الشابة وتطوير المكتبات الجامعية ولن يتحقق ذلك كله أو بعضه إلا باعتماد الميزانيات اللائقة ورعاية الكرامة الاقتصادية لأساتذة الجامعات لأنهم العمد الحقيقية لاستعادة الوجه المضيء للجامعات.

صوت الجامعة ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٣

7 لطفي السيد واستقلال الجامعة

استقال لطفى السيد من رئاسة الجامعة المصرية فى ٩مارس ١٩٣٢، احتجاجا على إبعاد طه حسين من عمادة كلية الآداب . ورغم أن هذه الاستقالة قد حدثت فى سياق ظروف سياسية واجتماعية غير مواتية إذ كان يحكم مصر فى ذلك الوقت ثالوث بغيض مكون من الاحتلال البريطانى الذى كان يمثل السلطة الفعلية والملك فؤاد الذى كان يمثل السلطة الاسمية وإسماعيل صدقى - صاحب القبضة الحديدية ورئيس حزب الشعب صنيعة الملك والإنجليز- كان يشغل منصب رئيس الوزراء إلا أن الجامعة كانت لا تزال تزخر بنخبة متميزة من العلماء الأجلاء المؤمنين برسالة الجامعة وضرورة استقلالها عن السلطة التنفيذية. وعندما نستعيد شريط الأحداث فى الفترات التالية على هذا الحدث، نجد أن اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت انتفاضة ١٩٤٦ قد خرجت من قلب الحركة الطلابية بالجامعة المصرية وكان ذلك خلال فترة حكم إسماعيل صدقى واستمرار الثالوث البغيض فى إحكام هيمنته على مقدرات الوطن وشئونه الداخلية والخارجية ومع ذلك لم تحل هذه الظروف دون صمود الجامعة كقلعة علمية وحصن للدفاع عن سيادة الوطن وتحرره، وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وبالتحديد بعد أزمة مارس ١٩٥٤ التى انتهت بسيادة المؤسسة العسكرية وهيمنتها على مقدرات الوطن كانت الجامعة هى أول المواقع الذى دفع ثمنا فادحا للحكم العسكرى ثم تلتها بعد عدة سنوات الصحافة، فإذا كانت الصحافة لا يمكن أن تزدهر إلا فى مناخ ديمقراطى حقيقى

يؤمن بالتعددية الفكرية والسياسية فإن الحريات الأكاديمية لا تزدهر أيضا إلا فى محيط اجتماعى وسياسى يؤمن بحرية البحث العلمى واستقلال الجامعة عن السلطة التنفيذية.

وقد أدى التناقض الصارخ بين القيادة الحاكمة ذات التكوين العسكرى الذى يعتمد على إطاعة الأوامر والتعليمات ثم التظلم فيما بعد وبين الجامعة والصحافة أدى هذا الاختلاف الجذرى فى الرؤية والممارسة إلى تدجين هاتين المؤسستين الحيويتين وأعنى بهما الصحافة والجامعة لصالح المؤسسة العسكرية وأيديولوجيتها الأحادية الصارمة والتى فرضت هيمنتها الكاملة ومعاييرها وشروطها على كافة أنشطة المجتمع الرسمية والشعبية، وكان لابد أن يؤدى هذا النهج إلى نشوء مناخ غير سوى حول معظم الصحفيين «خصوصا فى الصحف القومية» إلى موظفين، كما ساعد على انتشار الجبن والخوف أو الانتهازية بين معظم أساتذة الجامعات وتوارت منظومة القيم الإيجابية التى شجعت العقل المصرى على الإبداع فى العلم وفى العمل الوطنى، ورغم الإنجازات العديدة التى حققها الحكم الوطنى لثورة يوليو والتى تمثلت فى بناء السد العالى ومجانية التعليم والإصلاح الزراعى وتأميم القناة ومساندة الشعب الفلسطينى فى مواجهة الاغتصاب الصهيونى للوطن الفلسطينى إلا أن كل هذه الإنجازات المشرقة التى أضاءت وجه الوطن فى فترة هامة من تاريخه لم تستطع أن تخفى مساحات الغمة التى خيمت على المؤسسة الجامعية ومؤسسة الصحافة والإعلام فى ظل القيود التشريعية والضوابط الإدارية الصارمة وتقارير الأمن والاستخبارات الظالمة، أين نحن الآن من موقف لطفى السيد؟ لقد تزعزع البناء الجامعى فى أحداث ١٩٥٤ تحت مسمى تطهير الجامعة وتم فصل العديد من خيرة الأساتذة والعلماء ولم يتحرك الكيان الجامعى للدفاع عن كرامته وحقوقه المهنية،

وتعرضت الجامعة لهجمة شرسة للمرة الثانية تمثلت فى إبعاد ٦٤ أستاذا جامعياً وسجن واعتقال بعضهم فى سياق أحداث سبتمبر ١٩٨١ التى انتهت باغتيال السادات وأيضا لم يتحرك الأساتذة للدفاع عن استقلال جامعتهم وحقوق زملائهم.

لاشك أن هذا الموقف المتخاذل هو نتاج طبيعى لسياسة التدجين التى خضعت لها الكوادر الجامعية عبر عدة أجيال والتى استسلمت فى ظل غياب الحريات الأكاديمية وسيادة مناهج التلقين والحفظ واختراق الأمن للجامعة وتدخله فى أدق شئونها والآن لا يجوز الاستمرار فى هذه السياسات المعادية للعلم وحرية التعبير والتى كانت تلائم فترات سابقة، لم يعد هذا يليق بنا وعلينا أن نبدأ فى تصحيح هذه الأوضاع بلا تهاون أو خداع للذات أو إيثار للسلامة فالمؤسسة الجامعية التى نشرف بالانتماء إليها فى حاجة إلى عقولنا وإرادتنا لبلورة عمل جماعي ينفض تركة الموروثات التى تعوق تقدمنا وتهدد قدراتنا الإبداعية فهل نبادر؟ ومتى؟

صوت الجامعة ٢٩ مارس ٢٠٠٤

8 المكافأة الحقيقية !

أبدت صديقتى عالمة الاجتماع بجامعة جواهر لال نهرو دهشتها عندما علمت أننى لا أحصل على أى عائد سنوى أو موسمى من نشر كتبى وأن معظم الناشرين فى بلادى لا يؤمنون بقوانين الملكية الفكرية ولا يحرصون على تطبيقها وأخبرتنى هذه الصديقة الهندية أن جميع سفرياتها لحضور المؤتمرات يقوم بتمويلها الناشرون الهنود والأجانب ونصحتنى باللجوء إلى القضاء ليس لحماية حقوقى فحسب بل لإرساء قاعدة لحماية حقوق الكتاب والباحثين من الأجيال الجديدة وإلا فإن مسلسل إهدار حقوق المؤلف سوف يستمر تأملت نصيحتها قليلاً ثم بادرتها بالقول بأننى حريصة على عدم إهدار طاقتى فى متاهات القضاء خصوصاً وأن ألاعيب بعض الناشرين وحيلهم لا تنتهى وليس لهم رادع سوى ضمائرهم وتذكرت حينئذ قصة قصيرة للكاتب الجزائرى المبدع عبد الحميد هدوجه بعنوان (الكاتب) وتحكى قصة أحد الأدباء الذين أثروا حياة بلادهم بالعديد من الإبداعات ويتعرض لأزمة صحية قاسية ولا يجد ثمن الدواء، فيلجأ على استحياء إلى الناشر الذى يحتكر طبع ونشر كتبه العديدة، ويضن عليه دوماً بنصيبه من عوائد بيع الكتب، فأخبره الناشر أن يحضر فوراً وتسلم مستحقاته، فذهب الأديب متحاملاً على مرضه إلى مقر الناشر واستلم فى مظروف أصفر النقود المستحقة له وعدها فوجدها أربعة جنيهات مقابل احتكار طبع ونشر ١٧ كتاباً على مدى خمسة عشر عاماً. أصيب الأديب بغصة جعلته عاجزاً على التعليق وقبل أن يفيق من

دوامته أخبرته سكرتيرة الناشر بوجود خطاب باسمه قدمته له فى مظروف يعلوه التراب والتجاعيد فتحه وهو مستند إلى الجدار الخارجى للمبنى فوجده من قارئة تعيش فى منطقة نائية وتعانى أهوالاً من لظلم الاجتماعى اللاإنسانى ولا تجد شيئاً يضيء حياتها سوى كتبه التى تمنحها الأمل والقدرة على الاستمرار ولذلك أطلقت اسمه على ابنها البكرى، فأحس الأديب بارتياح عميق وأدرك أن هذه هى المكافأة الحقيقية التى يمكن أن تسعده!! فهل نقتدى بهذا الأديب ونترك الناشرين يبنون العمارات ونواصل نحن رسالتنا فى بناء العقول.. وإلى من يلجأ المؤلف للحصول على حقوقه؟

جريدة الأهرام – ٢٨ أبريل ٢٠٠٣م

9 لمن ندق الأجراس ؟!

الواقع أن التعليم الجامعى قد عانى التدهور المتزايد فى السنوات الأخيرة لأسباب عديدة لعل أبرزها الاهتمام بتخريج أعداد كبيرة من الطلاب على حساب المستوى العلمى وحرمان الحركة الطلابية من ممارسة الأنشطة الثقافية الجادة بل وتشجيعها على الانخراط فى الأنشطة الترفيهية والجوالة فضلا عن انحسار الاهتمام بالبحث العلمى داخل الجامعات، ويؤكد ذلك ضآلة الميزانيات المخصصة للبحوث والمؤتمرات العلمية وغياب السياسات البحثية فى الجامعات، بل أكاد أقول إن مهمة نواب رؤساء الجامعات للدراسات العليا والبحوث أصبحت مقصورة على المتابعة الروتينية للدراسات العليا وإغفال الجزء الخاص بالبحوث وهناك عشرات الشواهد على ذلك ويمكن الرجوع إلى ميزانيات البحث العلمى فى الجامعات المصرية خلال السنوات الماضية للتأكد من أنها لا تزيد عن ٥ , ٠٪ من الميزانية العامة للتعليم الجامعى مما أدى إلى تحول الجامعات إلى مدارس تقليدية امتداد للتعليم الثانوى القائم على التلقين وليست مراكز لإنتاج المعرفة العلمية واكتشاف المواهب وتشجيعها وتقديمها للوطن كركائز ورموز للإبداع والتفوق فى ميادين المعرفة العلمية المختلفة، كما كان يحدث فى السابق، عندما كانت الجامعة المصرية تعد المؤسسة والمصنع الفكرى والثقافى والعلمى الرئيسى لإنتاج وازدهار الإبداع العلمى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، ولا شك أن الأوضاع الاقتصادية لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات قد أسهمت بصورة فادحة فى غياب الدور

الحقيقى للجامعات إذ أدت ضآلة المرتبات وغياب المناخ المشجع للبحث العلمى إلى استنزاف طاقة الأساتذة فى الانتدابات للجامعات الإقليمية والخاصة ثم التعليم المفتوح وأخيرًا ما يسمى التعليم الموازى وذلك لضمان الحد الأدنى من الستر وليس ضمان الحد المعقول من الحياة الكريمة التى تكفل لعضو هيئة التدريس مواصلة القراءة الجادة والمتابعة والبحث والابتكار وتطوير أدائه العلمى، بل أصبح همه الأكبر تدريس مقررات تقادمت بفعل التطور المتسارع فى مجالات التخصص المختلفة أو إعادة إنتاج الكتب والدراسات التى أنتجها بعض أعضاء هيئة التدريس فى صورة مذكرات هزيلة كما تحولت الجامعة إلى ساحة للصراع الضارى بين صغار الأساتذة للتدريس للدفعات الكبيرة لضمن توزيع مذكرات التخلف العقلى وجنى آلاف الجنيهات، وتزداد هذه الظاهرة شيوعاً فى الجامعات الإقليمية ولدي شخصيا أسماء كثيرة لعشرات المشاركين فى هذه المخالفات الجسيمة .. والضحايا هم الطلاب والعلم الذى أصبح سلعة مبتذلة فى أيدى فئات تفتقر إلى صحوة الضمير ليس بسبب العوز بل السعار والنهم وانحسار القيم العظيمة التى أرستها الجامعة المصرية منذ نشأتها فى أوائل القرن العشرين.

ولكن لن ندق الأجراس من أجل إنقاذ الأجيال الجديدة من الضحالة وشيوع القيم السلبية ونحن محاصرون بكم هائل من القيود والعوائق التى يشارك فى تكريسها مواكب المنافقين من المنتفعين المتمركزين حول مصالحهم الشخصية.

صوت الجامعة ٣ نوفمبر ٢٠٠٣

10 عقول الأبناء

كنت فى زيارة لأحد القيادات الإدارية بالكلية وعلى غير عادته فوجئت به مهموما إلى حد الاكتئاب وأمامه أكوام من ملخصات الدروس فى علوم الإدارة والمحاسبة والرياضيات فسألته عن سر اكتئابه وعن هذه الأكوام الورقية أجاب بأن هذه الأكوام هى سبب اكتئابه لأن ابنته التى تدرس بكلية التجارة «التى تخرج منها منذ سنوات طويلة» قد استبعدت المذاكرة من الكتب والمراجع الأصلية فى المواد التى تدرسها وفضلت أسوة بزملائها الاستعانة بهذه الملخصات التى يقوم بإعدادها المعيدون والمدرسون المساعدون. ثم تنهد بأسى وقال لقد فشلت جميع محاولاتى لإثنائها عن رأيها خوفا عليها من التخرج فى هذه الكلية التى يعتز بها ومن المؤكد أنها ستحصل على الشهادة وربما بتقدير جيد أو أكثر دون أن تكتسب الحد الأدنى من المعرفة العلمية فى مجال التخصص. حاولت أن أهدئ من روعه وأنا أقاوم إحساسى بالحزن الشديد على ما آل إليه التعليم الجامعى فى بلادنا خصوصاً وأن هذه الحالة ليست استثنائية كما أنها لا تقتصر على كلية التجارة، بل اكتسحت جميع فروع المعرفة العلمية فى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية وأصبح هم الأجيال الجديدة هو الإلمام بجزئيات مبتورة من المقررات الدراسية فى حدود الكم الذى يضمن لهم النجاح فى الامتحان والحصول على الشهادة الجامعية ولتذهب المعرفة العلمية إلى الجحيم. تأملت السوس الذى بدأ ينخر فى أعز ما نملكه: عقول أبنائنا الذين نؤهلهم لمواجهة تحديات عصر المعلومات حيث أصبحت المعرفة والمنتج

العقلى هما وسائل الإنتاج الحاسمة والوحيدة لتوفير الرزق وحماية الكرامة الإنسانية وتحقيق المكانة الاجتماعية والثقافية وأهم من ذلك تحديد الأدوار والمسئوليات تجاه الأسرة والمجتمع والوطن ككل. إننى أتساءل ومعى الكثيرون: من المسئول عن استمرار واستشراء هذه الكارثة؟

هل هى نظم التعليم التى تقوم على التلقين وفى قلبها نظم الامتحانات العقيمة التى لا تقيس إلا قدرة الطالب على التذكر.

وبالمناسبة تشغل هذه القدرة أسفل سلم القدرات إذ يليها القدرة على الفهم ثم القدرة على التحليل والتركيب والاستنتاج وتتوجها القدرة على تكوين الرؤية ووجهة النظر. للأسف إن جميع المسئولين عن التعليم العام والجامعى يعلمون هذه الحقائق البديهية ويتحدثون طوال الوقت عن مساوئ النظام الحالى وسلبياته الفادحة ولكنهم لا يتحركون بجدية لتغيير هذه الأوضاع التي لا تمنح الوطن فى النهاية إلا خريجين مشوشين فاقدى القدرة على تكوين مواقف، عاجزين عن الإسهام بفاعلية فى النهوض بأنفسهم وبمجتمعهم.

صوت الجامعة ١٠/ ١١/ ٢٠٠٣

11 أزمة الحركة الطلابية الحالية

يتساءل البعض عن أسباب عزوف الطلاب عن المشاركة فى الأنشطة المتاحة لهم والمسموح بها فى الكلية ويبدى خشيته من احتمال استفحال وتفاقم هذه الظاهرة مما ينذر بتحويل الجامعات إلى مجرد مدارس.

والواقع أننا عندما نحاول أن نتأمل هذه الظاهرة بهدف الخوض فى جذورها لمعرفة الأسباب الحقيقية التى تجعل الطلاب يحجمون عن المشاركة فى الأنشطة تبرز أمامى أسباب كثيرة تبدو غائبة عن المسئولين عن التعليم الجامعى ولكنها تظل ماثلة فى الذاكرة الطلابية جيلاً بعد جيل، لعل أول الأسباب يكمن فى إلغاء اللائحة الطلابية ١٩٧٦ والتي كانت تضع زمام الأمور الطلابية فى أيدى قادتهم الذين ينتخبون فى إطار ديمقراطي وحل محلها لائحة ١٩٧٩ التى سلبت الحركة الطلابية استقلالها ووضعت زمام الأمر فى أيدى الأوصياء من الأساتذة وقد كافح الطلاب سنوات عديدة لإعادة العمل باللائحة القديمة ولكن السلطات الجامعية فاجأتهم بضربة قاصمة أخرستهم وجعلتهم يتراجعون عدة خطوات إلى الخلف وقد تمثلت هذه الضربة فى نظام الفصل الدراسى دون سابق إنذار أو دراسة متأنية للتأكد من مدى صلاحية هذا النظام لتأهيل الطلاب علمياً ومعرفياً وإتاحة المجال لهم للتثقيف وممارسة الأنشطة الفكرية والاجتماعية والرياضية وقد شهدت ساحات الجامعة الكثير من المعارك بين الطلاب ومسئولى الأمن بسبب تمزيق صحف الحائط التى يعلقها الطلاب الموالون للتيارات السياسية المعارضة للحزب الحاكم. وقد

دارت الأيام وخلت الجامعة من أى نشاط فكرى أو سياسى أو ثقافى وأعلن الطلاب احتجاجهم بطريقتهم الخاصة العزوف عن المشاركة فى الأنشطة التي أصبحت مقصورة على الجوالة والمهرجانات الرياضية وغابت الأنشطة الثقافية والإعلامية والفكرية لأنها تستفز السلطات الجامعية ومسئولى الأمن والسؤال ماذا ننتظر من الطلاب وقد حاصرتهم القيود وألغيت لائحتهم الأصلية ثم ضيق الخناق عليهم بنظام الفصلين الذى أثبتت التجربة عبر عدة سنوات أنه نظام غير مدروس وقد فرض لأسباب سياسية ولا تمت بصلة للأهداف العلمية والمعرفية بل كانت المعرفة والتعليم والثقافة هى الضحايا الحقيقيين إذ لا يسمح للأساتذة بمنح الطلاب الجرعة العلمية الكافية فى جميع التخصصات كما لا يسمح للطلاب بالاستفادة المعرفية أو الفرصة الكافية لممارسة أى نشاط ثقافى أو فكرى حقيقي.. وقد يكون من السهل أن تلقى المسئولية على الطلاب وهم فى الواقع ضحايا بسبب عدم وضع اهتماماتهم واحتياجاتهم وقدراتهم موضع الاعتبار عند فرض أى سياسة جامعية تتناول أوضاعهم ومستقبلهم نحن فى حاجة حقيقية إلى مواجهة هذا الواقع الطلابى بروح جديدة تتسم بالشجاعة وتستهدف وضع حلول جذرية وعدم الاكتفاء برصد المظاهر الخارجية مع الاستمرار فى فرض السياسات الخاطئة ورصد الميزانيات الضخمة التى لا تسفر إلا عن المزيد من الفشل واتساع الفجوة بين احتياجات الطلاب وبين أهداف السلطات الجامعية إن ما يحتاجه الطلاب أن نسعى بجدية وإخلاص لإزاحة جميع العوائق والقيود التى تراكمت عبر السنين ونفسح أمام الطلاب الآفاق الرحبة للمعرفة والثقافة وأن نكف عن إلقاء اللوم عليهم إنهم فى الواقع ضحايا وليسوا جناة.

صوت الجامعة ١٧/ ١١/ ٢٠٠٣

12 ثقافة الفساد

لا شك أن اتساع مساحة الفقر والإفقار المادى والمعنوى تعد أبرز ما يشد انتباه أى مواطن جاد يملك بقايا استقامة نفسية وعقلية وينتمى إلى موروثات حضارية واجتماعية عريقة قامت على أعمدتها منظومة من القيم والسلوكيات مثل الجرأة فى الحق والتكافل الاجتماعى والصلابة فى مواجهة الشدائد والانتماء الحقيقى لهذه الأرض ولملايين البشر والمتشبثين بتراثها الثقافى والدينى الحريصين على استمرارية ما أرساه الأجداد والآباء من تقديس للعمل ونفور غريزى من الثروات المحرمة واحتقار معلن وخفى لكل من يتجرأ على خيانة الأمانة أمانة الكلمة وأمانة الفعل أقول إن أشد ما يثير الأسى غياب هذه المنظومة من القيم ووجود شماعات تقليدية نعلق عليها هذا التدهور الكاسح فى معظم قطاعات الحياة فى مصر، وأولى هذه الشماعات الفقر والبيروقراطية وهيمنة الأجنبى على مقدراتنا ورغم أن هذه الأسباب صحيحة ولكنها ليست وحدها مسئولة عما وصلنا إليه من فقر إنسانى وأخلاقى، فالفقر ليس جديداً على مصر وإنما الجديد هو الإفقار الذى يعنى وجود قوى مستفيدة من استمرار واتساع حلقات الإفقار المتعمد لجميع الفئات الكادحة فى هذا الوطن والتى أنتجت ملايين الشباب المتعطلين المحبطين الذين أجبرتهم الظروف على التحايل بكافة الوسائل الشريفة وغير الشريفة لضمان الحد الأدنى من استمراريتهم البيولوجية ناهيك عن الاستمرارية العقلية والوجدانية وعندما نتأمل ونتقصى الأسباب الحقيقية خلف هذا الوضع المأساوى نجد أن هناك طابوراً من المسئولين عن فعل الإفقار

والحرص على استمراريته من خلال الفساد الذى لم يعد مجرد حالات متفرقة أو استثناءات شائعة ولكنه تجاوز النسبة العالمية المعروفة والتى أشارت إليها تقارير التنمية البشرية والإنسانية وهى لا تتجاوز فى حدها الأقصى نسبة ١٠٪ فى أى مجتمع ولعل الشيء الأخطر فى قضية الفساد هو أنه تحول إلى ثقافة ذات مفردات وسلوكيات شاعت وانتشرت وطالت معظم الفئات والأجيال، فالمدرس الذى يشارك بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى هدم الدور التربوى للمدرسة ويشارك فى استشراء ظاهرة الدروس الخصوصية وتحويل التعليم إلى سلعة فى سوق النخاسة وأستاذ الجامعة الذى يقبل عن طيب خاطر أو اضطرار الاشتراك فى تحويل التعليم الجامعى إلى أداة للإثراء من خلال الأبواب الخلفية مثل مجموعات التقوية والدروس الخصوصية والتعليم المفتوح والجامعات الخاصة وصغار المدرسين والمعيدين الذين يحولون كتب الأساتذة إلى مذكرات ضحلة يبيعونها على أسوار الجامعات تحت بصر المسئولين الجامعيين وسماسرة الثقافة والإعلام الذين يؤجرون بل ويسخرون جهدهم وأقلامهم للدفاع عن أباطرة السوق والقوى المشبوهة من الأجانب الذين لا يريدون الخير والتقدم لبلادنا مقابل حفنة من الدراهم وذلك تحت مظلة حقوق الإنسان والديمقراطية.

وهؤلاء الذين يلهثون خلف المناصب كى تمنحهم الوجاهة ومساندة ذوى النفوذ ولا يقومون بواجباتهم الوظيفية بل ينفقون أوقاتهم فى الدسائس والمؤامرات ضد زملائهم الجادين الملتزمين. جميع هؤلاء يشاركون فى صنع ثقافة الفساد الذى أصبح أخطبوطاً يهدد أى إنسان شريف وكل عمل جاد. إن الإفقار هو توأم الفساد والإفساد ولا يمكن القضاء على الإفقار والمستفيدين منه إلا باستئصال ثقافة الفساد من جذورها والخطوة الأولى هى تفعيل أجهزة الرقابة والمتابعة فى جميع الهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية.

صوت الجامعة – ١٥ مارس ٢٠٠٤

13 فقدان التواصل

فى كليتنا يدرس طلابنا أحدث تقنيات الاتصال ممثلة فى الأقمار الصناعية وفضائياتها والشبكة الدولية للمعلومات «الإنترنت» وحواسبها وسائر آليات التكنولوجيا الحديثة علاوة على أساليب الاتصال المباشر بكافة مستوياته الثنائية والجماعية وأقدم وسائل الاتصال المطبوع المتمثل فى الصحف، تأملت حالة الاتصال داخل كليتنا المنقسمة أكاديمياً إلى ثلاثة أقسام: الصحافة والنشر - الإذاعة والتليفزيون - العلاقات العامة والإعلان والتى تضم بشريا مئات الأشخاص المنتمين إلى عدة أجيال، تساءلت فى نفسى: هل هذه الأقسام تتواصل علمياً وهل هؤلاء البشر يتواصلون إنسانيا؟ وهل يتحقق من خلال هذا التواصل الهدف الأساسى من وجود هذه الكلية أى التكامل العلمى والإنسانى؟ وجدت أن التواصل العلمى يكاد يكون شبه مفقود، كل قسم منكفئ على تخصصاته الفرعية ومستغرق فى همومه المهنية، أما البشر الذين تجمعهم صلات الزمالة العامة فهم لا يتواصلون إلا بقدر محدود فى المناسبات العامة مثل يوم الخريجين أو تعيين عميد جديد أو المؤتمر العلمى السنوى للكلية، وقليل منهم استطاع أن يفلت من ترسانة الالتزامات والانشغالات الأسرية والمهنية والاجتماعية أو ينجح فى إقامة جسور التواصل الحميم، أما الغالبية العظمى فقد شغلهم السعى على الرزق ومحاولة انتزاع نصيبهم من الثروة والنفوذ وضمان الحد الأدنى من الستر الاقتصادى والاجتماعى، يلتقون فى ممرات الكلية مصادفة ويتبادلون المشاعر الطيبة على عجل ويسارعون إلى

المدرجات كى يمارسوا الواجب المهنى إلقاء المحاضرات وتأنيب الطلاب لعدم مواظبتهم على الحضور وتكليفهم بمزيد من المسئوليات العلمية والبحثية ثم الجرى خارج الكلية للحاق بمواعيد محاضراتهم بالجامعات الخاصة أو التعليم المفتوح لسد النقص الفادح فى مرتباتهم وضمان استمرار أدائهم لمسئولياتهم الأسرية المتزايدة، الوقت قصير وأعباء الحياة اليومية لا تدع لهم فرصة للقراءة العميقة أو التواصل العميق سواء مع أفراد أسرهم أو زملائهم أو طلابهم والمحصلة النهائية أداء شكلى متعجل لمسئولياتهم التعليمية فى المدرجات، وغياب شبه مطلق للبحوث العلمية، فالأغلبية ينقلون من البحوث السابقة التجهيز وقليل منهم أتاحت لهم الظروف أن يحققوا بعض التراكم الاقتصادى الذى يمنحهم الطمأنينة ومواصلة التعامل مع المراجع الحديثة فى التخصص وأغلبهم لا يستطيعون متابعة التطورات التى طرأت على علوم الاتصال من خلال المؤتمرات الدولية.

والسؤال: ما السبيل للخروج من هذه الدائرة الجهنمية ؟ وهل يمكن أن يكون الانشغال بتدبير شئون الحياة اليومية بديلا عن الانتباه إلى ضرورة تعميق التواصل الإنسانى بين هؤلاء البشر الذين تضمهم كلية مهمتها الأولى هى تعليم الاتصال وممارسته ولماذا لا نضع على أجندتنا اليومية ضرورة التواصل والسؤال عن أساتذتنا وزملائنا نهنئهم أو نواسيهم أو نطمئن عليهم ، نتواصل معهم من أجل التواصل الذى يثرى الوجدان ويكسر العزلة النفسية ويضفى نضارة على العقل الصادق الحميم والسلوك وليس التواصل من أجل المصلحة أو الاضطرار أو المجاملة السطحية.. لماذا لا نفعل ذلك ؟!

صوت الجامعة ٢٦ أبريل ٢٠٠٤

14 الأم والأستاذ

علم بعد عودته من عمله أستاذاً بإحدى جامعات الخليج - أن جارته فى السكن قد اعتقلوها منذ سنوات مضت، اهتزت أوصاله وشعر بقشعريرة الخوف تجتاح بدنه وبدأ يسأل جيرانه عن سبب اعتقال هذه الجارة التى تعمل أستاذه جامعية ولم تكن تقيم بصفة دائمة فى هذا المسكن الريفى الذى يقع على أطراف العاصمة، كان الجيران يجيبون بتحفظ مشوب بالحذر بأنهم لا يعلمون ولكن صاحب المنزل الذى يملك ورشة نجارة تقع أسفل العمارة أخبره بأن رجال الرئيس قد حضروا فى إحدى الليالى وكسروا باب شقتها وأخذوا بعض الأوراق وشحنوا حوائط منزلها بأجهزة التنصت خصوصاً فى حجرة مكتبها وغرفتى النوم والصالة ولما حاول التصدى لهم ألقموه حجرا فى فمه بإبراز هويتهم الأمنية.

كان الحدث مثار نقاش دائم فى السوق ومحلات البقالة والصيدلية والجزار وعيادات الأطباء المتناثرة على طول الطريق الزراعى، الجميع كانوا يتساءلون عن هوية هذه الأستاذة التى تملك الجرأة على معارضة الحكومة إلى الحد الذى يعتقلونها من أجله.. وبعد مائة يوم نشرت الصحف نبأ الإفراج عنها، وتدفق الأهالى على منزلها يقدمون التهانى ويعبرون عن فرحتهم بخروجها سالمة من السجن وكان قد فوجئ الأهالى بالصيدلى والجزار يوزعان الشربات ولما استفسروا عن المناسبة أخبراهم بأن الأستاذة قد أفرج عنها وكانوا يشيرون إلى صورتها المنشورة فى الصحف الصباحية .. قرر الجار أن ينتظر لمدة يومين قبل أن يزور جارته ويعرفها

بنفسه ويعبر لها عن إعجابه بكفاحها وصلابتها، استقبلته بترحاب ملحوظ ودعته لتناول فنجان الشاى مع والدتها التى قبل يدها بتأثر بالغ وبدأ على الفور حديثه المشحون بالشجن مستعيدا ذكرياته البعيدة عندما كان معيدا بإحدى الكليات العملية وتصادف وجوده بحجرة العميد لإنهاء إجراءات مناقشة رسالة الماجستير فشهد الفصل الأخير من تدبير جريمة سرقة بعض الكيماويات النادرة من المعمل وإلصاق التهمة بإحدى الأستاذات وكانت تشرف على رسالته وقد تطورت الأمور واستدعى للشهادة أمام المحقق وعاش ممزقاً بين ضميره الذى لا يكف عن تذكيره بشهادة الحق ومصالحه التى سوف تضار فيما لو قال الحقيقة وشهد ضد العميد وظل ساهرا ثلاث ليال دون نوم أو طعام وأصابه الشحوب وقرر أن يستفتى أمه التى ترملت وهى شابة وقامت بتربية خمسة أبناء وبنات كان هو أصغرهم أخبرته أمه بأن يرعى مصلحته ولا يشهد ضد رئيسه، وذكرته بتضحياتها وبكت بحرقة وتوسلت إليه أن يسمع نصيحتها وقد كان وذهب فى اليوم التالى وأدلى بشهادة الزور ضد أستاذته التى تمكنت من إثبات براءتها من خلال شهادة الساعى الأمين الذى كان يحتفظ بمفتاح المعمل وقد أدين العميد ومساعدوه من صغار الموظفين وظل هذا الموقف شبحاً يطارد هذا الجار فى اليقظة والمنام وكان يتحاشى رؤية هذه الأستاذة التى اعتذرت عن عدم مناقشة رسالته وتعطل عامين كاملين بسبب إحالة الإشراف إلى أستاذ آخر كان يعامله بكل الاحتقار وعدم الثقة ثم تعثر فى قصة حبه لزميلته بسبب عجزه عن التقدم لها ومساندتها فى مواجهة معارضة أهلها لزواجها منه، خسر الحبيبة بعد أن خسر أستاذته يوم أن زيف شهادته إيثاراً للسلامة التى صورتها له نصائح أمه.. ومنذ ذلك اليوم وهو يقدس أصحاب المبادئ القادرين على تحويلها إلى مواقف ولذلك جاء كى يحيى الأم التى ربت وغرست الشجاعة، ويهنئ الابنة التى استجابت ولم تخيب الظنون.

صوت الجامعة ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٤

15 الديمقراطية الضرورة الغائبة في الجامعات

يكثر رؤساء الجامعات المصرية من الحديث عن دور الجامعات فى تعميق الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان ولا يوضحون لنا كيف يتحقق ذلك فى ظل الأوضاع التعليمية والإدارية الراهنة داخل هذه الجامعات حيث لا تزال العملية التعليمية أسيرة الأساليب التقليدية التي تعتمد على التلقين وللمذكرات المبتورة المشوهة والمقتبسة من كتب ودراسات كبار الأساتذة والتي تجاوزت أغلبها العمر الافتراضي وأصبحت تقتصر على تاريخ العلم فى مختلف التخصصات ولم تعد تواكب المستجدات العلمية الحديثة أو ما يتعلق بنظم الامتحانات الروتينية التي تحرص على تحنيط عقول الطلاب فى قوالب سطحية ولا تستهدف قياس قدرتهم على التحليل أو تكوين وجهات نظر بل تقف عند حدود قياس قدرتهم على التذكر التى تشغل أسفل سلم القدرات الذهنية والنفسية علاوة على قصر الفترة الزمنية لفصل الدراسى التي تتخللها الأجازات القومية والدينية مما يحول دون حصول الطلاب على الجرعة المعرفية الكافية.

أما ما يتعلق بعلاقة الطلاب بأساتذتهم الذين أصبحوا يلهثون خلف الدراهم الضئيلة التي يتلقفوها من الجامعات الخاصة أو الدروس الخصوصية لسد النقص الفادح والمشين فى مرتباتهم الهزيلة ولذلك لم يعد لديهم الوقت أو الطاقة الذهنية لمتابعة التطورات المتسارعة فى تخصصاتهم فضلاً عن القصور الشديد الذى تعانى منه المكتبات الجامعية سواء فى الدوريات العلمية الحديثة أو الكتب والمراجع

الأجنبية ولذلك يضطر أغلب أعضاء هيئة التدريس من الأجيال الجديدة إلى إعادة إنتاج الأساتذة الذين سبقوهم فى مجال التخصص مع بعض التغييرات الطفيفة فى الصياغات للحصول على الترقيات الأمر الذى أدى إلى غياب الاجتهاد فضلا عن الإبداع العلمى وفيما يتعلق بالنشاط الثقافى والاجتماعى للطلاب لا تزال الحركة الطلابية أسيرة اللائحة العجيبة التي حرصت السلطات الحاكمة على فرضها لتحجيم النشاط السياسى للطلاب وأعنى بها لائحة ١٩٧٩ التي تحصر النشاط الطلابى فى الجوالة والرحلات والأنشطة الترفيهية فى ظل وصاية الأساتذة ورقابة أجهزة الأمن الصارمة مما أدى إلى ظهور أجيال جديدة لا تعرف شيئا عن تاريخ الأوطان ولا القضايا المصيرية التي تتحكم فى مستقبل هؤلاء الطلاب بعد تخرجهم من الجامعة وصارت أهم فترة فى أعمارهم تتبدد هباء فى أنشطة هامشية ضحلة لا تعينهم على اكتساب الحد الأدني الضرورى من المعرفة أو الثقافة العصرية ولا تتيح لهم التزود بالمهارات اللازمة فى ظل التنافس الصحى والاقتراب العلمى الصحيح من المشاكل والتحديات المحلية والعالمية التي تفرضها عليهم ظروف العصر وفيما يتعلق بالبحث العلمى بالجامعات فهو لا ينال سوى أدنى الميزانيات بسبب إهدار معظم الميزانيات الجامعية فى الاحتفالات المظهرية ولا يبقى للبحث والتطوير سوى فتات الموائد التى لا تغنى ولا تساعد على إجراء أى مستوى بدائى من البحوث العلمية.

وفيما يتعلق باختيار القيادات الجامعية بدءاً بمنصب رئيس القسم ووكلاء الكليات وعمدائها غالباً ما تفاجئ بأسماء وشخصيات لا يشير تاريخها العلمى إلى أية إسهام حقيقى فى تطوير التعليم الجامعى أو الثقافة العلمية بل يؤكد حقيقة واحدة هى اقتراب معظم هؤلاء القيادات من دائرة صناع القرار بما يشيع روح

الشللية والنفاق ويقضي تماما على معايير الكفاءة والنزاهة والانتماء الأصيل للجامعة وتراثها العلمى والأخلاقى.

والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح هل هذا المناخ السائد فى الجامعات المصرية حاليا يساعد بالفعل على تعميق الديمقراطية وإرساء حقوق الإنسان وما المقصود بحقوق الإنسان هل هى الحقوق المهنية للأساتذة أم حقوق الطلاب أم حقوق المواطن العادى وما هى منظومة حقوق الإنسان فى أذهان هؤلاء القيادات لقد تمنيت أن يترجم السادة رؤساء الجامعات المصرية هذه التصريحات الوردية المتفائلة إلى سياسات وبرامج تنفيذية حقيقية وفعالة بل توقعت أنهم سوف يوضحون لنا الأساليب والآليات الكفيلة بتحقيق هذه الأمنيات الغالية كى يسهموا حقا فى إزالة الغمة التي تخيم على جامعاتنا العريقة.

صوت الجامعة ٢ نوفمبر ٢٠٠٤

16 مرافقة الزوجة

ماذا يعنى مصطلح مرافقة الزوجة فى العرف الوظيفى وما تأثيره على التعليم الجامعى؟ يعنى أن يقدم عضو هيئة التدريس خصوصاً الحاصل على الدكتوراة حديثاً إلى الجهات الجامعية المختصة عقد صحيح أو مزور يفيد أن الزوجة تعمل فى إحدى دول النفط كى يسمح له بمرافقتها والسفر خارج الوطن لمدة غير محددة أى لا نهائية قد تمتد إلى نهاية العمر الوظيفى ويترتب على هذا العقد العجيب آثار إيجابية بصورة مطلقة بالنسبة للزوج وأسرته إذ يتمكن من تسديد ديونه وتجديد منزله وشراء سيارة وادخار رصيد فى البنك هذا إذا لم تزد إقامته فى دول النفط عن بضع سنوات لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة. أما إذا استمرا البقاء واستعذب مضاعفة مدخراته عملا بالمأثور الشعبى الشائع والذى يردده معظم الأساتذة الذين سبق إعارتهم «البحر يحب الزيادة» و«فيه حد يقول للفلوس لأه» فإنه حينئذ يفضل البقاء حتى ينجب العدد الوفير من الأطفال بل حتى ينتهى هؤلاء الأطفال من دراستهم الجامعية ويستعدون للزواج وتكوين أسر جديدة، ومن أهم الأسباب التى تجعل عضو هيئة التدريس يستمرئ هذا الوضع قلة الأعباء العلمية المنوط به أدائها والاسترخاء العقلى بسبب الابتعاد عن مناخ المنافسة العلمية المزعج الذى يفرض عليه لو استمر فى كليته الأم إذ عليه أن يقوم حينذاك بإجراء أبحاث جديدة وأن يستعد للترقية للحصول على درجات علمية أعلى ولكنه فى ظل المناخ النفطى يكتفى بتدريس كتب زملائه الصامدين فى أرض الوطن ولا يضيره أن يقوم بتدريس عدة مواد لا تدخل فى نطاق تخصصه الأساسى ويتحول بالتدريج إلى

خوجه لا يهتم بمتابعة التطورات العلمية التى تطرأ على التخصص ويرفض الاشتراك فى أية مؤتمرات علمية أجنبية أو محلية توفيراً للمال والطاقة والوقت الذى يحرص على استثماره فى تدبيج كتب ومذكرات مستقاه من جهد زملائه المكدودين فى جامعاتهم الأم ويربح من ورائها عدة آلاف من الدراهم تتيح له فرصة شراء أراضى وعقارات جديدة تحقق له الأمان المفقود وهكذا ينزلق تدريجياً وبلا وعى إلى الحلقة الجهنمية حيث تتضاءل قدراته العلمية والبحثية فى ذات الوقت الذى يتضاعف رصيده فى البنك ويتعود أبناؤه على نمط استهلاكى من الصعب توفيره لهم فى أرض الوطن وتتباعد علاقاته الاجتماعية بزملائه فى الكلية كما تصاب علاقاته بأهله وذويه بالوهن وإن كان أحياناً لا يبخل عليهم ببعض الهدايا لزوم استيفاء الجوانب المظهرية.

وعلى الجانب الآخر تبرز الجوانب السلبية لهذه الورقة اللعينة المسماة بعقد عمل الزوجة فى الخارج وأولى ضحاياها هم طلاب العلم والأقسام العلمية التى تتحول إلى هياكل خاوية بعد أن يهجرها أبناؤها سعياً وراء الرزق أحياناً وإشباعا للأطماع امادية التى لا تقف عند حد فى أغلب الأحيان وإذا كانت الجامعات تنفق آلاف الجنيهات بل الملايين لإعداد الكوادر العلمية أملاً فى أن تجنى الثمار فيردوا لها جزءاً من الدين وحق الرعاية والتربية من خلال إسهامهم فى تكوين أجيال جديدة من الكوادر العلمية إلا أن الثغرات القانونية، وضآلة المرتبات الجامعية تشجع هؤلاء الأبناء على أن يضربوا عرض الحائط بهذه الأصوليات الأخلاقية الأساسية ولا ينصتوا إلا لصوت مصالحهم الشخصية الضيقة ولتذهب الجامعة وحقوقها على أبنائها إلى الجحيم والسؤال أين الخطأ هل يكمن فى القوانين فقط أم فى فشل الجامعات فى تربية كوادرها وأغنائهم عن الحاجة لدول النفط أم فى طبيعة المرحلة التى تشهد انهيارا مفجعاً فى جميع المواقع أم كل هذه الأسباب مجتمعة.

صوت الجامعة ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٤

17 أستاذ مخضرم يتحدث

كان الأستاذ الجامعى المخضرم يقف فى إحدى ساحات الكلية مع بعض تلاميذه وكان من بينهم زميلة له عرفت بمواقفها الجريئة وآرائها النقدية منذ كانت طالبة تتلقى العلم على يديه ودارت الحوارات حول أوضاع الجامعة والأجيال المختلفة التى عاصرها هذا الأستاذ منذ خمسينيات القرن الماضى تحدث الأستاذ وأفاض عن الفروق الأخلاقية والعلمية بين هذه الأجيال قال : كان الأستاذ يعرف طلابه بالاسم والموطن والظروف الاجتماعية وكان هؤلاء الطلاب شغوفين بالعلم والمعرفة حقا وكان البارزين منهم يجمعون بين عدة مواهب فهم يناقشون أساتذتهم فى المدرجات ويترددون بانتظام على المكتبة ويشاركون فى المظاهرات ويعيش بعضهم قصص غرامية مع زميلاتهم وكانت غالبا تنتهى بالزواج كما كانوا يحرصون على حضور الحفلات الموسيقية والندوات الثقافية والأدبية ناهيك عن الطلاب الرياضيين الذين برز منهم أبطال دوليون وكان نادرا وجود الطالب الذى يمتلك سيارة بل كان الجميع أساتذة وطلابا يستخدمون المواصلات العامة فقد كانت فى حالة ممتازة ومتاحة فى جميع ساعات النهار والليل وكنت ألتقى بالعديد منهم فى المسرح ودار الأوبرا ودور السينما فى وسط المدينة ولم أكن الحظ مطلقا وجود فروق فى المستويات الاجتماعية وكانت الطالبات سافرات الرأس وكن يشاركن بهمة ونشاط فى جميع الأنشطة الرياضية والثقافية وبعضهن كن يقدن المظاهرات وفى يوم من الأيام جاءنى طالب يغلب على مظهره التواضع الشديد وقد اعتقدت حينذاك

أنه جاءنى كى يطلب منى مساعدته للحصول على فرصة من الكلية أو مساعدة مالية لدفع نفقاته الدراسية ولكننى فوجئت به يطلب نصيحتى فى مسألة حساسة تتعلق بضميره الذى يؤرقه لأنه يتعرض لمطاردة بعض الجهات الأمنية التى تحاول تجنيده للتجسس على أساتذته وزملائه ورغم الإغراءات التى عرضوها عليه والتى كان فى أشد الحاجة إليها إلا أنه أبى بشدة أن يقوم بهذا الدور ونصحته يومها أن يثبت على موقفه ولا يستسلم حرصا على تماسكه الأخلاقى وبشرته بأن المستقبل أمامه وسوف يعوضه كثيراً.

وبعد عدة سنوات زارنى هذا الطالب وقد تحسن مظهره وأخبرنى أنه قد التحق بعد تخرجه بوزارة الخارجية ثم توالت السنوات وأصبح سفيراً لامعاً.

التقطت الأستاذة الخيط من أستاذها المخضرم وبادرته بالسؤال عن رأيه فيما يحدث اليوم فى الجامعات وأشارت إلى إحدى الإعلانات المعلقة عن نشاط الأسر الطلابية وكانت تدعو إلى المشاركة فى مسابقة عن أغانى المطربين الجدد ثم لمحت أحد صغار الشبان الذين تربوا فى دول النفط مع والده المعار لسنوات طويلة وقاده طموحه إلى ارتكاب بعض السرقات العلمية وحوكم وفصل من الجامعة ثم عاد إليها من الباب الخلفى عبر ما يسمى بالجامعات الخاصة نظر إليه الأستاذ المخضرم وعلق قائلا: «أنتم تزرعون هنا وهم يحصدون هناك لقد جرت مياه كثيرة لوثت فضاء الجامعات المصرية وغرست فى أرضها الطيبة كثير من البذور السامة وسوف يمضى وقت طويل حتى تتمكنوا من تطهير أرضها الطاهرة وتعيدوا لها تألقها وقداستها» انتهى كلام الأستاذ ولف الجميع صمت عميق.

صوت الجامعة ١٥ مارس ٢٠٠٥

18 الأمن في الجامعة

تعالت أصوات أعضاء حزب الشجرة بالنادى الأهلى أنهم مجموعة من الشباب الذين تجاوزوا سن السبعين عاما ويضمون أحياناً عدداً قليلا لم يتجاوزوا بعد سن الخمسين، ويواظبون على الحضور يومياً من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثانية والنصف ثم ينصرفون تباعاً عندما يأتى أولادهم أو السواقون أو المسئولين عنهم من الخدم لاصطحابهم إلى منازلهم، تبدأ هذه المجموعة يومها بقراءة الصحف واحتساء القهوة أو القرفة وعندما يكتمل عقدهم فى الساعة الحادية عشر تبدأ أحاديثهم همساً ثم تعلو أصواتهم تدريجيا، وفى الساعة الواحدة تقريباً تسخن المناقشات ويتحول الهمس الصباحى إلى ضجيج وتتناثر الكلمات ذات الإيقاع الحاد وتصل إلى أسماع جيرانهم من أعضاء وعضوات النادى الذين يجاورونهم فى الحديقة.

ولعل أغرب ما سمعت من أحاديثهم التى كانت تخترق أذانى تحرمني من التركيز فى القراءة أو الاستمتاع بمتابعة ألوان الأشجار الورود ذلك الحوار الذى دار بين أحد رؤساء الجامعات السابقين وأحد ضباط الشرطة المحالين إلى التقاعد قال رئيس الجامعة الأسبق مدافعاً عن نفسه : «لقد كنت أؤدى واجبى بأمانة وكان من المستحيل أن أبلغ المسئولين بالتفاصيل التى كنت تعتبر بصورة ما حقائق عن الطلبة المشاغبين الذين كانوا يهددون أمن النظام، (أنت كنت تعتبرهم مظلومين وأبرياء وكنت تمتنع عن كتابة تقارير ضدهم) ، انبرئ ضابط الشرطة مدافعا عن

نفسه قائلا: هل نسيت أننى قمت بتسليم مجموعة الطلبة الذين أحضروهم من كليات الطب والصيدلة والآداب والزراعة وأحضرت شحنة من قرن الغزال وقمت بتدريبهم على استخدامها ضد زملائهم من الناصريين والشيوعيين وكنت أراعى جميع التعليمات الصادرة من رؤسائى فى الوزارة «يقصد الداخلية» بمنتهى الأمانة والالتزام فماذا كان مصيرى، اتهمونى بأننى منحاز للطلبة المتهمين بالشغب، وذلك بناء على التقرير الذى كتبته ضدى. عندئذ ثار رئيس الجامعة وصاح بصوت مرتفع «هل كنت تظن أن أخون مسئولياتى وأضحى بالكرسى علشان عيونك» تدخل محام سابق لفك الاشتباك وتهدئة الخواطر وطلب لهم أكواب من الينسون والليمون هدأت الزوبعة ثم استأنفوا الحديث قال ضابط الشرطة: عموما أنا كنت سعيد جداً عندما نقلونى من الجامعة إلى المسطحات المائية وكانت المشكلة هى اقتناء مجموعة من المايوهات لى وللأصدقاء الذين كانوا يتوافدون لزيارتى وعندما يسألون عنى الحارس أمين مكتبى كان يشير لهم على النيل، حيث كنت أستمتع بالسباحة محاولاً أن أنسى تلك الفترة العصيبة فى نهاية السبعينيات والتى أحمد الله أنها انتهت بخيرها وشرها، وأنا الآن أكتب رواية وأحلم بأن يوافق عادل إمام أو نور الشريف لإخراجها فى فيلم .. ضحك المجتمعون وقالوا له: «المهم إنك تطلعها الأول كرواية وبعدين يحلها ربنا».

صوت الجامعة ٢٣/ ١/ ٢٠٠٦

19 أزمة الحب في الجامعة

عبر عشرات القصص وحكايات الحب التى عاصرتها بين طلابى وطالباتى على مدى ثلاثين عاماً تكونت فى ذاكرتى بانوراما كاملة عن أسباب الإحباط والفشل العاطفى التى يعانى منها الشباب الجامعى وترجع فى مجملها إلى التنشئة الاجتماعية والجنسية الخاطئة التى يتوارثها الآباء والأمهات عن أجدادهم ثم يورثوها لأبنائهم وبناتهم، تلك التنشئة التى تسعى إلى إسدال ستار كثيف من التكتم على الحقائق الجوهرية التى تشكل عصب الحياة الأسرية وتكمن بداخلها كل بذور السعادة أو التعاسة والنجاح أو الفشل ويؤدى إغفال هذه الحقائق إلى خلق قصور بنيوى فى وعى وإدراك الأجيال الجديدة مما يدفعهم إلى التخبط والارتباك والرغبة فى المغامرة لاكتشاف المجهول ومن ثم الدخول فى متاهات ذات بدايات براقة ومبهرة ونهايات مظلمة تغلفها الكآبة واليأس والانكسار النفسى والهزيمة الوجدانية التى تجبر هؤلاء الشباب على العودة إلى الموروثات التقليدية التى تزخر بكم هائل من القيم المغلوطة والمحظورات التى تفتح الأبواب أمام المزيد من القهر والحرمان والانغلاق النفسى والضمور الإنسانى لدى الأغلبية العظمى من الشباب كما تدفع الكثيرين منهم إلى الانحراف والازدواجية فى الفكر والسلوك الذى يتجلى فى العديد من التشوهات النفسية والاضطرابات العقلية والسلوكية.

وقد تأملت هذه المشكلات وعايشتها وتابعت تداعياتها المأساوية، فكم من الطاقات الإبداعية قد أهدرت وكم من الشباب الواعد والشابات الواعدات قد

أخطأوا الطريق الصحيح بسبب إخفاقهم فى تجارب الحب والتواصل الإنسانى مع الجنس الآخر.

ومن حصيلة الآراء والتأملات أستطيع أن أقول إن الأسرة المصرية لا تزال تعيش داخل حلقات مغلقة يحكمها الخوف من المعرفة لأن المعرفة الحقيقية تؤدى إلى خلخلة الثقافة السائدة والتقاليد الراسخة التى تكلست وأصبحت لها سطوة وقدسية وتحصنت خلف تفسيرات دينية خاطئة ومغرضة فالأم والأب يحرمون أطفالهم من معرفة الإجابات الصحيحة على الأسئلة المشروعة ويلجأ الأطفال إلى المصادر الأخرى التى تزودهم بالإجابات التى تقودهم إلى الخطيئة دون أن يدروا ويتباهى الأهل بجهل بناتهم وأبنائهم فلا يهتموا بتوعيتهم وتنويرهم وتزويدهم بحقائق الحياة العاطفية والجنسية توهماً منهم أن ذلك يقع فى دائرة العيب ثم تأتى المدرسة كى تكرس هذه الأوضاع الخاطئة فلا تحفل بتزويد التلاميذ بالمعلومات الأساسية عن دورة الحياة والعلاقات السوية بين الجنسين ويكبر الصغار ويذهبون إلى الجامعات ويتفوقون فى العلم ولكن يظل هناك ركناً خاوياً داخل عقولهم ونفوسهم عن كيفية الاقتراب الصحيح من الجنس الآخر وتظل صورة الفتى فى ذهن الفتاة متأثرة بصورة الأب كما تظل صورة الفتاة فى ذهن الفتى متأثرة بصورة الأم المستكينة الصابرة أو التى تتحايل على ظروفها القهرية بشتى أساليب الدهاء الأنثوى وعندما يحدث الاقتراب بين الفتى والفتاة فى رحاب الجامعة يظل كل طرف محتفظاً بداخله بمخزون الخبرة الطفولية الخائبة التى اكتسبها من مرحلة الطفولة فى الأسرة ومرحلة المراهقة مع رفاق الدراسة.

ويؤسفنى أن نظم التعليم الجامعى لا تزال قاصرة ومقصرة فى حق هؤلاء الشباب إذ تحصرهم داخل قوالب حجرية يقتاتون فتات المعرفة من المذكرات

الضحلة والمراجع العتيقة وتحاصرهم بآلاف المحرمات والمحظورات فلا يجدون وقتاً لممارسة الحب بصورته الصحيحة السوية أو اكتساب المعرفة الحقيقية من مصادرها المتنوعة أو ممارسة الفكر الخلاق من خلال الأنشطة التى تشحذ طاقاتهم، ويتعلمون من خلالها كيف يتفقون ويختلفون ويحترمون الذين يختلفون معهم ومن خلال هذا الخضم الزاخر بالحيوية والحرية يتعلم الاختيار الصحيح فيحسنون اختيار الرفاق والرفيقات والمواقف والآراء ويسعون لاكتشاف مفاتيح البهجة الحقيقية بهجة المعرفة وبهجة الحب وبهجة الحياة.

صوت الجامعة ٢ يناير ٢٠٠٦

20 أكثر الأمور مدعاة للحزن

النصب صورة من صور الفساد بل يعتبر البذرة الأولى للفساد والإفساد ويقال إن النصب أقدم مهارة تاريخية اكتسبها ومارسها الإنسان للتحايل بطريقة خاطئة على التحديات والعقبات التى تفرضها الظروف وتحول بينه وبين تحقيق طموحاته المشروعة والتى تتحول فى أحيان كثيرة إلى أطماع غير مشروعة، وبمرور السنوات وتوالى الأزمنة وتراكم الخبرة الإنسانية ومع تنوع الأنشطة البشرية وتعدد فنون الحياة أصبح للنصب قواعد وأصول كما تدرجت مستوياته وتراوحت ما بين الفهلوة والأكاذيب البيضاء والرمادية مروراً بالانتهاكات أو المخالفات المكشوفة والتى لا تصل إلى حد التجريم وانتهاء بالممارسات الإجرامية المدروسة، وتظهر بوادر النصب فى سن مبكرة عندما يحاول الطفل أن يخفى كسله فى أداء واجباته المدرسية بادعاءات وأكاذيب صغيرة مفضوحة أو يحاول استغلال طيبة وتلقائية بعض زملائه يستلف منهم بعض الأدوات المدرسية أو الملابس الرياضية ولا يردها مدعيا أنها ضاعت أو سرقت وقد يستلف منهم بعض النقود ولا يردها وبطلب منهم أن يعزموه على الكانتين ولا يرد لهم العزومة وهكذا تنمو بذور النصب فى داخله ثم تتحول تدريجيا إلى جزء من سلوكه اليومى. وعندما نستقرئ الواقع حولنا تصادفنا عشرات الحالات والأمثلة مثلاً الطالب الجامعى الذى لا يواظب على محاضراته ويختلس جهد زملائه الملتزمين بينما يمضى وقته فى اللهو والصعلكة والمغامرات الفاشلة والموظف الإدارى الذى لا يترك سجادة الصلاة ويحمل فوق

جبهته الحبة السوداء دليل التقوى ولا يتوقف طوال اليوم عن استلام الرشاوى وإدراجها فى كشوف البركة، والطبيب الذى يخون قسم أبيقراط ويلقى خلف ظهره جميع الأعراف الإنسانية التى أرستها هذه المهنة النبيلة ويستغل جهل المرضى وثقتهم فيه ويشارك فى سرقة بعض أعضائهم البشرية أو يوصى بضرورة إجراء عمليات جراحية عاجلة وهى فى الواقع غير ضرورية ويتقاضى عنها عدة آلاف من الجنيهات يقتطعها أهل المريض من أجسادهم الحية، أما النصب فى مجال البحث العلمى فقد اتسعت رقعته وتنوعت أساليبه ولم تعد تقتصر على الباحث الذى يقتبس المعلومات والأفكار من كتب وجهد السابقين دون أن يشير إليهم بل أصبحنا نرى بعض أشباه الأكاديميين الذين برعوا فى مجال النصب والفساد وأصبحوا مثلاً يحتذى لدى ضعفاء النفوس من الأجيال الجديدة هؤلاء يتدثرون بأثواب كهنوتية ظاهرها الترفع الأجوف وباطنها الخداع والشراهة والأنانية والخواء العلمى هؤلاء السادة يمارسون أخس وأدنأ أشكال النصب والفساد والتى تتمثل فى التعاملات المريبة مع هؤلاء المتعطشين للدرجات العلمية وليس المعرفة العلمية، بعضهم جاء من دول النفط فيما ينتمى الآخرون إلى الأثرياء الجدد الطامعين فى استكمال الثروة باللقب العلمى، يأتون وجيوبهم مكتنزة بالعملات المشبوهة المصدر وترتفع فوق أكتافهم رؤوس خاوية ونفوس نهمة تفتقر إلى الرهافة الفكرية والنفسية، ولعل أكثر الأمور مدعاه للحزن عندما يقوم هؤلاء الأباطرة النصابون من ذوى المناصب الأكاديمية بتكليف صغار المعيدين والمدرسين المساعدين بجمع المادة العلمية لرسائل الماجستير والدكتوراه الخاصة بهم.

والتى يتم منح درجاتها العلمية دون حق لهؤلاء النفطيين وسواهم مقابل حفنة من الدراهم حقاً هناك مهنتان إذا أصابهم العطب وإذا أصيبوا فى جوهر رسالتهم

انتكس المجتمع إلى غير رجعة والمهنتان المعنيتان هما التعليم المنوط به تشكيل وتربية العقل والضمير الجمعى، والطب الذى يتكفل بمداوة الأجساد والنفوس عندما يداهما المرض ولقد نجح أباطرة النصب والفساد فى اختراق عقل وجسد المجتمع ولا عزاء للشرفاء.

صوت الجامعة – ٦ مارس ٢٠٠٦

21 التقية وفساد القيم

احتدمت المناقشة بين الأستاذة وأحد تلاميذها عقب اتهامه بتزوير أقواله فى واقعة كان أحد أطرافها وذلك للإفلات من العقوبة التى كانت تنتظره فيها لو قال الحقيقة، كان مهدداً بالفصل من وظيفته الجامعية لأنه كان الشاهد الوحيد فى حادث يمس الشرف ارتكبه أحد رؤسائه بمعاونة بعض ضعاف النفوس، التف حوله زملاؤه وطالبوه بأن يقول الحقيقة ويشهد بما رأى إنصافاً لضميره وإحقاقاً للحق ، وتكتل المغرضون وحاصروه بالإغراءات الرخيصة وخيروه بين الاستمرار فى عمله والتمتع بالمزايا العديدة التى يحظون بها مستندين إلى أن غض الطرف عن المخالفات الجسيمة والانتهاكات الفجة التى تحيط بهم هو السبيل الوحيد لضمان مستقبله وإلا فإن المصير الذى ينتظره الطرد من الوظيفة والتشرد له ولأسرته الفقيرة.. ظل مؤرقاً عدة ليالى.. نصحته أمه بأن يقول الحقيقة والرزق على الله.. ونصحه شقيقه الأصغر «بالمهاينة وأن يمشّى حاله» لأن البلد أصبحت بحيرة من الفساد والجامعة جزء من البلد وقد طالتها أمواج الفساد والترهل وختم نصيحته بأنه لن يستطيع أن يصلح الكون وحده خصوصاً وأن فصله من العمل يعنى أن والدته المريضة لن تجد العلاج وشقيقته التى تستعد للزواج سوف تظل عانساً وعالة على الأسرة، وأن قول الحقيقة لن يضر رئيسه لأن الرؤساء يجاملون بعضهم بعضاً، ولن ينصفوه أو يقدروا نزاهته.. وقد جاء إلى أستاذته كى يستشيرها ماذا يفعل .. قالت له: إننى لم أعلمك سوى الصدق والصراحة ومواجهة الظلم والفساد بكل ما تملك من إرادة وضمير

لأن التسامح مع المفسدين يشجعهم على استضعافنا وفقدان أعز ما نملك .. «الضمير اليقظ» الواعى الذى يشحذ قدراتنا ويشد عزائمنا فى مواجهة طوفان الفساد، فساد النفوس والعقول والاستسلام أمام هؤلاء هو الخطوة الأولى للدمار، دمار شخصيتك واحترامك لنفسك والهوان فى أعين محبيك وأهلك وزملائك، واعلم أن كنوز الدنيا لن تحميك من احتقار الذات والإحساس بالعار أمام الآخرين.

قال الشاب منفعلاً: ولكن هناك شيئا اسمه التقية وعلينا أن نحمى أنفسنا عندما يكون الموج عالياً ولن نستطيع دفعه بسواعدنا الضعيفة.. ردت عليه فى حدة: إن لضعف يكمن فى النفوس وعندما تتسلح النفس بالنزاهة والوعى تشتد السواعد وتقوى في مواجهة المحن، ونحن كمصريين نواجه حالياً محنة كبرى تتجسد فى فساد لنفوس وشيوع ثقافة الفساد والسكوت عن قول الحق ومحاربته وتفعيله، وأمامك طريقان وعليك أن تختار، وتاريخنا ملىء بالعبر والعظات، هناك الأبطال الذين ستبسلوا دفاعاً عن حقوقهم المشروعة وحقوق وطنهم وقد رفعهم التاريخ إلى مرتبة القداسة وهناك أيضاً الأنذال والانتهازيون والعملاء من ضعاف النفوس وقد لقى بهم التاريخ فى سلة القمامة.

سكت الشاب ولم يعلق ثم خرج من مكتب الأستاذة وقد صمم على أن يرفع هامته ويعلى صوت الحق مهما كان الثمن.

صوت الجامعة ١٧/ ٤/ ٢٠٠٦

22 لم تعلق الأستاذة

خيم الغضب والتوتر على انحاء المدرج وأصاب الطلبة والطالبات صمت عميق مشوب بالحذر والتوجس، وعلت وجوههم علامات الخجل لإحساسهم بالتقصير وارتفع صوت الأستاذة المحاضرة منذراً لهم ولجيلهم بالويل والثبور وعظائم الأمور فهم يتمون إلى جيل شاءت أقداره أن يأتى فى فترة حالكة من تاريخ العالم حيث لا أمان ولا سلام لهم إلا بالعلم لمواجهة عوامل الإفقار والفساد وهيمنة السوق وسطوة القطب الأمريكى الأوحد ووحشية العدو الصهيونى وخيبة المثقفين وخيانة وتواطؤ صناع القرار وسلبية واستسلام الجموع الصامتة الصبورة.

اعترفت لهم الأستاذة بأنهم ضحايا النظام التعليمى الذى حول التعليم إلى سلعة وحول المعلمين إلى تجار وحول الوزارة إلى هيكل عظمى تثرثر قياداته بشعارات وهمية وتصريحات وردية لتحذير الأهالى وأولياء الأمور.. حدثتهم الأستاذة عن الفرق بين نوعية التعليم والعلم الشكلى المزيف الذى يستقونه من المذكرات الضحلة والكتب المقتبسة المشوهة وبين العلم الحقيقى الذى يعتمد على المراجع والدراسات الجادة والذى تزخر به المكتبات فى الكليات. والجامعات ومراكز البحوث وكى يتمكنون من مفاتيح هذا العلم وأدواته لابد من المشاركة فى الندوات والمؤتمرات وإجراء الأبحاث والمشاركة فى السيمنارات العلمية.. وفجأة ارتفع صوت إحدى الطالبات وكانت تجلس فى المقاعد الخلفية حيث طلبت الاستئذان لها بالتعليق وخرج كلامها متدفقاً كهدير المياه متجاوزاً كل الضوابط التقليدية ومسلطاً

الضوء على جوهر الأزمة قالت الطالبة لماذا تركزون على مسئوليتنا كطلاب ولا توجهون اللوم إلى أساتذتنا المسئولين عن رعايتنا وتوجيهنا، أن الأسلوب التعليمى لأغلب المواد التى ندرسها لا يزيد عن كونه امتداداً للنظام التعليمى التلقينى الذى تتحدثون عن جرائمه فى حق جيلنا لقد أجهض الأساتذة أحلامنا بإصرارهم على أن نحفظ ما يجبرونا على استذكاره فى كتبهم ومذكراتهم ومن يتمرد منا ويحاول إضافة معلومات وأفكار من مراجع أخرى لا يحصل سوى على درجة مقبول إذا كان الأستاذ رحيماً بنا وفى أغلب الأحيان يرسب الطالب لأنه تجرأ على ذكر معلومات أو آراء لم يشر إليها الأستاذ فى كتابه ماذا نفعل فى هذه الحالة؟ وهل هذا هو التعليم الجامعى الذى طالما حلمنا به؟ إننى أقترح ضرورة إعداد دورات تثقيفية وتدريبية من المستوى الرفيع لأعضاء هيئة التدريس وإلزامهم بتفعيل الأساليب العصرية فى التدريس والتى تقوم على الحوار وتعددية المراجع والمناقشة والبحوث الحقيقية ولكن للأسف يبدو أن الأساتذة مشغولون بلقمة العيش خصوصاً أن أغلبهم لا يملكون سوى مرتباتهم وهى لا تكفى لتغطية نفقاتهم الأسرية والتزاماتهم العلمية والمهنية.

صمتت الطالبة ولم تعلق الأستاذة.

23 مسألة خطيرة

فاجأتنى المساعدة المنزلية بتساؤل غريب إذ قالت فى استحياء لماذا لا يتحول الطالب المنتسب إلى منتظم إذا كان الفرق نصف درجة؟ وهل من الممكن أن أتوسط لدى الجامعة لتحويل ابنتها من طالبة منتسبة إلى منتظمة لأنها حصلت على الدرجات المطلوبة وينقصها فقط نصف درجة؟ وكانت تعنى بذلك حالة ابنتها الطالبة بالسنة الثانية بكلية الحقوق، فلما أوضحت لها استحالة ذلك لان استثناء ابنتها سوف يؤدى إلى قبول جميع الحالات المماثلة مما سيهدر قانون الجامعة من أساسه تشجعت قليلا وقالت أن هناك طالبة حصلت على درجة ٦ من ٢٠ فى إحدى المواد وقد تدخل والدها التاجر الكبير لدى عميد الكلية فرفع الدرجة إلى ١٦ من ٢٠.

فأفزعنى ما قالته وأكدت لها بصوت منفعل استحالة ذلك وأن هناك شائعات كثيرة منتشرة بين الطلبة ولا أساس لها من الصحة ، ولكننى عندما تأملت الوضع لم أستطع أن أمنع نفسى من الربط بين هذا الحدث وبين ما سمعته من أحد الزملاء ويشغل موقعاً قيادياً فى إحدى الجامعات الخاصة من أن أولياء الأمور لا يكفون من ممارسة ضغوطهم التى تتمثل فى تدخلهم السافر لتعديل درجات أبنائهم لضمان حصولهم على تقديرات تؤهلهم للالتحاق بالوظائف المرموقة فى الشركات الأجنبية.

والواقع أننى لا أدرى متى بدأ ينخر هذا الفيروس اللعين فى جسد التعليم

الجامعى وهل انتقل من الجامعات الخاصة إلى الجامعات الأم؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

وعادت ذاكرتى إلى الوراء فى نهاية حقبة الخمسينيات وخلال الستينيات عندما تتلمذنا على أيدى أساتذة أجلاء وعشنا فى ظل نظام تعليم جامعى متماسك كان حريصاً على التقاليد العلمية والقيم الجامعية التى أرساها الرواد الأوائل من لطفى السيد وطه حسين إلى مصطفى مشرفة وأمين الخولى وتذكرت الدرس الأول الذى تلقيناه من د. عز الدين فريد عميد كلية الآداب عند بدء الدراسة الجامعية والذى يتمثل فى قدسية سرية الامتحانات وسرية النتائج وأمانة المجالس العلمية وكيف انقلبت الأوضاع وجاءت أزمنة غبراء تدهورت خلالها الأوضاع التعليمية عموما وأصابت التعليم الجامعى فى مقتل إذ أصبح مستباحا إلى الحد الذى يسمح بتدخل بعض التجار والمقاولين وأثرياء الانفتاح الاقتصادى ولصوص العولمة المنفلتة للتدخل لإفساد أخص خصوصيات العملية التعليمية وإهدار مبدأ التكافؤ وهدم العمود الفقرى للتعليم الجامعى.

لقد بحت أصوات مئات الشرفاء من الأساتذة الجامعيين لإيقاف هذا التدهور، ولكن سطوة المصالح الشخصية الضيقة وغياب الرقابة من جانب القيادات الجامعية سمحت لبعض الضمائر الجامعية بالسقوط فى غيبوبة طويلة فمتى نستيقظ كى تنقذ ما تبقى من عقل وضمير الوطن؟

الأهرام ١٧/ ٨/ ٢٠٠٥

24 بعيون أمريكية

فى إطار متابعتى للمقررات الدراسية فى حقل الصحافة والإعلام (شعبة اللغات الأجنبية) والتى يتم تدريسها فى بعض الجامعات الخاصة المصرية اكتشفت أن حفيدى يدرس المقررات المتخصصة من كتب ومذكرات أعدها أساتذة وباحثون أمريكيون ويقوم بتدريسها أساتذة مصريون، وقد يرى البعض أن هذا أمر طبيعى بل ضرورى، خصوصا فى مواد مثل الإعلام الدولى والصحافة العالمية ونظريات الإعلام وتكنولوجيا الاتصال والتحرير والإخراج الصحفى والإعلان الصحفى والعلاقات العامة ولكن الأمر يختلف عندما يتم تدريس مواد مثل الصحافة العربية أو الصحافة المصرية بالاعتماد على المراجع الأمريكية فحسب دون محاولة الاستعانة بالتراث الأكاديمى الذى قدمته المدرسة المصرية والعربية فى مجال التاريخ لصحافتها عبر ما يزيد على ٧٥ عاماً ولعل أقدمها كتاب قسطاكي عطارة عن الصحافة العربية الصادر فى عشرينيات القرن الماضى عدا عشرات المؤلفات الأخرى التى قدمها باحثون بارزون من مصر والعراق وتونس والمغرب والجزائر واليمن والسودان وليبيا والسعودية ولبنان وسوريا، علاوة على عشرات الرسائل العلمية التى قدمها الباحثون العرب من الأجيال المتوالية وأسسوا بها رؤى علمية شبه متكاملة عن تاريخ الصحافة العربية والقضايا والتحديات المعاصرة التى تواجه الصحافة والصحفيين العرب ونضالهم فى مواجهة الحكومات المحلية ومحاولات الاختراق والهيمنة الأجنبية (الأمريكية والصهيونية بالتحديد).

ولعل أشد ما أثار انزعاجى هو عدم حرص الجامعات الخاصة المصرية على تكليف الأساتذة المنوط بهم تدريس هذه المواد ذات الطابع القومى والوطنى بإعداد مقررات دراسية مستقاة من التراث الأكاديمى المصرى والعربى وترجمته إلى اللغة الإنجليزية لتخريج كوادر إعلامية تستوعب تاريخ أوطانها وفى قلبها الصحافة والإعلام برؤى واجتهادات عربية ذات توجه صحيح يساعدها على ترسيخ انتمائها من خلال توعيتها بالحقائق التاريخية غير الملونة بالمصالح والأغراض الأجنبية بدلا من استقطاب عقول ووجدان الشباب وهم فى سن التكوين لمصلحة توجهات ورؤى أجنبية لا تسعى ولا تحرص على فهم تاريخنا وواقعنا الراهن بل تعمل بدأب على ترويج أفكارها تدعيما وتعزيزا لأهدافها التى تتناقض بل تتصادم بالضرورة مع مصالحنا وحقوقنا كشعوب وكأفراد وهو ما تؤكده خبرتنا التاريخية المعاصرة.

لقد عانت الشعوب العربية والإفريقية طويلاً من الانتهاك والتشويه القبيح لتاريخها القومى سواء فى مجال النضال السياسى أو الاستقلال الثقافى، وفى إطار حركة التحرر الوطنى بدأ جيل الرواد من المفكرين والعلماء فى تعريب وتمصير وأفرقة التاريخ الوطنى، وفى قلبه التاريخ الثقافى الذى يضم منظومة متميزة فى الفن والأدب والصحافة، فكيف نرضى لضمائرنا أن نلقن أبناءنا وأحفادنا تاريخهم بعيون أجنبية؟ وهل تستهدف الجامعات الخاصة المصرية تخريج كوادر إعلامية للعمل خارج الوطن أم تسعى (دون قصد) لتهيئة عقولهم لتفعيل الوجود الأجنبى فكراً وتعليماً توطئة للتعايش والاندماج مع رموزه وأفواجه القادمة؟ أم تسعى هذه الجامعات لإيجاد كوادر إعلامية عولمية ذات ذاكرة وطنية مطموسة ومشوهة تدين بالتبعية والولاء للخارج ولا تملك المعرفة الصحيحة والوعى الوطنى والإرادة لتجديد الإعلام العربى واستنهاضه؟!

الأهرام ٢٢ مايو ٢٠٠٨

25 ازدواجية القيم

دخل الأستاذ إلى القاعة منتفخ الأوداج، مزهوًا بعلمه، والتفاف الطلاب حوله، وبدأ المحاضرة ببعض المداعبات التي تعود عليها مع طلابه، ثم انخرط في خطبة حنجورية عن كرامة الوطن وسيادته ومسئوليات الشباب في الحفاظ على منظومة القيم الوطنية والأخلاقية، ضمانًا لحصولهم على حقوقهم في العطاء، والمشاركة والإبداع، ثم ما لبث يحصي العديد من الأمثلة على الفساد الذي جعل الناس يتهاونون في الدفاع عن حقوقهم، ويبررون عجزهم عن التصدي للسفهاء والمفسدين تارة تحت شعار «الأنامالية»، وتارة أخرى بالصراخ العصبي، وتارة ثالثة بـ«الانزواء»، والصمت مع الاستنكار بينهم وبين أنفسهم أو مع المقربين منهم لأشكال الفساد التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من طبائع الأمور لدى الغالبية العظمى من البشر المحيطين بهم، فالدروس الخصوصية التي يجرمها قانون تنظيم الجامعات أصبحت علنية، بل يتم الاتفاق عليها تحت نافذة رئيس الجامعة، وفي القاعات المجاورة لمكتبه، والتعليم المفتوح الذي يدر ملايين الجنيهات لا ندري أين تذهب، وعندما نطالب بحقوقنا في معرفة مصير هذه الملايين يشيحون وجوههم ويتهموننا بأننا مشاغبون، ونرد عليهم بأنهم متواطئون وعليهم أن يبرأوا ذمتهم، ويلتزمون بمبدأ الشفافية، كذلك الإعلانات التي ينشرها بعض الأساتذة في الصحف عن استعداهم لإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه لغير القادرين علميًا، ولكنهم قادرون ماليًا .. أي عار يمكن أن يلحق بكرامة الجامعة وأساتذتها وهم

يرون أن العلم أصبح سلعة رخيصة تباع جهارًا نهارًا!! هنا صاحت طالبة محجبة في انفعال غير متوقع وقالت : «يا أستاذ كفاك أمثلة مؤسفة ، هناك مستشفى الطلبة الذي يمتلئ بالاختلاسات والإهمال وسوء معاملة الطلاب المرضى ، وهناك المدينة الجامعية مخزن الرشاوي والشللية والانتهاكات العلمية والأخلاقية . إننا لم نعد قادرين على سماع المزيد من المفاسد والمخالفات في الجامعة والمجتمع ، ونحن في حاجة إلى معرفة الحل وماذا نفعل كأساتذة وطلاب ومواطنين؟».

أجاب الأستاذ بهدوء وثبات : «عليكم أن تتحرروا من الخوف الذي يعشش في نفوسكم ، ويشل إرادتكم ، ويغشي عيونكم ، ويسرق منكم رؤية الطريق الصحيح » . انتهت المحاضرة وانضم الأستاذ إلى زملائه في إحدى اللجان التي تقرر تشكيلها للفصل في قضية تسريب الامتحانات من جانب إحدى الطالبات المعتادة على تلقي دروس خصوصية لدى بعض الأساتذة ، التي يشغل والدها موقعًا وظيفيًا سياديًا في المجتمع ، وأعطى الأستاذ صوته لمصلحة الطالبة خوفًا من أبيها الذي سبق أن تسبب في تعطيل ترقيته واضطراره إلى مغادرة الوطن عدة سنوات .. تصوروا !

الأهرام – ٢٠/ ٧/ ٢٠١٠



الفصل الخامس

المسكوت عنه
في صعيد مصر





1 هذا الزمن الجميل

ما أن تميل الشمس للمغيب حتى تتوافد مواكب الفتية والفتيات بملابسهم الزاهية يحملون فوق رؤوسهم الصوانى الكبيرة المغطاة بفوط بيضاء أو مزركشة ممتلئة بالدجاج والحمام واللحوم وطواجن البامية والملوخية وأرغفة العيش الشمسى تتقدمهم مجموعات أخرى من الشباب يحملون دوارق قمر الدين والليمونادة والتمر هندى والخروب وصوانى صغيرة مملوءة بالتمر والبلح الصعيدى.

تتجه المواكب صوب موقع يتوسط القرية اسمه «الرهبة» ثم يتجمع الرجال يحملون المسابح فى أيديهم ويتلفح بعضهم بالشيلان الهندية ذات الألوان المشرقة ويتدثر بعضهم الآخر بثياب بلدية متواضعة وعلى الجانب الآخر تتجمع النسوة بعضهن يلبسن الملابس الحريرية الفضفاضة ويغطين وجوههن بالبيشة السوداء وأغلبهن من النساء الأخريات اللواتى ينتمون إلى الفئات الكادحة من الفلاحات والرقيق السود سافرات الوجوه يتحركن بحرية وتقمن بالتخديم على الفريقين من الرجال والنساء وقبل أن يصعد المؤذن إلى قمة الجامع الصغير تنطلق الزغاريد مرحبة بقدوم قسيس القرية متأبطا ذراع شيخ مشايخ القرية ويحيط بهم كبار الأعيان من المسلمين والأقباط ثم يبدأ الإفطار على شرف عائلة الضبع كبرى العائلات القبطية فى قريتنا ويتعالى أصوات الصبية الصغار وتختلط بمناقشات وجدل الكبار حول أمور الدنيا والحياة المشتركة على هذه الأرض الطيبة يتحدثون عن المحاصيل

الزراعية ومشاكل الري ومشروعات الزواج والمصاهرة والمدرسة الجديدة التى قرروا أن ينشئوها على نفقتهم الخاصة لأن المدرسة الحكومية الوحيدة فى القرية لم تعد تكفى لتعليم أبناء وبنات القرية ثم يتبادلون النكات والقفشات مع ضابط النقطة ومهندس الرى الوافد من قرية أخرى وتنهمك النسوة فى أحاديث جانبية واتفاقات خاصة بتقسيم الأيام بينهم للفوز بأم أحمد وفريقها النشط من الفتيات المشهود لهن بالكفاءة فى إعداد الكحك والغريبة ولوازم العيد والاتفاق مع كارمانز الخياطة الماهرة للبدء فى حياكة ثياب العيد وهكذا كانت تتواصل حلقات الود وتتلاقى النفوس الصافية فى سلاسة وعذوبة وإخاء إنسانى فريد.. هكذا كنا نعيش أيام رمضان فى قريتى الزرابى فى جنوب أسيوط لم أعرف يوما ما هو الفرق بين عماتى وخالاتى الحقيقيات زينب وأسماء وحفصة وحفيظة وحميدة وزكية وفوزية وبين خالاتى وعماتى القبطيات شفيقة وجبونة ونجمة ولولو وكنا نتقاسم حوائط المنازل وأسرار البيوت كما كنا نتقاسم الأفراح والأحزان.

كان أهل العروس مسلمين وأقباط يصرون على أن تخرج ابنتهم من بيت الجار مسلماً أو قبطياً يزفونها إلى بيت العريس.

كان جدى يمضى أمتع أوقاته فى بيت قسيس القرية «أبونا قزمان» و«أبونا مرقص» وكنت دائماً أراهم فى مندرة جدى حتى ساعات متأخرة من الليل يتمازحون وتعلو أصوات ضحكاتهم الصافية العذبة وكانت جدتى لا تجد شقيقة لها أقرب من جدتى الأخرى القبطية أسماء تودعها أسرارها وتتشاور معها فى أدق شئون وخفايا حياتها ولا تتخذ قراراً إلا بمشورتها.. وعندما انتقلت الأسرة فى أوائل القرن إلى القاهرة شاءت الظروف أن يكون جيرانهم عائلة شكر الله بك القبطى الشهم الذى أعطى له جدى توكيلاً عاماً كى يتولى نيابة عنه شئون الأسرة

أثناء غيابه وكانت زوجته «الست أم شاكر» أصدق صديقات جدتى وخير تعويض لها عن أحبابها الذين تركتهم فى القرية.

أين هذا الزمن الجميل؟ لقد تداعت هذه الذكريات وأنا أتناول إفطارى السنوى لدى إحدى الصديقات الغاليات وداد مترى التى تحرص منذ سنوات طويلة على دعوة جميع أصدقائها وصديقاتها لتناول الإفطار فى اليوم الثالث من رمضان كل عام وقد أصبح هذا اليوم مقدساً لدينا نحرص على حضوره مهما كانت ظروف المرض أو صعوبة المواصلات أو مشكلات البنين والبنات وكبار السن فى أسرنا وهكذا تظل وداد مترى نموذجاً أصيلاً تعكس عراقة ونبل هذا الشعب الطيب الذى ننتمى إليه جميعاً مسلمون وأقباط.

صوت الجامعة – ٢٨ نوفمبر ٢٠٠١

2 التوأمان

كان التوأمان يتشابهون فى الملامح، عيون واسعة يشع منها الذكاء والطيبة الممزوجة بالانكسار، وأنف مفرطح وسمرة مشوبة باحمرار داكن وقامة فارهة وملابس شديدة التواضع وحيوية ذهنية غير مسبوقة وكانت هناك مباراة صامتة بينهم وبين حفيد العمدة العفى، ذى الرقبة القصيرة والتى يزيدها الامتلاء قصراً، ودائماً يأتى بملابس جديدة وزاهية الألوان هذا الصبى كان جده يمتلك نصف القرية أرضاً وبشراً ونفوذاً وكان النصف الآخر من سكان القرية يتحاشونه وإن كانوا لا يخشونه.

كان الصبى يريد أن يستحوذ على كل شيء: التفوق الدراسى رغم قدراته العقلية المتواضعة، الثراء والنفوذ، وأراد أن يستقطب هذين الأخوين ولم يفلح رغم المغريات التى كان يقدمها لهما. وفى يوم من الأيام لاحظ المدرس أن أحدهما كان يأتى. والآخر يغيب وفى اليوم التالى كان الغائب يحضر، ويغيب الذى كان حاضراً بالأمس وعندما كان المدرس يسأل أحدهما عن سبب غياب الآخر كانت الإجابة أنه مريض وأخيراً قرر المدرس أن يختلى بأحدهما وشدد فى الأسئلة حتى انتزع منه الاعتراف وعرف سر التناوب فى الغياب. وإنهما لا يملكان سوى حذاء واحد يتبادلانه ولذلك كان لابد أن يحضر كل منهما يوماً ويغيب فى اليوم التالى كى يعطى الفرصة لشقيقه!!

جريدة الأهالى ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

3 الجدة صفصافة

صعدت جدتى «صفصافة» الكفيفة على سطح المنزل عبر السلالم القديمة قدم لبيت العتيق والذى شهد مولد وحياة ورحيل سبعة أجيال وأخذت تتحسس رغفة العيش الشمسى المرصوصة فوق الردة على المقارص الطينية كى تتأكد من نها خمرت وأصبحت صالحة للخبيز وبعد أن تممت على جميع رصات العيش لتفتت إلى «مغربية» الشغالة وسألتها هل الفرن حميت.. ولما أجابتها بالإيجاب ذهبت إلى مكان الفرن للتأكد بنفسها وهى لا تبعد سوى عدة أمتار عن مكان لعيش المرصوص فى الشمس ويظللها خص وتضم إلى جانب الفرن كانونا صغيراً يتكوم عند فوهتها السفلية أكوام الوقيد.. اقتربت الجدة «صفصافة» من الفوهة لعلوية للفرن ومدت يدها داخل الفرن بحذر ثم نادت على «مغربية» وطالبتها بوضع المزيد من الوقيد والانتظار حتى تحمى الفرن ثم تناديها لأنها نازلة إلى الرواق لوسطانى لإتمام عجين العايش هبطت جدتى ببطء فوق السلالم التى تتأرجح تحت أقدامها وعرجت على الكانون الكبير الذى يتصدر الفسحة ورفعت غطاء الحلة بطرف طرحتها ثم أشاحت بوجهها تحاشياً للنار الكثيف المتصاعد عن سليقة اللحم وأخرجت قطعة لحم ووضعتها فى البرام ثم جستها بأصابعها وعندما تأكدت أنها استوت، أحضرت ٣ مراجيس متوسطة الحجم ووضعت ٤ قطع لحم فى كل مرجسية ومغرفة سليفة مع قليل من التقلية بنية اللون ونادت على مغربية كى ترصهم فوق الصينية النحاس الكبيرة وتحملهم إلى سطح المنزل لإتمام طهيهم فى

الفرن بعد الانتهاء من الخبيز.

كانت الجدة صفصافة تحفظ كل تفاصيل البيت الكبير بصعوداته وهبوطاته «بصاعده وبهابطه» تعرف مكان الزير ومحل الأدب وعدد السلالم بدون درابزين والسلالم بدرابزين والسلالم الصغيرة فى الوصلات بين الغرفة القبلية والرواق البحرى وكانت تقوم يومياً بقياس الفراخ كى تتأكد من وجود بيض كما كانت تقوم بتنظيف الزير وتبخيرها مرتين فى الأسبوع.

كانت تعد الشاى وتقدمه مع بعض القراقيش للشيخ خالد مقرئ الأسرة الذى كان يأتى يومياً بعد العصر لقراءة بعض آيات الذكر الحكيم وكان تقوم بتخزين الكشك والبلح الصعيدى فى أزيار خاصة داخل الخزانة الجوانية كما كانت تقوم بتنظيف بنية الحمام وتبخيرها كل أسبوع واعتدنا أن نأكل من يديها الحمام بالفريك كل يوم اثنين وكانت مغربية تساعدها فى نتف ريشه ولكنها كانت تتأكد بنفسها من إخراج جميع مكونات أحشائه وتقوم بتطهير مكانها بالدقيق والملح وتغسلها عدة مرات قبل حشوها بالفريك.

هذه بعض لمحات من حياة جدتى صفصافة التى أصيبت فى بصرها عندما كانت طفلة إثر إصابتها بمرض الجدرى وعاشت طوال حياتها حبيسة الجدران الأربعة فى البيت الكبير وكانت تتواصل مع العالم الخارجى من خلال عيون أبناء وأحفاد شقيقتها الجدة آمنة.

وللحديث بقية.

الدوار - مارس - ابريل ٢٠٠٣

4 هدية خالتي بخيته

كنت فى إحدى زياراتى الدورية لقريتى الزرابى ودائماً أبدأ جولاتى بالقرية بزيارة الكنيسة والاطمئنان على الأب قزمان راعى الكنيسة المصرية، وهى من أقدم الكنائس فى الجبل الغربى ثم الأب مرقص أو الأب إبراهيم فى الكنيسة الكاثوليكية، ثم أطوف بالمدارس الابتدائية والإعدادية فالثانوية المشتركة، وفى المساء تبدأ زيارتى للأهل فى منازلهم وأستهل صباح اليوم التالى بزيارة نقطة الشرطة والجمعية الزراعية وبنك القرية، وفى إحدى هذه الزيارات وكانت عقب فوز الكاتب الكبير «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل كنت أقف فى ساحة السوق وتسمى (الرهبة) لتبادل الدردشة مع بعض المدرسات أثناء عودتهن إلى منازلهن فإذا بى ألحظ إحدى النساء تلبس شجة سوداء باهتة اللون تعود إلى الخلف، وقد أخفت نصف وجهها بطرف الشجة وتناديني الدكتورة، فتركت الجمع الذى كنت أتحدث إليه واتجهت إليها مرحبة (أهلاً وسهلاً يا خالة، خير تحت أمرك) نظرت إلىّ بعيون كليلة وانهمكت فى إخراج صرة صغيرة من سيالتها وأخذت تفك الصرة بمثابرة، وأنا أقول لها (يا خالة، قولى لى إنتى عايزة إيه وأنا تحت أمرك. ولا يمكن حاقبل منك مليم واحد عايزة دوا أو جلابيه أو طرحه، قولى وحياة أبوكى) لم تلتفت لكلامى وبعد أن فكت ٧ عقدات أخرجت عدة أوراق مالية بالية من فئة القروش العشرة التى انقرضت منذ زمن طويل وعدتهم أمامى ٦٠ قرشاً، (والنبى يا دكتورة إذا كنتو حتجيبوا هدية للراجل اللى بيكتب اللى خد الجايزة الكبيرة جوى).

فتساءلت. تقصدى مين؟، قالت اسمه نديب مش فاكره باجى اسمه.. هل تقصدين نجيب محفوظ هتفت بابتسامة أضاءت وجهها المكدود قائلة أيوه (هو والنبى يا دكتورة خدى منى الستين قرش دول وحطيها على فلوسكم علشان الهدية دى حاجة متواضعة من خالتك بخيتة علشان الراجل ده رفع راسنا فى بلاد بره) لا تعليق.

هذه واحدة من النساء الفقيرات فى صعيد مصر.

جريدة الأهالى – ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

5 طفل من سوهاج

جاءت المرأة تجر خلفها طفلتها البالغة من العمر خمس سنوات، وتحمل الأخرى التى لم يكتمل بعد عامها الأول، والتى لم تر والدها لأنه رحل قبل مولدها بعدة أشهر. الولد «عباس» الذى لم يبلغ بعد سنواته العشر، بدأ يزوغ من المدرسة، ويذهب إلى الغيط مع رفاقه لجمع اللطع، ولما علمت الأم نهرته، وذهبت إلى ناظر المدرسة وطلبت منه التشديد على عباس، لأنه يتيم الأب ويحتاج إلى الحزم.

وعندما فشلت محاولاتها جاءت إلى الدكتورة كى تستشيرها فى حالة عباس. أرسلت على الفور لاستدعاء الولد كى أسمع منه خصوصاً وأنه كان من أذكى أطفال القرية، ومعروف بين زملائه بالالتزام وحب العلم، فماذا حدث له؟ جلس الصبى يسرد قصته: إنه يتقاضى يومياً ثلاثة جنيهات نظير العمل فى الغيط، بينما لا تستطيع أمه أن تعطيه مصروفاً يومياً أكثر من عشرة قروش. والمدرسون لا يرحمونه لأنه شاطر ومنظم وكراريسه مرتبة ونظيفة ويؤدى واجباته المدرسية بانتظام، فهم يطلبون منه أن يشترك معهم فى الدروس الخصوصية لمجموعات التقوية ليس كتلميذ ولكن كمساعد لهم يشرح لزملائه الدروس ويراجعها معهم، ويتابع كراريسهم، وعندما أبدى تذمره عاقبوه، ولما اشتكى همه لبعض أقاربه من الصبية الذين يكبرونه فى العمر، نصحوه بالتزويغ والذهاب معهم إلى الغيط.. ولما علم المدرسون، اتفقوا معه على أن يتركوه، ولا يدققوا معه عند التزويغ، مقابل أن يقتسم معهم اليومية التى يحصل عليها.

لقد تابعت اعترافات عباس بدهشة ممزوجة بالأسى ثم غرقت فى دوامة من الحيرة، ولعنت الأيام التى أتت لنا بمسئولين عن التعليم، سماسرة قبل أن يكونوا مربين جعلوا كل شيء حتى العلم وبراءة الأطفال سلعة قابلة للبيع والشراء!

جريدة الأهالى – ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

6 زيارة لقرية حزينة

كانت زيارتي لقريتى فى عيد الأضحى، تختلف عن كل ما سبقها من زيارات سواء فى الأعياد، أو عقب كارثة السيول أو تجربة الانتخابات النيابية أو فترات الإرهاب العصيبة، وأيضاً فى الأفراح، والمآتم العائلية.

كثفت هذه الزيارة أحزان الفقر والفجيعة ، ولوعة الأسى، على ضحايا القطار المشئوم ، كما جددت الحزن الجماعى العميق على أحوال الوطن ، وما آل إليه من اهمال المسئولين ، وفساد الحكم المحلى، وتجبر واستعلاء أولى الأمر من حكام العاصمة ، وسلاطينها، فتحت المنادر لتلقى العزاء، بدلا من تهانى العيد.

هرول رجال القرية وشبابها إلى موقع الحادث للتعرف على بقايا الجثث المتفحمة . وسارع البعض الآخر إلى المستشفيات للتعرف على المصابين وانكفأ الآخرون على أحزانهم، وسارعت النسوة إلى نصب المعادات للندب واللطم ، وبدأت ترتفع أصوات المعددات حول القبور، وفى الساحات الصغيرة يجترون أحزان الماضى، ومآسى الحاضر، وسارع المقرئون والفقهاء إلى المساجد الصغيرة ،لأداء صلاة الغائب ،وتجمعت فلول الأطفال اليتامى بثيابهم القديمة الرثة يبكون تارة ويلهون تارة ..يسيطر عليهم إحساس شامل بالتيه ، والضياع يرددون الأغانى الحزينة ويرسمون للحزن الصعيدى مجرى جديداً يضيفونه إلى دفتر الحزن الفرعونى والقبطى والإسلامى. تراكمات من الأهوال والنساء الملتاعات بعضهن حوامل ويحملن أطفالا رضعا، ويجررن آخرين والأمهات الثكالى ينتظرن عودة الابن

الوحيد، والعائل لأسر ضمرت شرايين الحياة بين جدران بيوتها وتحجرت العيون ، وجفت المآقى، حتى الدمع أصبح شحيحا . يا للرحمة ، يتضرعون إلى السماء كى ترحمهم ببعض قطرات الدمع كى يفرجون عن كربهم .

يصيح صبى فى العاشرة : «الصعيد طول عمره ملطشة ، قتلوا أخويا ظلما فى جامعة أسيوط بسبب الإرهاب وأبويا مات فى السيول . وأخويا اللى فاضل سافر مصر يدور على شغل وبعت لنا جوابا يقول إنه جاى على العيد، ومعاه كسوة أخواتى. يا رحمن ارحم عبيدك».

قمت بجولة سريعة شملت القرى المجاورة لتقديم واجب العزاء والمواساة . كانت جميع حواسى فى حالة يقظة، تتجاوز حالة الحزن الشامل ، الذى لف الجميع وارتسم على الوجوه الصارمة، وظهر فى ارتعاشات الأيدى والأكتاف . تذكرت كلمة جدتى (أن الرجالة يحزنون بأكتافهم) ، وبالفعل وجدت أكتاف الرجال قد انهدلت وقد أذل الحزن أعناقهم ، فبدت الرؤوس مطأطأة، والعيون يملؤها مزيج عجيب من القهر، والحزن القديم، الذى يتجدد كلما استجدت مصيبة من مصائب القدر. ينتحى بى أحدهم جانبا ويقول فى صوت خافت : «نحن نؤمن بالقضاء والقدر، وأن الأعمار بيد الله. ولكن هذه الكارثة ليست قضاء وقدراً. إنها إهمال، واحتقار للصعايدة ، واستهتار بالبنى آدميين . احنا مش مصريين ذى الباقين؛ ليه الحكومة ما تفتكرناش غير بالمصايب، والإهانات عايزين يلغونا من الخريطة ما بيقدروش. احنا اللى أسسنا مصر، وطلع منا كل العباقره اللى رفعوا رأس البلد فى كل مكان ».

فى اليوم التالى للفجيعة ، تجولت بين منادر الرجال وجلسات النساء كان الرجال يجلسون فوق المصاطب خارج المنادر، وفوق الدكك الخشبية المفروشة بالأكلمة

المحلية، داخل المنادر، والنساء كن يفرشن الأرض ويستندن إلى المساند القطنية التقليدية ويبدأن فى التعديد لمدة ثلاثة أرباع الساعة ثم تبدأ إذاعة القرآن الكريم أو تقوم المعددة بسرد أشعار مأثورات الحزن المتوارثة.

استمعت إلى أحاديث الرجال .. كانوا يتحدثون عن مصير العائلات التى فقدت عائلها، سواء كان الأب أو بعض الأبناء ووعد بعض الميسورين منهم على التكفل بمصاريف المدارس والتعليم للأطفال الذين فقدوا ذويهم .

فوجئت برجل مسن وقور يدخل المندرة ، فى حالة ثورة شديدة ويوجه الكلام لى (يا دكتورة اللى ماتوا الله يرحمهم ، ويصبرنا على فراقهم لكن فين جثثهم علشان نعرف لهم قبر نزوره ، ونعمل إيه فى المفقودين ونصرف لهم معاش أو إعانة إزاى ومنين؟ احنا يا دوبك بنستر نفسينا.. فين الحكومة أو فين الفلوس والإعانات اللى نازلة عليهم انت ناسيه إيه اللى حصل فى كارثة السيول؟).

تذكرت على الفور ماذا حدث عندما أخذت سيارة لورى مملوءة بالمعونات من الأصدقاء وأهل الخير وتوجهت بها إلى القرى التى أضيرت من السيول ومنها قريتى ووجدت أوضاعا يندى لها الجبين فقد كتب المسئولون فى الوحدة المحلية أسماء أقاربهم الميسورين بدلا من أسماء المنكوبين ، وحصلوا على المعونات ووجدت بعض الفقراء جالسين بجوار بيوتهم التى تهدمت بفعل السيول يرفضون مغادرتها خشية أن تأخذها الحكومة ولا تعوضهم عنها وعلمت من أقاربى أن البطاطين الجديدة التى قدمتها الدول الصديقة لتعويض المنكوبين قد تم الاستيلاء عليها ووزعت عليهم بطاطين قديمة .

الخوف يسيطر على أقارب وأهالى ضحايا القطار المشئوم خشية الألاعيب، وحرمان الفقراء مرتين : الأولى من ذويهم الذين فقدوهم ، والثانية من التعويضات

التى تقررت لهم . كيف نضمن وصول التعويضات إلى مستحقيها دون المرور بجيش الفساد المتمثل فى الموظفين المحليين ، الذين يفتقرون إلى الأمانة والنزاهة ويستحلون لأنفسهم تعويضات الضحايا.

لاحظت أن بيوت القرية نظيفة من الداخل ولكن تتراكم أمام عتباتها أكوام القمامة وتئن شوارع القرية وأزقتها من روث البهائم والنفايات وقد أدهشنى انكفاء كل أسرة على فضائها داخل المنزل وكأن الفضاء الخارجى لا يخصها . فليس هناك اهتمام عام بنظافة القرية التى تضمهم جميعا . على الفور قفز إلى ذاكرتى هذا المشهد المتكرر فى شوارع القاهرة المكتظة بالبشر، وبأكوام القمامة واقتصار النظافة على البيوت من الداخل هل هى ظاهرة قومية فى ريف مصر وحضرها؟!

أثناء مرورى بالبنادر قابلت فى السوق بعض شباب القرية الذين يعملون فى القاهرة. استوقفونى ودار الحديث عن القطارات المخصصة لأهالى الصعيد وهل تصلح للاستخدام الآدمى؟

قال أحدهم إن نصيب الصعيد ٧٧١ قطارا من جملة القطارات فى مصر، ٨٠٪ منها أحيل إلى الاستيداع ولكن المسئولين فى السكة الحديد استخسروها فقرروا تخصيصها للصعايدة .

عربات الدرجة الثالثة يجب إعدامها لأن الحيوانات سترفض استخدامها فما بالك بالبشر، تذكرت الرحلة السنوية التى كنا نقوم بها إلى قريتى لقضاء الأجازة الصيفية وكيف كانت القطارات تحمل لنا البهجة بدواوينها الجميلة وكراسيها الجلدية النظيفة وصور الآثار تملأ الجدران وكان منظر النيل والخضرة على جانبى الطريق يزيد الرحلة بهجة ، وامتاعا.

والآن ندفع ٨ أضعاف ما كنا ندفعه للدرجة الأولى والثانية والكراسى مخفوسة،

ولم تعد هناك دواوين والمراحيض تثير الغثيان، والأرض تشكو من القذارة والفئران تتنزه فى الطرقات والصراصير تتجول فوق الستائر البالية .

فما بالك بالدرجة الثالثة ، الخالية من المراحيض والحنفيات وطفايات الحريق وسائر مسلسل الامتهان البشرى.

لاحظت فى جولاتى المسائية أن معظم شوارع القرية مظلمة . سألت عن الوحدة المحلية التابعة لوزارة الحكم المحلى والمجلس الشعبى المحلى المنتخب ومسئولياتهم عن نظافة القرية وإنارتها. أخبرونى أن رئيس الوحدة المحلية لص «قرارى» ورغم الشكاوى الكثيرة التى قدموها ضده ، ولكنه مستمر فى موقعه منذ عشرين عاما . لا يتزحزح .. يا الله .. ما يحدث فى العاصمة يتكرر فى الريف، أما المجلس المحلى المنتخب فهو متقاعس، وفاقد للهمة والحماس، ولا يمارس سلطاته ، هل هو فرع لممثلى الصعيد فى مجلس الشعب، أخبرونى أن هناك مخصصات للإنارة تصل إلى ٧٥٠ لمبة كهرباء لإنارة شوارع القرية ولكن الوحدة المحلية لا تستخدم إلا ربع هذه الكمية والباقى يسرق، ويباع وهناك أشياء كثيرة مماثلة . لاشك أن المحليات فى مصر تحتاج إلى هزة، ونفضة قوية لضمان تحسين أوضاع الريف خصوصا فى صعيد مصر. فالموارد متوافرة ولكنها مسروقة من جانب المسئولين فاقدى الضمير والذمة ..

وبالمناسبة أين أجهزة الرقابة مثل الجهاز المركزى للمحاسبات والرقابة الإدارية إننى أعلم أنهما يقومان بدورهما ولكن أين المردود الفعلى لهذا الدور؟

جريدة الأهالى ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

7 حوار على الشاطئ

ينتشر على شواطئ مطروح الأطفال القادمون من جنوب مصر يبيعون الملابس الجاهزة من إنتاج المصانع «فرز ثالث». وقد أثار انتباهى صوت طفل لا يتجاوز العاشرة يلح إلحاحاً موجعاً على سيدة تلبس قناع الاستعلاء المزيف وتتحدث بلهجة خليجية مصرية طالباً منها أن تزيد ثمن البشكير نصف جنيه لكى يوفى ثمنه للمعلم سألته بفضول: من هو المعلم؟ قال (الأستاذ اللى بيأجرنا من بلدنا ويجيبنا هنا ثلاثة أشهر ويسرحنا على البلاج بالبضاعة وفى آخر المدة نرجع إلى بلدنا سوهاج ومعانا مصاريف المدرسة والكسوة «وقرشين» أديهم لأبويا مساعدة فى مصاريف البيت).

سرحت طويلاً فيما قاله هذا الطفل الذى بهتت ملامح طفولته تحت وطأة الفقر والذى يكاد يلقى بأعباء البضاعة لكى يشارك باقى الأطفال اللعب على الشاطئ والنزول إلى البحر. تساءلت: أين قوانين حماية الطفولة وهل تشمل هذا الطفل الفقير وأمثاله أم أنها تقتصر على البيانات الدعائية التى تصدرها المؤتمرات؟. تحدث بائع الإيشاربات موضحاً لى التناقض القائم وهو شاب تجاوز العشرين قال: أنا خريج كلية التجارة جامعة جنوب الوادى وأشتغل حالياً بالتجارة سألته ما المقصود بالتجارة؟

أجاب: أقوم بتأجير جزء من الشاطئ من محافظة مطروح فى إطار المشروع الذى يشاركنى فيه مجموعة من زملائى من خريجى كليات الآداب والحقوق والتجارة

بجامعات الصعيد ويهدف هذا المشروع إلى حل مشكلة البطالة بين الشباب ومشكلة الفقر المنتشر فى الصعيد الذى يعوق معظم الأطفال عن إتمام تعليمهم. ونقوم بإحضار حوالى ٢٠٠ طفل تتراوح أعمارهم بين ١٣ و١٨ عاماً نجمعهم من مختلف قرى سوهاج ونستأجر لهم مكاناً للنوم ونتولى تكلفة سفرهم ومأكلهم وإقامتهم علاوة على تخصيص ١٠٪ حصة لهم من أثمان البضاعة التى يقومون بتسويقها على شواطئ مطروح. وفى نهاية الصيف نعيدهم إلى أهاليهم بعد أن يكونوا قد ادخروا مبلغاً من المال يكفيهم شر المذلة وتسول نفقات تعليمهم وكسوتهم وأقواتهم. ويواصل بائع الإيشاربات حديثه والأسى يكسو ملامحه يقول: إننا نشكو من قسوة الحكومة علينا فقد أصدروا قانوناً يمنع عمالة الأطفال وهذا شيء جيد، ولكن ما هو البديل لهؤلاء الأطفال المعذبين التعساء؟ هل نتركهم للفقر والعجز عن إتمام تعليمهم تنفيذاً لهذا القانون.. هذا القانون قاصر وجائر وبرغم أنه يحمل فى ظاهره الرحمة فإنه يحوى فى باطنه العذاب والمزيد من المعاناة لهؤلاء الأطفال ويجب أن يسعى المسئولون لحل مشاكل الطفل الصعيدى الفقير خصوصاً أن الاهتمام كله منصب على أطفال العاصمة، فهل يستجاب لنداء هؤلاء الأطفال القادمين من صعيد مصر؟!.

الأهرام ٧/ ٩/ ٢٠٠٢

8 الداية

كانت أمى خيرة داية القرية الشهيرة افريقية ضخمة ذات بنيان متين وتطل علينا بوجه يفيض حناناً مع ابتسامة عذبة لا تفارقها. وكان أبناء وبنات القرية يعتبرونها أمهم الثانية لأنها شهدت ولادتهم على يدها. تلقت تدريبها فى مستشفى أسيوط الأميرى وظلت تمارس مهنتها أربعين عاماً وتدرب على يديها بعض الدايات الأقل مهارة. كانت تسكن فى أطراف القرية ويرتفع أمام منزلها شجرة جميز كبيرة كان يسرح تحتها البط والوز والدجاج والماعز الذى كانت تربيه أمى خيرة. كانت تقوم بتوليد النساء الميسورات والفقيرات وكانت تحصل على عشر جنيهات من المرأة الميسورة وتحصل على الدعاء من المرأة الفقيرة إذ كانت تصر على عدم أخذ أى مقابل بل كانت تقوم برعاية الوالدة والمولود لمدة أسبوع تزودهم بالطعام من البيض واللبن والفروج وملابس للصغير دون مقابل.. كانت تحمل «بقجة» تحوى الأدوات الضرورية للولادة «أمواس وقطن وشاش وسبرتو» وكانت تجوب القرية من شرقها إلى غربها ومن قبلى إلى بحرى فى جميع أوقات الليل والنهار حتى الفجر كانت تتولى أجلاس المرأة الوالدة فى وضع القرفصاء وتثبت أقدامها فوق مخدتين إذا كانت ميسورة وفوق قالبين طوب إذا كانت فقيرة وتتعالى أصوات المحيطين من قريبات الوالدة «عينى صغيرك عينى صغيرك» ثم تنطلق الزعاريد عندما تظهر الرأس وحينئذ تقوم أمى خيرة بسحب المولود وتلفه فى بشكير وتضعه فى حجر الجدة. كانت النساء يتلهفون لمعرفة نوع المولد ولد أم بنت وكانت أمى خيرة تشخط

فيهم محذرة من تشتيت انتباهها قائلة «حياة الوالدة قبل المولود يا ناس..» ثم تواصل باقى مهمتها فى الاهتمام بالأم حتى يتم استخراج الخلاص وتصفية الدم المتبقى من الولادة ثم تقوم بتشطيب الوالدة بمياه ساخنة وتلفها وتحملها وتضعها فوق السرير.

ظلت أمى خيرة تمارس هذا الدور ٤٠ سنة ولد على يديها أجيال عديدة من أبناء وبنات القرية الذين أصبحوا فيما بعد آباء وأمهات وقامت معهم بنفس الدور. وكان الأطفال يقومون بزيارتها فى الأعياد يحملون لها الهدايا من الكعك والبسكويت والبلح والقصب والجميز. وكانت موطن أسرار النساء والرجال يذهبون إليها طلباً للنصيحة أو لإخفاء حجج أرض أو بيوت أو استشارة فى تزويج البنات أو بيع أو شراء أرض أو المواشى، كانت مستودعاً أميناً للأسرار والخفايا. وكانت تقوم بتوليد نفسها بمساعدة «بنت رخام» وقد أنجبت ٦ بنات وأولاد. ويوم رحيلها خرجت القرية عن بكرة أبيها لوداعها.

الدوار: أكتوبر – نوفمبر ٢٠٠٣

9 ميراث البنت

بعد دفن الأب وتراجع الحزن جلس الأبناء (ثلاثة أبناء وبنت واحدة) لتقسيم التركة من الأراضى الزراعية والمواشى والبيوت. كان الأب قد كتب للأولاد معظم التركة من الأفدنة والمنازل والأموال وخص الابنة بجزء ضئيل تمثل فى مقبرة ونصف فدان وقدر من المال السائل. تعالت الأصوات واحتدم الخلاف بين الفتاة وأشقائها وتبادلوا الاتهامات وتمزقت العلاقات الأسرية بعد أن أقسم كل منهم ألا يدخل منزل الآخر أو يتبادل معه المودة أو يمنحه الثقة وظل كل منهم يغذى أبناءه بروح الضغينة والشك ضد أبناء الآخر. هذا المشهد الذى يتكرر فى معظم قرى الصعيد أعاد إلى ذاكرتى قصة عمتى التى حرمت من حقها الشرعى فى الميراث ولم تحصل سوى على قدر ضئيل من نصيبها بحجة أن الأرض لا يجب أن تخرج من زمام العائلة إلى عائلة أخرى. ورغم انتشار التعليم بين العديد من الأجيال من أبناء وبنات الصعيد واقتصار الزراعة على متوسطى التعليم والأميين وانفتاح مجالات عديدة للعمل فى مختلف المهن إلا أن كل ذلك لم يغير من القيم الراسخة للمجتمع الزراعى التقليدى. فى سوهاج طلب منى بعض الأصدقاء التدخل لإقناع بعض الوجهاء من أبناء طهطا وجرجا وطما وجهينة بضرورة منح شقيقاتهم حقوقهن فى ميراث آبائهم من الأراضى الزراعية نظموا لنا عدة جلسات فى منادرهم وظللت بضعة ساعات أنصت باهتمام وصبر لمراوغاتهم وتحايلهم على القانون والشرع رغم أنهم كانوا يضمون بين صفوفهم المستشار والطبيب والمعلم وفشلت فى إقناعهم

بضرورة إنصاف شقيقاتهم وإزالة الغبن عنهن وحمايتهن من الإحساس بالظلم الذى يولد الحقد والإحباط.

وفى قنا واجهت نفس المشكلة فى فرشوط ونجع حمادى وأبو تشت وأرمنت ودشنا حيث تنقلت بين الدواوير والمضايف واستمعت إلى شكاوى النساء داخل الأروقة الرحبة فى البيوتات القديمة وتكرر الموضوع فى قرى أسيوط الحوانكة والزرابى ودير الجنادلة والمشايعة والبلايزة وأبو خرص حيث فوجئت بتصنيفات غريبة للمرأة التى تجرؤ على مطالبة أشقائها بنصيبها فى الأرض إذ يعتبرونها مشاغبة ومارقة ونكدية وحقودة والمفروض أن تكون طيبة أى مستسلمة وحنونة أى لا ترفع عينها فى وجه أخوتها الذكور وعليها أن ترضى بما يجودون به من كميات محدودة من الفريك والسمسم ويكفى أن يظل بيت أبوها مفتوحاً لها فى أى وقت سواء فى حالة غضبها من زوجها أو مرضها أو للزيارات المعتادة. لقد آمنت كثيراً بأن منظومة القيم والتقاليد فى الصعيد أقوى مائة مرة من تأثير التعليم أو الثقافة أو تعاليم الدين أو التشريعات القانونية. لقد رأيت قيم العدل والاستنارة والإنصاف والأمانة تتراجع أمام تغلغل قيم القبلية وسطوة الأنانية الذكورية وشعرت بالأسى والحزن ولكن سرعان ما أفقت من دوامة الأحزان وأدركت أن مواجهة هذه السلبيات التى تنخر فى نسيج حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية والعائلية يتطلب ما هو أكثر من التشريعات والقوانين إذ لابد من شحذ الإرادة الجماعية للمفكرين والمستنيرين من رجال الدين وعلماء الاجتماع ونشطاء حقوق الإنسان للتعاون من أجل تفعيل الحق وإنصاف الفتاة الصعيدية وتأكيد مشروعية حقها فى الميراث فى الأراضى الزراعية أسوة بأشقائها الرجال.

الدوار: ديسمبر ٢٠٠٣ – يناير ٢٠٠٤

10 عندما ينتصر صوت العقل

زوجوها فى سن الرابعة عشر من أحد شيوخ القرية وكان قد قارب الستين وينتمى إلى عائلة أخرى وقد توفيت زوجته وتركت له ثلاثة أولاد بلغوا سن الرجولة وفتاتين على وش جواز أنجبت ولدين وحملت بالثالث ثم رحل زوجها بعد عدة شهور أنجبت بنتاً وأصرت على أن تكون ملابسها سوداء حداداً على والدها ولم تسمع لنصائح أهلها.

توفيت الطفلة بعد عامين بسبب سوء معاملة الأم التى اعتبرتها وش شؤم لأنها سرقت روح أبيها. كبر الولدان وانخرطا فى رعاية الأرض والبهايم وذات يوم غابت عنها الشمس، جاء الخفير كى يخبرها بأن ابنها البكر وجدوه مقتولاً فى الغيط، خرجت حافية تولول وخلفها نساء العائلة وأقسمت بأن تلقى بنفسها فى البئر منعوها بقوة وأحضروا لها أحد مشايخ القرية كى يقرأ على رأسها بعض الآيات القرآنية لتهدئ من روعها وينزل السكينة فى قلبها، علمت فيها بعد أن ابنها راح ضحية الشهامة دفاعاً عن أرض خاله التى كان يحرسها وكانت مطمعاً للعمدة الذى استحوذ زورا على أخصب الأراضى الزراعية بالقرية، وقد أمر العمدة رجاله بأن يتخلصوا من هذا الفتى العنيد وقد تم له ما أراد التف رجال العائلة حول الابن الباقى ونصحوه بالتريث والإنصات لصوت العقل ولم تهدأ الأم الثكلى إلا بعد أن أقسم لها الابن على المصحف أمام الرجال بأنه سيفوض أمر القصاص إلى الله المنتقم الجبار وتعهد لأمه بأنه سيتفرغ لعبادة الله، حيث انضم إلى إحدى الجماعات الصوفية

وانتظم فى حضور احتفالاتها السنوية ثم تزوج وأنجب سبعة أولاد وبنتا وعندما رحلت زوجته رفض أن يتزوج مرة أخرى وعكف على تربية أولاده حتى تخرجوا جميعهم فى جامعة أسيوط وجاء دورهم، كونوا أسراً جديدة وأنجبوا أطفالاً كثر امتلأ بهم الدوار صخباً وبهجة ولأول مرة أرقب فى عينية نظرة الرضا وهو جالس وسط أحفاده يحكى لى قصة مشواره الطويل الذى انتصر فيه صوت العقل على روح الثأر والانتقام.

الدوار: أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٤

11 مهني وضحاياه

تضم البوابة ١٢ أسرة من عائلة القمامحة الغربيين الذين يسكنون بالقرب من الجبل الغربى ويفصلهم عنه المقابر ويسكن القمامحه الشرقيون فى شرق البلد... وترتبط الأسر بعلاقات القرابة والمصاهرة وينحدرون من جد واحد هو محمد أبو قميح الذى قدم من النخيلة منذ قرنين واستقر بالزرابى وكون مع أشقائه وأبناء عمومته فرعاً من البدنه الرئيسية فى النخيلة.

وفى أوائل القرن الماضى جاء مهنى الذى ينتمى إلى عائلة الدقايشة التى تقيم فى بحرى البلد ويتميز أهلها بالتمدين والرقى النسبى فى ملبسهم ومأكلهم وأسلوب حياتهم وذلك مقارنة بسائر عائلات القرية جاء مهنى وأقام منزلاً ضخماً وسط عائلة القمامحة بتشجيع من عمته المتزوجة من أحد أعيان عائلة القمامحة، ويروى شيوخ الأسرة أن الشاب مهنى وكان أمياً يمتلك وجهاً أبيض وتجمع ملامحه بين البراءة والسذاجة وقد رحب به آل أبو زيد حيث زوجوه أجمل فتيات الأسرة واسمها بيهة مكثت معه عدة سنوات أنجبت خلالها طفلين توفيا قبل إتمامهما العام الأول ثم أصيبت بمرض غامض وتوفيت فى عز شبابها، وجاء مهنى يبكى وجلس تحت أقدام عميدة العائلة الحاجة «نقطة» وأعرب لها عن خوفه من البقاء وحيداً، أو العودة إلى أقاربه الدقايشة الذين سيفرضون عليه أن يتزوج من بناتهم وهو لن يستطيع أن يتحمل طباعهم وغطرستهم واستعلاء نسائهم ورجاها أن توافق على زواجه من ابنتها الوسطى هانم لأن الكبيرة آمنة كانت قد تزوجت من ابن عمها

فاهم أفندى وذهبت معه إلى مصر. ترددت الحاجة «نقطة» وبعد التشاور مع أخوالها فى عائلة الحساسنة وافقت على زواج ابنتها هانم التى كانت تتميز بقوام سمهرى وعيون خضراء وشعر أسود يصل إلى منتصف ظهرها وقد عرفت بشهامتها ومساعدتها للأقارب والجيران، أقاموا لها عرساً بهيجاً يليق بالأسرتين فى ذلك الزمان وانتقلت إلى منزل الزوجية الذى لم يكن بعيداً عن منزل أبيها سوى خطوات معدودة.. مكثت مع زوجها مهنى سنوات قليلة أنجبت خلالها طفلين أو ثلاثة عاش منهم الصبى برعى ثم توفيت بمرض غامض واحتضنت الجدة «نقطة» حفيدها اليتيم عدة سنوات وجاء مهنى للمرة الثانية يرجوها بإلحاح أن يزوجوه كى يعمر البيت الذى خرب بعد وفاة زوجته الغالية هانم، كانت الضحية هذه المرة تفيدة الحفيدة الكبرى للحاجة «نقطة» وكانت من أجمل فتيات الأسرة وتلقت تعليمها وتربيتها فى مصر، تردد الأب فهمى بك المهندس المقاول الذى عرف بأعماله الخيرية وساهم فى بناء العديد من المشاريع من أبو سنبل إلى الإسكندرية وكان يحرص على تشغيل أبناء العائلة فى مشروعاته الكثيرة كما كان يصطحب أسرته كل عام لقضاء الأجازة الصيفية بالقرية وتحت إلحاح الحاجة «نقطة» التى كانت تصر على تزويج حفيداتها من شباب القرية من أجل العزوة وافق فهمى بك على تزويج ابنته تفيدة كانوا يعتبرونها درة العائلة جمالاً وعقلاً وحكمة.

تزوجت مهنى الذى يكبرها بثلاثين عاماً وكان الفرق بين عمرها وعمر الابن برعى لا يزيد عن أربعة أعوام عاشت معه سنوات قليلة أنجبت خلالها طفلين توفيا فى عمر الرضاعة ثم أصيبت بمرض غامض ورحلت وسط أحزان عميقة شملت العائلة بأكملها.. وعندما أصر فهمى بك على اصطحاب مهنى إلى مصر لإجراء كشوف طبية تبين أنه مصاب بمرض الزهرى الذى كان ينتقل منه إلى زوجاته

وأبنائه ولم يسلم منه سوى برعى الذى عاش وتزوج إحدى قريباته من عائلة الدقايشة وهكذا حصد مهنى حياة ثلاثة من أجمل وأذكى فتيات العائلة ليست بسبب المرض الخطير الذى كان ينقله إليهن ولكن أيضاً بسبب التقاليد الجائرة وعقلية الحاجة «نقطة» واستسلام فهمى بك لتقاليد ذلك الزمن الغابر.

الدوار: مارس – إبريل ٢٠٠٥

12 ... وانقلبت الأحوال

فى إطار رحلاتى المكوكية إلى محافظات الصعيد لمتابعة تغطية محررى مجلة الدوار لأحوال أهالينا فى الجنوب أتيح ى أن أركب جميع القطارات المتجهة إلى وجه قبلى ما بين فرنسى وأسبانى ومجرى وعديم الهوية كما أتيح لى أن أرصد ما آل إليه حال هذه القطارات والتى أعتبرها مرآة تعكس مدى اهتمام الحكومة المركزية فى العاصمة بأحوال الصعيد وسكانه علاوة على دور الحكم المحلى الغائب فى أغلب الأحيان.

لقد تقلبت الأحوال بهذه القطارات وظلت أسيرة الإهمال الذى تمثل فى أحادية الخط وسوء أحوال السائقين والكمسارية وتدهور المرافق والتى تشمل المقاعد والمراحيض والأرضيات والشبابيك ولا يستثنى من ذلك العربات المكيفة فى الدرجتين الأولى والثانية ناهيك عن الدرجة الثالثة التى لا تصلح أصلاً لمن ينتمون للفصيلة البشرية ونظراً لما يتميز به أهالى الصعيد من صبر على المكاره وتطييب النفس بالأمنيات الوهمية ومحاولة تصديق التصريحات الوردية الصادرة عن الوزراء والمحافظين فقد صبروا طويلاً أملاً فى أن تستيقظ ضمائر صناع القرار سواء فى العاصمة أو فى إدارات الحكم المحلى ولكن صناع القرار كانوا فى واد آخر مشغولين بتثبيت كراسيهم وتدبير وتعظيم مغانمهم خلال فترة وجودهم فى مواقع السلطة ولذلك ظل وضع القطارات يتدهور من سيئ إلى أسوأ إلى أن وقعت حادثة قطر الصعيد الشهيرة عام ٢٠٠١ وخرج منها صناع القرار وكبار المسئولين سالمين غانمين بقدرة قادر وألقيت المسئولية كاملة على الصغار من الموظفين البؤساء

والعمال التعساء الذين توجه إليهم دائماً أصابع الاتهام والتقصير ويدفعون الثمن مثنى وثلاث ورباع وبرغم كارثة القطار وبرغم ارتفاع أسعار التذاكر بصورة غير مسبوقة إذ بلغت عدة أضعاف أقول رغم ذلك تدهورت الأمور وتواكب هذا التدهور مع تصاعد التصريحات الوردية من جانب المسئولين عن هذا القطاع الحيوى قطاع النقل والمواصلات فالخدمة داخل هذه القطارات لا تزال متدنية دورات المياه تطفح بالأوبئة والقذارة وجدران القطارات ونوافذها تضج بالشكوى من الإهمال وغياب النظافة والصيانة وعمال السكة الحديد صامتون يكسوهم الإحباط واليأس وتتحدث نيابة عنهم ملابسهم الرثة وليس غريباً أن نقرأ فى الصحف عن حوادث قطارات الصعيد بصورة أصبحت شبه دورية والسؤال متى تستيقظ ضمائر المسئولين عن قطارات الصعيد سواء الحكوميون أو قطاع الأعمال وهل ننتظر وقوع كوارث جديدة حتى ينتبهوا إلى هذا المرفق الحيوى الذى يربط بين القاهرة ومدن ومحافظات الصعيد حيث يقيم ويعمل وينتج ويسهم فى استمرارية هذا الوطن ما يزيد على ٤٢٪ من سكان مصر المحروسة؟ وإلى متى يظل أهالى الصعيد والمقيمون فيه يعانون من التهميش وإهدار حقوقهم كمواطنين؟

الأهرام مايو ٢٠٠٥

13 انكسار الحلم

منذ طفولتهم المبكرة جمعتهم دوائر اللعب في حواري القرية تشابكت أيديهم عندما كانوا يخوضون في برك المياه التي كانت تفصل بين غيط والدها مأذون القرية والغيطان الأخرى الممتدة عبر قريتهم حتي حدود القرية المجاورة والتي كان والدها العمدة قد اغتصبها زورا من خلال التهديد والتزوير في الأوراق الرسمية وإجبار الدلالين على الغش في قياس الأرض وشرائها بأبخس الأثمان من أصحابها المهددين بالإفلاس وضيق العيش ....كانوا يركضون خلف الحمير والأبقار تملأ صدورهم البهجة وتعكس وجوههم براءة الحياة ورحابتها ، كانوا يجوبون في غيطان الفول والبرسيم والذرة وعندما كان يشتد بهم الجوع كانوا يجلسون علي ضفاف الترع يتبادلون أعواد القصب والفول الحراتي وكانت ضحكاتهم البريئة تملأ فضاءات الحقول يتسابقون في الدوران حول السواقي بعيون مغطاة بالمحارم الصغيرة الملونة وكانوا يعودون إلي منازلهم عند غروب الشمس يتغامزون ويتمايلون وتتعالى أصواتهم بالغناء وأصوات المواويل « يا جريد النخل العالي ميل وارمي السلام » و«يا بهية وخبريني علي اللي قتل ياسين» و «يا وابور الساعة ١٢ يا مقبل على الصعيد .....»و « فجل في الجنينة أخضر وريان بعنا واشترينا حملنا الجمال » .

عشش في قلبه الصغير حب الفتاة الصغيرة رفيقة اللعب والبراءة كان يقول لوالده « لما أكبر حتجوز فاطمة بنت المأذون » كان والده يضحك بسخرية ويرد عليه « بس لما تكبر يحلها ربنا » كبر الفتي وذهب إلى البندر للدراسة أما الفتاة فقد

حجزوها في المنزل حيث تعلمت فنون الطبخ والخبيز وحلب البهائم ورعاية أسرتها الكبيرة فقد كانت أمها تلد في كل عام توأمين حتى بلغ عدد أخواتها ١٤ ولدا وكانت الابنة الوحيدة وسط غابة من الذكور

عندما بلغت عامها الخامس عشر زوجوها لابن عمها بكت طويلا ولكن لم يرحموا دموعها وحاولت أمها إقناعها بأن ابن عمها يحجب أي عريس خارج العيلة ولكن طوفان الذكريات أطاح بصحتها ووقعت فريسة المرض وتأجل العرس عدة شهور وتم زفافها قسرا إلى ابن عمها الذي كان يتميز ببنيته الضعيفة وصوته الذي يشبه أصوات الماعز نفرت منه الفتاة وتمنعت عليه وظل يشكوها لأمها التي بادرت بعرضها علي المشايخ في القرى المجاورة الذين بالغ بعضهم في مطالبهم وقد تراوحت بين الديوك الرومي والخرفان وأقمشة القفاطين الفاخرة أملا في فك العمل المعمول للفتاة ولكن دون جدوى فقد فقدت الفتاة شهيتها للحياة وضمرت روحها وتناقص وزنها إلى الثلث ثم انسحبت في هدوء ورحلت في يوم شتوي عمت غيومه على أرجاء القرية وعلم الفتى الذي كان يتابع أخبارها بحزن وأسى دفين ولكن ظروف الدراسة وجبروت والده منعاه من حقه في الدفاع عن حبه الوحيد خصوصا بعد أن أبلغه شقيقه الأكبر بالنوايا الشريرة للوالد الذي أقسم على حرمانه من الميراث فيما لو بدرت منه أية بادرة تفصح عن رغبته في الاقتران بهذه الفتاة

قرر أن ينتقم لنفسه ولفتاته قاطع أسرته وظل معتكفا في شقته الصغيرة القريبة من الجامعة ولم يقم بزياراته المعتادة للقرية طوال فترة دراسة الجامعة وبعد التخرج من كلية الهندسة قدم طلبا للهجرة إلى إستراليا تاركا الأرض التي احتضنت رفات الحبيبة ووليا ظهره للقلوب القاسية والتقاليد الجائرة التي ظلمته هو وفتاته الراحلة.

الدوار: مايو / يونيه ٢٠٠٥

14 هارون الدلال

في ليلة دهماء وجدوه مقتولا أمام عتبة داره ، تناثرت الأقوال حول أسباب القتل واسم القاتل لم يكن للقتيل خصوم معروفون فهو لم يكن ينتمي إلى أسرة تحمل تاريخا في الثأر ولكنه كان مكروها من الكثيرين خصوصا هؤلاء الذين عانوا من اجترائه على أراضيهم الزراعية بسبب عدم أمانته في أداء وظيفته فقد كان يعمل دلالا يقوم بقياس الأراضي الزراعية وتحديد زمام الملكيات والحيازة ويتحكم في الملفات والدفاتر التي تحوي كافة المعلومات والبيانات الخاصة بالزمام الزراعي للقرية كلها وأسماء مالكي الحيازات ومبادلات ورهون وكان يتقاضى أجورا باهظة ورشاوي خفية من أصحاب الملكيات الكبيرة كي يجور على أراضي الآخرين باقتطاع بعض القراريط لضمها زورا إلى زمام كبار الملاك نظير التمتع بحمايتهم وببعض ما يجودون به من أموال أو مواشي وكان أغلب ضحاياه من النساء والوارثات أو أبناء الأسر التي هجرت القرية وظلت تحتفظ بأطيانها وقد سقط العديد من القتلى عندما اكتشف بعض أبناء القرية الذين شاهدوا عمليات قياس الأرض تعاملاته وأساليبه الملتوية وعندما كانوا يصرون على إعادة القياس عدة مرات كان أهاليهم يعثرون على جثثهم مبعثرة وسط الغيطان في الأيام التالية وقد تكرر هذا الوضع المأسوي وطال العديد من خيرة شباب العائلات وأصبح شائعا في القرية ذهاب أمهات القتلى إلى أضرحة الأولياء والدعاء على هارون الدلال الذي تسبب بافترائه وجوره على أراضيهم في قتل أبنائهم وكانت أصابع الاتهام تتجه

دوما إلى العمدة ورجالاته من الاشقياء المأجورين الذين كانوا يقومون بتصفية أي شاب يعترض على عمليات القياس الظالمة التي كان يقوم بها هارون الدلال كما كانوا يعلنون على الملأ حمايتهم لهذا الهارون مهددين ومتوعدين أي شخص يجرؤ على إعلان احتجاجه على الظلم الذي لحق بكثير من الأسر وأضاع منهم أجزاء من أراضيهم يتم ضمها زورا إلى زمام العمدة وبعض معاونيه وأقاربه ورغم الغموض الذي أحاط بمقتل هارون الدلال إلا أن العديد ممن شاركوا في تشييع جنازته كانوا يهزون رؤوسهم في صمت مريب ويتبادلون النظرات التي تشي بما في صدورهم نحو هذا الرجل الذي نشأ يتيما وتبنته الكنيسة وأسبغت عليه رعايتها وعلمته القراءة والكتابة ثم تلقفه العمدة واحتضنه ثم استخدمه أداة مطيعة لنهب أراضي الأهالي تحت غطاء رسمي ظاهره المشروعية وباطنه السرقة والنهب .

الدوار: أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٥

15 خواطر وذكريات انتخابات ١٩٨٤

شاركت فى انتخابات ١٩٨٤ ضمن قائمة حزب التجمع التقدمى الوحدوى عن دائرة جنوب أسيوط التى تضم ٦ مراكز: أبوتيج وصدفا والبدارى وبربا وأبنوب الحمام والباجور ونحو ٥٠٠ قرية. كان يشاركنى فى قائمة التجمع الشيخ سعيد جمال الدين ومحمود عباس من ساحل سليم.قمت بإعداد منزل جدى بقريتى الزرابى لعقد الاجتماعات واستقبال الوفود. وكان ينافسنى فى هذه الانتخابات أحد أقاربى من عائلة الحساسنة، وكان قد خاض تجربة الانتخابات السابقة (١٩٧٩) على قائمة حزب العمل الاشتراكى وكانت المنافسة حادة بينه وبين ممثل الحزب الوطنى (د. جمال العطيفى) وحسمت الانتخابات لصالح الأخير بعد أن تعرض محمود عبد العال لخسائر فادحة، حيث قاموا بحرق الغيطان وتسميم المواشى وتهديده فى حياته الأسرية حتى نجحوا فى إرغامه على تحويل انتمائه من حزب العمل المعارض إلى الحزب الوطنى الحاكم. كانت العلاقات العائلية الوثيقة تحتم التزام القيم واحترام التقاليد فى الدعاية الانتخابية ولكن العصبية العائلية لعبت الدور الحاسم فقد تكتل حوله عائلته لضمان وصوله إلى المجلس النيابى اتقاء لمزيد من الخسائر رغم عدم اقتناع أغلب أفراد هذه العائلة بمواقف الحزب الحاكم وتوجهاته فى ذلك الوقت.

كنت أتناول قهوة الصباح يومياً مع عمتى حفصة، وكانت تقترب آنذاك من الثمانين عاماً وتتميز بشخصية أسطورية فى صلابتها ونفاذ بصيرتها وقدرتها على التمييز بين نوعيات البشر وإعلاء كلمة الحق مهما يكن الثمن.. كانت عمتى تبادرنى

بالسؤال التقليدى (على فين العزم النهاردة؟) كنت أجيبها (على البدارى) حيث كان ينتظرنى ممتاز نصار المحامى وممثل حزب الوفد والذى كان يتمتع بسمعة برلمانية مشرقة وأصول عائلية عريقة فى البدارى. كانت عمتى تبتسم ثم تربت على كتفى فى حنان تشى به عيناها النافذتان وتقول: (انت صغيرة وجاهلة لازم تعرفى أن خصومك منتظرين يعرفوا خط سيرك علشان يعطلوك ويعملولك كمين أو يخلقولك أى مشكلة تشوه اسمك واسم عيلتك. الانتخابات يا بنتى حرب ولازم تصحصحى لها وتبقى عينيك زى الفنجان اوعى تقولى لحد خط سيرك ده سر لازم تحافظى عليه) كنت أرد بعفوية قائلة: (لكن مجموعة الرجال الذين يعملون معى لابد أن يعرفوا خط سيرى). كانت عمتى تبادرنى على الفور قائلة (ممكن تردى عليهم إن شاء الله ولا تقولى اسم المكان وتدى تعليماتك للسواق أول بأول).. ثم تعود عمتى إلى الحديث عن البدارى قائلة: (دول وفديين طول عمرهم لكن حيجبوك ويمكن يدبحولك دبايح ولكن مش حينتخبوك) وفى المرة الثانية كنت ذاهبة لقرية ديكران.. قالت عمتى: (كان عمدتها مشارك أبوك فى الزرع وحينتخبوك ما تخافيش).. ونصحتنى أن أذهب إلى النخيلة لأن جذورنا وأهالينا هناك ولما أخبرتها بأن منافسى هناك عزت محروس ويمت بصلة قرابة بعيدة لعائلتنا (القماحة) وكان ينجح بالتزكية على امتداد خمس دورات برلمانية وكان ينظر إليه على أنه ممثل الحكومة وليس ممثلاً لأهالى النخيلة. كانت عمتى ترد فى حسم وقد برقت بوادر الغضب والانفعال فى عينيها النافذتين وتقول (أهالى النخيلة مش حينتخبوا عزت محروس كفاية عليه خمس مرات الحكومة فى كل مرة كانت تساعده وتنجحه والناس زهقت وعايزه تغير اديهم فرصة وجربيهم).. وبالفعل ذهبت إلى النخيلة فى اليوم قبل الأخير وكانت درجة الحرارة ٤٢ درجة وكدت أصاب بضربة شمس ومع ذلك أعطونى ٩٧ صوتاً مقابل زيارتى التى لم تستغرق سوى ساعة واحدة.

كان المحافظ زكى بدر قد أعلن أسلحته الانتخابية لتشويه مرشحى المعارضة وكانوا ينتمون إلى أحزاب التجمع والعمل والوفد. قمنا بتشكيل جبهة من خلال التنسيق فى الجولات والشعارات وأعددنا أنفسنا لمواجهة مرشحى الحزب الحاكم فى المؤتمر الانتخابى الذى ختمنا به جولاتنا فى القرى والنجوع والحقول والمنادر والمضايف.. أعد زكى بدر السرادق الفخم فى ساحل سليم وكان قد أعد قائمة افتراءات وهجوم شرس ضد مرشحى المعارضة واستهل خطبته بالتهجم على ابنة الشيخ سعيد التى كانت موفدة فى بعثة علمية إلى موسكو لدراسة الرياضيات وقبل أن يكمل حديثه قفز مجموعة من أقارب الشيخ سعيد إلى المنصة وفى أيديهم الرشاشات وطالبوه بالتوقف وانتزعوا الميكرفون وبدأوا يسردون مهازل ومخازى الحزب الحاكم والشرطة فى أسيوط، ثم أسرع حرس المحافظ إلى إنقاذه بدفعه إلى الخلف وإخراجه من باب صغير فى خلفية السرادق وعند وصولنا إلى السرادق وجدنا الجميع فى حالة شديدة من الهياج والصخب وتبادل الشتائم وبدأنا فى إعداد بيان جماعى احتجاجاً على بذاءات المحافظ وهجومه غير الأخلاقى على مرشحى المعارضة. وفشل المؤتمر الانتخابى للمحافظ ثم بدأت الانتخابات فى اليوم التالى وانتهت بسقوط جميع رموز المعارضة ونجاح مرشحى الحزب الوطنى فى دائرة جنوب أسيوط.

الدوار – أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٥

16 قطارات الصعيد

فى إطار رحلاتى المكوكية إلى محافظات الصعيد لمتابعة تغطية محررى مجلة الدوار لأحوال أهالينا فى الجنوب أتيح لى أن أركب جميع القطارات المتجهة إلى وجه قبلى ما بين فرنسى وأسبانى ومجرى وعديم الهوية كما اتيح لى أن أرصد ما آل إليه حال هذه القطارات والتى اعتبرها مرآة تعكس مدى اهتمام الحكومة المركزية فى العاصمة بأحوال الصعيد وسكانه علاوة على دور الحكم المحلى الغائب فى أغلب الأحيان.

لقد تقلبت الأحوال بهذه القطارات وظلت أسيرة الإهمال الذى تمثل فى أحادية الخط وسوء أحوال السائقين والكمسارية وتدهور المرافق والتى تشمل المقاعد والمراحيض والأرضيات والشبابيك ولا يستثنى من ذلك العربات المكيفة فى الدرجتين الأولى والثانية ناهيك عن الدرجة الثالثة التى لا تصلح أصلاً لمن ينتمون للفصيلة البشرية ونظراً لما يتميز به أهالى الصعيد من صبر على المكاره وتطييب النفس بالأمنيات الوهمية ومحاولة تصديق التصريحات الوردية الصادرة عن الوزراء والمحافظين فقد صبروا طويلاً أملاً فى أن تستيقظ ضمائر صناع القرار سواء فى العاصمة أو فى إدارات الحكم المحلى ولكن صناع القرار كانوا فى واد آخر مشغولين بتثبيت كراسيهم وتدبير وتعظيم مغانمهم خلال فترة وجودهم فى مواقع السلطة ولذلك ظل وضع القطارات يتدهور من سيئ إلى اسوأ إلى أن وقعت حادثة قطار الصعيد الشهيرة عام ٢٠٠١ وخرج منها صناع القرار وكبار المسئولين سالمين غانمين بقدرة قادر وألقيت المسئولية كاملة على الصغار من الموظفين البؤساء

والعمال التعساء الذين توجه إليهم دائماً أصابع الاتهام والتقصير ويدفعون الثمن مثنى وثلاث ورباع وبرغم كارثة القطار وبرغم ارتفاع أسعار التذاكر بصورة غير مسبوقة إذ بلغت عدة أضعاف "قول رغم ذلك تدهورت الأمور وتواكب هذا التدهور مع تصاعد التصريحات الوردية من جانب المسئولين عن هذا القطاع الحيوى قطاع النقل والمواصلات فالخدمة داخل هذه القطارات لا تزال متدنية دورات المياه تطفح بالأوبئة والقذارة وجدران القطارات ونوافذها تضج بالشكوى من الإهمال وغياب النظافة والصيانة وعمال السكة الحديد صامتون يكسوهم الإحباط واليأس وتتحدث نيابة عنهم ملابسهم الرثة وليس غريباً أن نقرأ فى الصحف عن حوادث قطارات الصعيد بصورة أصبحت شبه دورية والسؤال متى تستيقظ ضمائر المسئولين سواء الحكوميون أو قطاع الأعمال) عن قطارات الصعيد وهل ننتظر وقوع كوارث جديدة حتى ينتبهوا إلى هذا المرفق الحيوى الذى يربط بين القاهرة ومدن ومحافظات الصعيد حيث يقيم ويعمل وينتج ويسهم فى استمرارية هذا الوطن ما يزيد على ٤٢٪ من سكان مصر المحروسة؟ وإلى متى يظل أهالى الصعيد والمقيمون فيه يعانون من التهميش وإهدار حقوقهم كمواطنين؟

جريدة الأهرام ٢٠٠٥

17 عندما طال مرض الخال

فى عرس صعيدى مهيب تصدرته الخيول العربية تحمل على ظهورها مجموعة من شباب القرية يحيط بهم جوقة من عازفى المزمار ودقاقى الطبول احتفالاً بزفاف فارس بهى الطلعة بديوى ذلك الشاب الذى كان ينتمى إلى عائلة عريقة وليست ثرية والذى تزوج إحدى قريباته التى تنتمى لعائلة أخرى تماثل عائلته في الأصل العريق وفى منادر العائلة تعالت زغاريد النسوة اللواتى كن يحطن بالعروس التى تميزت ببنية ضخمة وملامح حادة تشى بشخصية قوية وامتدت الموائد العامرة بلحوم الخراف والطيور والفطائر والحلوى والفواكه واستمر الحفل ثلاث ليال وظل هذا الحدث لمبهج حديث القرية على مدى العام ثم انشغل بديوى فى رعاية أرضه وأرض زوجته التى ورثتها عن والدها ودارت الأيام والسنون وأنجب ثلاث فتيات ورثن ملامحه المضيئة الدقيقة وبشرته البيضاء المشوبة بالحمرة ماعدا الصغيرة التى أخذت عنه العيون الخضراء وأخذت من أمها البشرة القمحية ثم سرعان ما وقع فريسة المرض الذى لم يمهله طويلاً فرحل وقبل رحيله كان قد نصح زوجته بأن تستدعى خالها ذلك الشيخ الوقور والذى كان يتمتع بسمعة طيبة بين أهله وجيرانه حيث أوصاه على البنات وأمهن وأفصح له عن مخاوفه من أن تتعرض بناته للهوان من جانب أبناء عمومته فى حالة وفاته ودخولهم شركاء فى الميراث لأنه لم ينجب ولدا كى يصد الغرباء وطلب من الخال أن يبذل جهده كى يحمى حقوق الصغيرات فاقترح عليه الخال الوقور المعروف بتدينه أن يكتب له عقداً صورياً ببيع

الأرض وذلك تحسباً للظروف وحاول أن يطمئنه ويطيب خاطره مؤكداً له أنه سوف يشفى قريباً وسيقوم بنفسه بتمزيق هذا العقد.

ولكن عندما حان الأجل ورحل بديوى اصطحبت الزوجة صغيراتها الثلاث وذهبت إلى خالها تطالبه بإعطائها العقد الصورى أو تمزيقه أمامها. ظل يماطلها بحجة أنه يرعى لها الأرض ويمنحها كل موسم احتياجاتها من الغلال واللحوم والفاكهة والكسوة ويدس فى يدها مبلغاً ضئيلاً من المال يكفيها لتغطية نفقات المنزل ثم دارت الأيام وأصيب هذا الخال بمرض عضال، احتار فيه الأطباء. في هذا الوقت التف عقلاء العائلة حول الزوجة ونصحوها بأن تسرع فى أخذ العقد من خالها خصوصاً وأن له أبناء أشداء ويعوزهم الورع والتقوى ومن المؤكد أنها سوف تفقد الأرض نهائياً لو رحل خالها وعندما طال مرض الخال وأصبحت أيامه معدودة انزعجت الزوجة واصطحبت صغيراتها مرة أخرى وكانت صغراهن قد فقدت بصرها بسبب مرض الجدرى الذى أصابها ولم تلق الرعاية الطبية الملائمة إذ أصر الخال على عدم عرضها على الطبيب والاكتفاء بالوصفات البلدية.

دخلت الزوجة «الأم» على خالها الذى كان ممدا على فراشه يعانى من الوهن والضعف تحاصره أشباح الموت قلت له «يا خال أنك سوف تلقى وجه رب كريم وأنا أمامى مشوار طويل لتربية هؤلاء اليتيمات أتوسل إليك بحق جاه النبى الذى زرته ووقفت على شباكه أن تريحنى وتعطينى العقد أو تمزقه أمامى» ثم ارتمت على جسده وظلت تقبل يديه وتبللها بالدموع التى انهمرت كالسيل المتدفق، نظر إليها الخال بعيون كليلة ثم أخرج العقد من تحت المخدة التى كان ينام عليها ووضع الورقة فى فمه وابتلعها وضاع حق الزوجة «الأم» واليتيمات الصغيرات.

الدوار: يناير / فبراير ٢٠٠٦

18 عرس الدم

تجمعت النسوة وقد ارتدين أبهى ثيابهن وتناثرن فى البهو العلوى الكبير فى الدوار الذى يضم الأب والأم واثنين من الأبناء الذين تزوجوا وعاشوا وأنجبوا «صبيان وبنات» فى نفس الدار وجاء الدور على الابن الأصغر الذى اختاروا له عروساً من عائلة أخرى وكان يجلس فى صدارة المندرة، وقد تحلق حوله مجموعة من شباب العائلة كانوا يرتدون الجلاليب الصوفية وتلتف حول أعناقهم الكوفيات الكشميرية ذات الألوان الزاهية. أما كبار السن من رجال العائلة فقد ارتدوا الجبب والقفاطين وتتدلى من فوق أكتافهم الشيلان الصوفية، كانوا جميعاً فى انتظار وصول موكب العروس التى ما إن وصلت حتى تقدم شقيقها الأكبر ثم حملها وصعد بها إلى البهو العلوى، حيث تقع الحجرة المخصصة لها وانطلقت الزغاريد وتعالت أغانى الأفراح. كانت العروس شاحبة الوجه رغم كثافة الماكياج الذى امتلأت بها بشرتها وجفونها وخصوصاً أحمر الشفايف الزاعق الذى أضفى عليها مسحة أنثوية مفتعلة غطت على صغر سنها ولكن ظلت عيونها زائغة تعكس كما هائلا من الهلع والذعر الذى أصاب جسدها برعشة لا تخفى على العين. كانت حجرتها تتكون من سرير نحاس بأعمدة وقد تدلت منه ناموسية بمبية اللون تجاوره كنبة اسطمبولى مكسوة بقماش كريتون ذى ألوان نارية وتمتد أمامها ترابيزة صغيرة وفى نهاية الحجرة دولاب بنى بضلفتين ومرايا.

ويكسو أرضية الحجرة كليم مخطط بألوان بيضاء ونبيتى، ثم جاءت داية القرية

تصحبها اثنتان من المعاونات وكن جميعاً يتمتعن بأجسام ضخمة مخيفة. وقفت الداية على باب الحجرة وقد أمسكت بكوز مملوء باللبن وطلبت من العريس أن يضع أصبعه فى الكوز تيمناً بزواج سعيد ثم دس فى يديها ورقة بخمسة جنيهات، تركت الكوز على باب الحجرة واندفعت إلى الداخل للإشراف على إجراءات الدخلة وكانت المعاونات قد سبقنها وقمن بإجلاس العروس على الأرض فى منتصف الحجرة وطوقنها من الخلف وانفردت كل واحدة منهن بساق وذراع من ساقى وذراعى العروس ثم دخل العريس وقام بأداء مهمته التى انتهت بنزيف حاد أصيبت العروس على أثره بإغماءة طويلة وخرج العريس منتشياً يحمل فى يده منديلاً أبيض ملطخاً بدماء العروس ولمعت عيناه بالنصر ثم شق طريقه بين الزغاريد والأعيرة النارية التى انطلقت تعلن للملأ أن العروس بنت بنوت بكر لم يمسها إنس ولا جن من قبل ثم امتدت الطبالى زاخرة بطواجن اللحم والمرقة وصوانى البطاطس وأناجر البامية والملوخية وانهمك المدعوون فى التهام ما لذ وطاب من الطعام فى الوقت الذى غرقت فيه العروس فى بحر من الدم لم تفق منه قط.

الدوار – مارس/ إبريل ٢٠٠٦

19 ضابط شرطة من الزمن الجميل

تسابق أهالى القرية فى تزيين نقطة البوليس بالأنوار والأعلام الصغيرة الملونة، وتقدم بعض كبرائهم متوشحين بالشيلان الكشميرية والكوفيات الشامخة يحيط بهم بعض الغلمان ممسكين بقرون الخراف، وآخرون يحملون أقفاص الطيور ويلحق بهم جمع من النسوة يحملن فوق رءوسهن المقاطف والصوانى النحاسية الكبيرة التى تحوى طواجن اللحوم والكفتة والبط والديوك الرومى والرقاق والعيش الشمسى والكعك. تقدم الركب متجهاً إلى دار ضابط النقطة، حيث كان ينتظرهم فى الفناء وبصحبته بعض الضباط القادمين من القرى المجاورة مع الصولات والخفر، انطلقت الزغاريد مع توالى الوفود القادمة من المركز والمديرية والتى ضمت بعض العمد وكبار الموظفين وكثيراً من الأهالى، جاءوا جميعهم محملين بالهدايا وكانت تعلو وجوههم فرحة غابت طويلاً عنهم.

لقد جاءوا لتقديم التهانى إلى الضابط الذى عاد إليهم أخيراً وكان قد خدم فى قريتهم عدة سنوات ثم انتقل إلى قرية أخرى فى الصعيد الجوانى وظل أهل القرية يذكرونه طويلاً ويتذاكرون أفضاله وحسن خصاله ولا ينسون ليالى الشعر والذكر التى كانوا يقيمونها فى منادرهم احتفالاً بميلاد طفل جديد وطهور أحد أبنائهم أو ختمة، ترحما على الأموات أو إحياء لذكرى مناسبة دينية مثل مولد الرسول ﷺ أو عيد رأس السنة الهجرية. كان هذا الضابط لا يترك حفلاً أو جنازة أو وليمة أو جلسة تضم رجالات القرية إلا وكان أول الحاضرين، كم من المصالحات نجح فى

إتمامها بين عائلات القرية.

كان يداوم على حضور قداس الأحد فى كنيسة الأرثوذكس مرة، ويخص الكاثوليك بالزيارة التالية، لقد جاء القسس يصحبهم الرهبان وألقى بعضهم قصائد مدح فى هذا الضابط الذى لم يجود الزمان بمثله.

فى أثناء فترة وجوده بالقرية هدأت النفوس واطمأن الأهالى وتوقفت حوادث الثأر وهرب اللصوص إلى القرى الأخرى، ونعمت القرية بأيام هانئة، ولم يكن يُسمع صوت الرصاص إلا فى مناسبات الزواج أو الفرح بعودة غائب.. وحرص نصف أهالى القرية على تسمية أبنائهم الذكور على اسم هذا الضابط، وقد فعل نفس الشيء فى القرى الأخرى التى انتقل إليها، وجاءت تقارير رؤسائه عنه امتياز عبر خمسة عشر عاماً أمضاها متنقلاً بين قرى ومراكز وبنادر الصعيد وعندما قرروا ترقيته نقلوه إلى العاصمة.

نفذ النقل وعاش أربعة أشهر فى القاهرة أحس بالغربة ولم يطق الزحام وغلاء الأسعار وجفاء البشر وغلظة قلوبهم ذهب إلى رئيسه راجياً نقله إلى الصعيد، تعجب الرئيس من هذا الطلب الذى لم يصادفه طيلة حياته الوظيفية وسأله عن الأسباب قال الضابط: «أرجوك أن ترحمنى من قسوة العاصمة، فهى مدينة بلا قلب لا تنبت فيها إلا أشواك الغدر والافتراء والمراوغة. إن أطفالى يحلمون كل يوم بالعودة إلى أحضان الطبيعة والاستقامة والشهامة التى أحاطنا بها أهالى الصعيد الكرام». وإزاء إصراره استجاب رئيسه ووافق على نقله إلى تلك القرية التى سعدت بعودته ولكن فى موقع وظيفى أعلى، وكان مقر عمله فى المحافظة، ولكنه آثر أن يكون مقر سكنه فى هذه القرية التى انتمى إلى أهلها وأنجب فيها أولاده الثلاثة.

الدوار: سبتمبر – أكتوبر ٢٠٠٦

20 المهندسة سوسن

كانت الابنة الوحيدة لأب مزارع أنجب خمسة أولاد تعلموا القرآن فى كتاب القرية وتفرغ أكبرهم لمساعدة والده فى الزراعة، وواصل الآخرون تعليمهم.. التحق اثنان منهم بالمعهد الأزهرى، وانضم الاثنان الآخران إلى التعليم العام، حيث حصلا على الإعدادية من مدرسة القرية ثم استكمل الابن الأوسط دراسته فى المدرسة الثانوية بالمركز، واكتفى الآخر بالتعليم الصناعى المتوسط، وكان الأب يستيقظ يومياً مع آذان الفجر ويذهب للصلاة فى الجامع المجاور لمنزله ويعود ليتناول إفطاره: كوباً من الشاى مع قرقوشة صغيرة، ثم يحمل الغداء المربوط فى محرمة بيضاء مقلمة بخطوط زرقاء وكانت أم الأولاد تصنع له كحريتين «بيضتين» مسلوقتين وقطعة جبن قريش وثلاثة أرغفة قمح أو بتاو مخلط وبصلة كبيرة أو فصين لفت وفلفل مخلل لزوم فتح الشهية.. وعلى مدى أعوام طويلة كان هذا المشهد يتكرر يومياً كان الأب يخرج قبل طلوع الشمس حاملاً طعامه فى قفة صغيرة ويقطع حوارى القرية التى تبتعد مساكنها عن الغيط وعلى امتداد الطريق كان يتبادل تحية الصباح مع الرجال والصبية السائرين على الأقدام، وكان بعضهم يركب الحمير وعلى مشارف الأرض المزروعة قمحاً أو فولاً أو قطناً أو برسيماً كانت إشراقة الشمس تصافح وجوههم فيما كانت نسمات الهواء تتسلل إلى أنوفهم، فتهتز رؤوسهم انتعاشاً ونشوة فيلقون أمتعتهم القليلة ويبدلون ملابسهم، ثم تمتد أيديهم إلى الفؤوس يتلمسونها فى لهفة وشوق وكأنهم غادروها منذ سنين يزيلون ما علق بها

ـن شوائب الأمس ثم يستأنفون ملحمة العشق للأرض الطيبة.

وكانت الأم تبدأ رحلتها اليومية قبل شروق الشمس فى الحوش الخلفى وسط صياح الديكة ومأمأة الماعز ونهيق الحمار الوحيد وتقترب فى حذر من البقرة الكبرى تملس على ظهرها فى حنان ثم تربت على أذنيها وتلقى عليها تحية الصباح ثم تستدير لتبدأ عملية الحليب فى «سدرية»- إناء بيضاوى من النحاس- وتواصل بقية اليوم فى الخبيز وغسيل ملابس الأب والأولاد وإعداد طعام العشاء وتنهى يومها بالاستحمام وتغيير ملابس الشقا كما تسميها وتضع الكحل فى عينيها وأحياناً قليلاً من العطر إذا توفر وتستعد لاستقبال العائدين من الغيطان والمدارس ويهل الأب عائداً من الغيط عند الغروب ثم تبدأ الوصلة الثانية من الخدمة الشاقة التى تتوقف قليلاً بعد تناول العشاء، ثم تبدأ مرة أخرى مع مواكب الضيوف من الأقارب والجيران وأكواب الشاى والقهوة والكركديه وقراقيش الفايش وصوانى البلح والرمان.. كانت الابنة الوحيدة عوناً للأم، فهى ترعى الدجاج وسائر الطيور وتقوم بترتيب سرير أشقائها وكنس المنزل وإعداد الشاى والقهوة للضيوف وغسل الصحون والأوانى فتعثرت فى دراستها رغم ذكائها الحاد ولم يتحمل جسدها النحيل الجمع بين أعباء الخدمة المنزلية والواجبات المدرسية فسقطت فريسة المرض وزارتهم ناظرة المدرسة ونصحت الأم بتخفيف العبء عن الفتاة الصغيرة لأنها موهوبة ومجتهدة تحتاج إلى الرعاية. مرت الأيام وواصلت الفتاة تعليمها وحصلت على الإعدادية من مدرسة القرية بمجموع كبير يؤهلها لدخول الثانوى، تردد أبوها وصمتت أمها، ولكن شقيقها الذى التحق بكلية الحقوق جامعة أسيوط ساندها واستأذن والده لاصطحابها كى تقيم معه فى الشقة الصغيرة التى استأجرها بجوار الجامعة والتحقت بالمدرسة الثانوية المشتركة فى بندر أسيوط.. تفتحت مواهبها

وداومت على قراءة الصحف ومتابعة المناقشات بين شقيقها وأصدقائه، وكانت تذهب أسبوعياً للقرية بصحبة شقيقها وتعود محملة بالزاد والزواد من العيش الشمسى والطيور والزبدة والفايش والفريك وكان شقيقها سعيداً بوجودها معه لمهارتها فى تنظيم أوقاته وإحلال البهجة والاستقرار على حياته، وكان دائم التشجيع لها والاعتزاز بها وبذكائها أمام والديه ونالت الثانوية العامة علمى بمجموع كبير كالعادة، ثم التحقت بكلية الهندسة رغم معارضة أشقائها الآخرين، وتردد أبويها، لكن مساندة الشقيق الذى أصبح محامياً كانت الفيصل.. انضمت فور التحاقها بالجامعة إلى الأنشطة الثقافية والرحلات، ثم انتخبت أمينة لاتحاد الطلبة وكانت شعلة لا تهدأ من النشاط والتواصل مع زملائها وأساتذتها.. واحتفل والدها وأشقائها بمناسبة حصولها على بكالوريوس الهندسة وشارك أهل القرية فى هذا الاحتفال بالنقوط والذبايح من الخراف والجديان والعجول الصغيرة.. انتظرت قرار تعيينها وكانت فرحتها الكبرى عندما عينت فى الإدارة الهندسية بمحافظة أسيوط، وكانت أول مهمة أسندت إليها تصميم مبنى أول مدرسة ثانوية مشتركة للبنات والبنين فى قريتها. ياله من حلم تحقق أخيراً، الآن فقط سوف تفتح أبواب الأمل والتعليم الجامعى أمام فتيات القرية ولم تتمالك نفسها من الفرحة فانطلقت زغرودة طويلة.

الدوار: نوفمبر / ديسمبر ٢٠٠٦

21 الحاجة حميدة

كانت تستيقظ عند آذان الفجر وتتجه مباشرة إلى الحوش الكبير لإيقاظ البقارة والجمالة والغنامة وتعطى لكل منهم طعام يومه مربوطا فى محرمه باهتة تحوى بتاوتين وقطعة جبن قريش وبصلة كبيرة، ويبدأ كل منهم فى إيقاظ بهائمه النائمة يضعونها أمام مخاول التبن والبرسيم ثم يقودوهم إلى البتاتى المملوءة بالماء أمام البئر الرئيسى فى مدخل الحوش ثم تبدأ مسيرة المواكب البهائمية تتصدرهم مواكب الجمال ويليها البقر وفى المؤخرة الغنم. وبعد أن تطمئن الحاجة حميدة إلى خروجهم تتوجه على الفور إلى إيقاظ خدم البيت بخيتة ورخام ومغربية الذين يسارعون إلى طشت المياه الموجود فى قلب الدوار القبلى يغتسلون ثم يقومون بتحضير البتاو وبقايا العدس أو المدمس البايت وأحياناً إلى بلاليص المش يغرفون منه مع البصل وفى ذلك الوقت تكون الحاجة قد سبقتهم إلى الدوار الكبير لإعداد الشاى والقراقيش للحاج الكبير أما الحاج الصغير الابن الوحيد فقد كان لا يزال نائماً مع غندورته فى البيت الصغير الذى أعده لها خصيصاً لأنها تربت فى البندر وتعودت على حياة الرفاهية مع والدها المهندس كبير الأسرة والمتعلم الوحيد الذى أرسله والده إلى العاصمة مبكراً وتفوق فى دراسته ونال شرف الالتحاق بالمهندسخانة التى كانت مقصورة على أبناء الخواجات ثم سمحت السلطة الخديوية والاحتلال البريطانى بقبول عدداً قليل من المصريين أبناء العائلات المعروفة.

كانت الحاجة حميدة تتميز بذكاء حاد وتمتلك قواماً ممشوقاً ووجه جميل يحمل

عيوناً خضراء تمتزج فيها أشجان ودهاء المرأة الصعيدية وتعكس إصرار وإرادة حديدية، أحضرها أشقائها من القرية البعيدة حيث كانت متزوجة من أحد أثريائها وبعد ترملها قررت أن تكرس حياتها لوحيدها ورفضت الزواج من شقيق زوجها قرر أشقائها أن يزوجوها للحاج الكبير المزواج بعد أن رحلت زوجته شقيقتها تاركة ولد وبنت وخشى أخوالهم من مجيء زوجة أب تلتهم الثروة وتهدد أبناء شقيقتهم بالحرمان منها جاءت الحاجة حميدة محملة بوصايا أشقائها، وسيطرت على الحاج بأنوثتها الطاغية ومخزون دهائها الأسطورى ومسلحة بخبرات مريرة اكتسبتها من تجربة زواجها الأولى.. سيطرت على الجميع استغلت فقراء الأسرة وجندتهم لخدمتها وزوجت الابنة اليتيمة لأحد شيوخ القرية الذين ينتمون إلى عائلة أخرى وانفردت بالصبى الذى تمرد على سطوتها وإصرارها على تزويجه من ابنة شقيقها المقيم فى أحد المدن الساحلية البعيدة وأصر الفتى على الزواج من ابنة عمه البندرية الرقيقة التى كان قد وقع فى غرامها منذ طفولته المبكرة تردد والدها فى البداية ثم وافق بعد تدخل كبار نساء ورجال الأسرة وعمد البلاد المجاورة وأخرجوا الفتاة من المدرسة وألقوا بها فى أتون الجحيم عملا بالمأثورات الشائعة فى قريتهم «قيد بنتك بقيد حديد وارميها فى بيت السعيد» والمقصود بالسعيد الرجل الثرى وبعد قليل بدأت المعارك بين الفتاة الملائكية تربية المدارس وبين الحاجة حميدة المتجبرة والمستأسدة وصاحبة القول الفصل فى أى رغيف خبز يخرج من الدار، فشلت الزيجة بعد سنوات مريرة من الصراع وانتصرت الحاجة وانتهت الملحمة بخروج الزوجة من المنزل وفى يديها طفلين صغيرين بعد أن فقدت خمسة من أبنائها نتيجة إهمال الأب فى علاجهم ورعايتهم وأقسمت الزوجة على الطلاق وفشل أهلها فى إثنائها عن قرارها واحتمت بشقيقها الطيار الذى ورث أعمال والده المهندس واحتضن شقيقته وطفليها، كان لها ما أرادت وتفرغت الحاجة لإحكام

سيطرتها على الحاج الصغير الذى اعتبرته ابنها المدلل وظل يتنقل بين الزيجات لفاشلة حتى بلغ عددهم ثمانية كان قرار اختيار هؤلاء الزوجات التعسات يتم موافقتها وكان قرار إنهاء زيجاتهم يتم بإشارة منها خسر الرجل الذكى نفسه بعد أن سلم مفاتيح حياته للحاجة حميدة وخسر الاستقرار والأمان الأسرى بعد أن تبددت جمل سنوات عمره فى التنقل بين الزوجات الشقراء والحمراء والسوداء والبنية ثم رحل دون أن يتحقق حلمه فى الأمان الأسرى ولكن تمكنت زوجتاه الأولى والأخيرة من تربية الأطفال أهدت الأولى للمجتمع ابنة وابن حاملين لدرجة لدكتوراه وأهدت الأخيرة ثلاثة فرسان خبراء فى الكيمياء وإدارة البنوك.

الدوار - يناير / فبراير ٢٠٠٥

22 عيوشة وأرغفة الخبز

تقلبت فى فراشها وعند سماعها صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر هبت مذعورة وفركت عينيها وأسرعت إلى سطل المياه وملأت كفيها بحفنة غمرت بها وجهها كى تطرد بقايا النعاس ووضعت الطرحة على رأسها ثم هرولت إلى حوش البهايم المجاور لإعداد أوانى الحليب وإيقاظ الصبية النائمين لمساعدتها فى الإمساك بالبقر أثناء عملية الحليب، تنبهت إلى صوت زوجة عمها الجهورى الذى تعودت عليه منذ سنوات تستحثها على الإسراع بإنهاء الحليب استعداداً لباقى المهام اليومية الشاقة التى تبدأ بإخراج البهايم للذهاب إلى الغيط ثم التفرغ لتنظيف الحوش وملء الأزيار وغسيل المواجير وإحضار مقاطف الطحين من حجرة الخزين والحفاظ على الخميرة وحمايتها من التهوية، كان الخبيز ثلاث مرات فى الجمعة «الأسبوع»، وهناك نوعان من العجين القمح لأسياد الدار وأولادهم والذرة للشغالين أربعة مواجير للقمح وستة مواجير للذرة لملء أفواه البقارة والجمالة والغنامة والشغالات اللواتى يبدأن من الفجر حتى صلاة العشاء فى الحليب والغسيل والخبيز والمساعدة فى أعمال الطبخ مع خدمة الحاج وأولاده وضيوفه شاى وقهوة وفطور وغداء وعشاء. إلخ. جلست عيوشة أمام أكبر المواجير وبجوارها باقى الفتيات أمام المواجير الأصغر وبدأت ملحمة العجين، ثم تلتها عملية التقريص على المطارح المغطاة بالردة، ونقلها إلى السطوح كى تخمر فى الشمس، وفى ذلك الوقت يتم إعداد الأفران بحشوها بالوقيد وتنظيف سطح الفرن «البلاطة»، صرخت إحدى الفتيات «جعانة يا ناس

مافطرتش»، تذكرت عيوشة أنهم جميعاً لم يفطروا، وهذه عادة الحاجة التى تصر على أن ينتهوا من أعمالهم أولا ثم يأكلون فى نهاية اليوم الفائض من طعام الأسياد مع العيش الدرة إذ محرم عليهم أن يتذوقوا العيش القمح الذى يعجنونه ويخبزونه خوفاً من أن يعتادوا عليه كما تقول الحاجة.

صعدت عيوشة إلى السطوح لتقليب الأرغفة بعد التأكد من انتفاخها دليلاً على اختمارها، واستطلعت من الفتيات أن الأفران جاهزة بعد الانتهاء من خبز الرصة الأولى، غافلت عيوشة الفتيات وأخفت داخل جلبابها رغيفين واتجهت إلى الحائط الغربى المواجه للفرن ونادت على أحد أشقائها وكان يلعب فى الممر الضيق الذى يفصل بين منزل الحاجة عن منزل ابن عمه المجاور له، ألقت عيوشة بالرغيفين، لم ينتبه شقيقها للنداء ولم يلتقط الرغيفين وتصادف مرور زهيرة الشريرة ذات الجسم الضخم والتى تنتمى إلى عائلة الحاجة من بعيد، صاحت بأعلى صوتها «الحقى يا مراة عمى بيتك اتخرب» خرجت إليها الحاجة بعد أن قطعت الصلاة وقد امتلأ وجهها بكم هائل من الفزع الممزوج بالغضب أخذتها زهيرة الشريرة من يديها وذهبت بها إلى الممر الضيق وأشارت إلى الرغيفين الراقدين على الأرض وأخبرتها بالحكاية، هرولت الحاجة إلى الداخل وقفزت على السلالم رغم كبر سنها وضخامة جسمها وظلت تسأل الفتيات عن عيوشة وعلمت أنها ما تزال فى السطوح، انطلقت نحوها وهى تلهث وتحاول التقاط أنفاسها دون جدوى، وانهالت عليها ركلا وصفعاً ثم امسكت بضفائرها وسحبتها على السلالم ثم ألقت بها خارج المنزل، مكثت عيوشة فى منزلها ولم تبارحه بعد أن تورم جسدها وانتفخت عيناها وأنفها ولم تسأل عنها الحاجة بل ظلت تروج فى مجالسها قصة الرغيفين وتضيف إليهم من خيالها، حتى أصبحت حدوتة تتداولها النسوة فى الأسواق والغيطان وأمام

الآبار وعلى ضفاف الترع، كانت زوجات أغنياء القرية يعلقون بغطرسة واستنكار «تستاهل عيوشة ليه تمد إيدها على عيش أسيادها»، أما فقيرات القرية فكن يزمن شفاههن فى أسى ويتصعبن قائلات «الفقير مالوش سند، الرحمة خلصت يا ناس من البلد، حسبنا الله ونعم الوكيل».

الدوار - فبراير / مارس ٢٠٠٧

23 خطوبة حميدة بنت درويش

استقبل الحاج على درويش ضيوفه القادمين من قرية الحواتكة وكان قد أصدر تعليماته بذبح خروف وجديين وإعداد غذاء فاخر يليق بمكانة الضيوف، وعلى الفور بدأ الخدم فى تنظيف المندرة الكبيرة وإعادة رص الدكك وفرشها بالأكلمة الصغيرة الملونة والمساند القطنية وتلميع الأباريق النحاسية ورش الأرض بالمياه ورى شجيرات الريحان والنعنع واستدعاء السقايين لملء الأزيار الثلاثة التى تتصدر الباب الخارجى للمندرة. كما بدأت النسوة فى تسخين الأفران والكوانين لإعداد الخبز الطازج والفطائر التى اشتهرت بها قرية العدر وطهو لحوم الخراف والجديان، وأضافت سيدة الدار بعض الطيور من الحمام والبط المحشوة بالفريك. وعند منتصف الظهيرة هل موكب الضيوف يتقدمهم الشيخ محفوظ عين أعيان الحواتكة يحيط به أشقاؤه الأربعة وقد أرتدوا أبهى ما لديهم من قفاطين وشيلان مطرزة تعلو وجوههم مسحة من الشموخ والكبرياء ويحيط بهم رهط من العبيد المبندقين لزوم الأبهة وكان فى استقبالهم الشيخ على درويش وأبناؤه الثمانية وحشد من كبار رجال العائلة. كان الاستقبال مهيباً وجلس الجميع ثم توافد الخدم يحملون أكواب التمر هندى والكركديه على صوانى فضية مزخرفة وبعد تناول مشروب الضيافة وتبادل آيات الترحيب والأشواق امتدت الموائد العامرة بالأطعمة وانهمك الجميع فى ثرثرات ودودة وعلت أصواتهم عند الحديث عن الحيازات الزراعية وجودة الأراضى وأسعار المحاصيل والمستشفى الذى افتتح حديثاً بأسيوط ومدرسة

الأمريكان التى لا يشجعون أبناءهم على الالتحاق بها بل يفضلون عليها المعهد الديني فى بنى عدى وزواج الأبناء والبنات واحتمال انتقال العمدية من بيت فلان والفلاحين الذين ذهبوا للمشاركة فى حفر قناة السويس ولم يعودوا وتركوا أبناءهم وزوجاتهم على باب الله.. وبعد الانتهاء من تناول الطعام جاء الخدم مرة أخرى بالصوانى الفضية تعلوها أكواب الشاى المنعنع والقهوة وأباريق المياه المقطرة والتى تفوح منها رائحة ماء الزهر. اعتدل الشيخ محفوظ فى جلسته وبدأ الحديث الذى توجه به إلى الشيخ على درويش طالباً يد إحدى بناته لابنه الأكبر محمد. تنحنح الشيخ على ثم قال بابتسامة ودودة (هذا شرف كبير لينا وللعيلة كلها ولكن بناتى كلهم محجوزين لأولاد أعمامهم وأنت سيد العارفين يا شيخ محفوظ البت عندنا محجوزة لولد عمها ويقدر ينزلها من على الجمل فى يوم عرسها لو تجرأ واحد غريب وخطبها).

انقلب المجلس واختفت روح البهجة التى سادت أركانه منذ قليل وفجأة جاء أحد الخدم وهمس فى أذن الشيخ على الذى استأذن المجلس وهرول مسرعاً إلى الرواق العلوى كى يستفسر عما حدث. انتحت به جانباً الحاجة زوجته وأسرت إليه ببعض الكلمات ثم عاد الشيخ إلى المجلس واستأنف الحديث قائلاً (عفواً يا حاج محفوظ مقامكم فوق رأسى أنتم فى الأصل أخوال أبويا وتربطنا بكم قرابة ونسب قديم ويشرفنى نسبكم ولكن ليس لدى سوى البنت الصغيرة حميدة ولسه قدامها كتير عالبال ما تبلغ السن القانونية للزواج) قاطعه الشيخ محفوظ قائلاً: (سوف ننتظرها ولو عشر سنين جاية إيه رأيك؟) هب الشيخ على واقفاً ومد يده إلى الشيخ محفوظ قائلاً: (اتفقنا نقرأ الفاتحة الآن) ثم تعالت الزغاريد ونزلت صوانى الشربات من الرواق العلوى.

الدوار: إبريل / مايو ٢٠٠٧

24 العار والضحية

كانت مثار حديث النسوة فى إحدى جلسات العزاء التى تعد بمثابة الفرصة الوحيدة المتاحة لهن للفضفضة والتخلص من الهموم الكثيرة التى تملأ القلوب المثقلة بتراث عريق من القيود والمحظورات والتكتم والحرمان من البوح والمصارحة.

قالوا «غلبانة ضوية فقدت بنتها البكر وأخوها فى شهر واحد» والأدهى والأمر أنها فقدت عقلها وهجت من البيت وقاعدة جنب الجامع تبكى وقاطعة الزاد وحلفت أنها تنتقم من اللى ظلموها ويتموا ولاد أخوها، فلما استفسرت من بعضهن عن حقيقة الموضوع ترددن فى الإفصاح ثم تقدمت إحداهن وجلست بجوارى وهمست بصوت خافت قائلة «إنت عارفة أن ضوية تهجلت – أى ترملت – بدرى وعاشت تكافح وتربى ولادها بنتين وولدين الأولاد راحوا مصر على رزقهم وفضلوا البنات فاتهم سن الزواج والشهر اللى فات لاحظت ضوية أن البنت البكرية بطنها كبرت وعرفت منها أن المحظور حصل، لطمت على وشها وأهالت التراب وشيعت مرسال لأخوها فى الغيط أنه يحضر حالاً علشان فيه مصيبة حصلت.

جاء الأخ مهرولاً فى المساء ولما علم بالأمر اتفق مع ضوية على التكتم لحين التخلص من هذا العار وحضر فى الفجر ومعه أبناؤه الثلاثة بعد أن تركت لهم ضوية الباب مواربا وتسللوا إلى الخزانة الجوانية حيث كانت ترقد الفتاة وأختها

وقاموا بخنق الضحية ثم حملوها إلى المقابر ودفنوها قبل طلوع الشمس وأشاعت ضوية فى القرية بأن البنت سافرت إلى مصر لخدمة إخواتها ولم يمر أسبوع حتى وجدوا خال الضحية مقتولاً وقد فصلت رأسه عن جسده ولم يعرف بعد من هو القاتل، تناثرت الأقاويل والتخمينات ربما يكون الجانى الذى اغتصب الضحية انتقم لها بقتل خالها وأشارت أصابع الاتهام إلى أحد شباب القرية الذى وجدوه محموماً يهذى بين الحقول وينطق باسم الضحية.

علقت إحداهن قائلة «ضوية مش حزينة على بنتها لأنها تستاهل علشان فرطت ولكن الحزن الأكبر على شقيقها الوحيد وبيته اللى اتخرب وولاده اللى اتيتموا».

وردت عليها امرأة مسنة يكسو وجهها مسحة من الجمال الرائق قالت «حرام عليكم يا ناس ليه تظلموا البنت وتركبوها العار وحدها الراجل مسئول زيها وهى البنت لها شرف والراجل مالوش شرف؟ العار طايلنا كلنا رجالة ونسوان علشان تعرفوا الحقيقة وتحودوا عنها تدافعوا دايما عن القوى وتنصروه على الضعيف وده ضد الشرع والدين».

تعالت أصوات النساء بالاحتجاج وامتلأت القاعة بالضجيج وتناثرت التساؤلات المشحونة بالغضب من المظلوم ومن الظالم.. وهل من العدل أن البنت الضحية تدفع حياتها ثمناً لخطيئتها ويعفى شريكها فى الخطيئة من العقاب؟!

الدوار: يوليو – أغسطس ٢٠٠٤

25 هاشم حمد

نشأت صنصف يتيمة الأب وبعد رحيله تزوجت الأم الشابة وتركت الطفلة مع شقيقها همام الذى كان يصغرها بعامين.. وعندما بلغت صنصف التاسعة من عمرها تخلص الأهل من عبثها بتزويجها من أحد أقاربها وكان يكبرها بعشرين عاماً وكان ينتمى إلى الفرع الكادح الفقير فى عائلة ممتدة الفروع تتباين فيها أطياف الفقر والغنى وإن كان يجمعهم جد واحد ترجع أصوله الأولى إلى قرية النخيلة وكان يقطن فى منزل يشغل مترين عرضا وعشرة أمتار طولاً وهو عبارة عن شريط طويل ضيق يفصل بين بيت الحاج عبد الرحمن ومنزل فهمى أفندى أبو زيد وكان الزوج يعود من الغيط عند غروب الشمس فلا يجد الزوجة الطفلة فقد كانت تلهو مع رفيقات اللعب فى الرهبة ولم تكن تعلم شيئاً عن واجبات الزوجية أو إعداد الطعام للزوج المكدود.

مرت السنون وأنجبت صنصف ابنتها البكرية حكمت ثم قرر الزوج الرحيل إلى حلوان بحثاً عن مصدر أوسع للرزق. ظلت صنصف تحلم أن تنجب ذكراً كى يكون سنداً لبناها الثلاث وأخيراً استجاب الله لدعائها وأعطاها غلاماً جميلاً ذكياً أسمته هاشم وكانت تفخر بأنها لا تؤكله العيش مثل باقى أخوته ولكنها ربته على الأرز اعتقاداً منها أن الأرز أفضل وأرقى من العيش وظلت ترضعه من صدرها وتعامله كطفل حتى بلغ سن الرابعة وخوفاً من الحسد كانت تلبسه ملابس الفتيات وتذهب به على الكنيسة وفاء للنذر وتحاول إخفائه عن أعين الأقارب والجيران وتدعى أنه بنت وقد حرمته من التعليم خوفاً عليه من خطر الاختلاط بالأولاد

الأشقياء ولذلك نشأ هاشم أمياً ولكنه كان يملك حساً مرهفاً وذكاءً غير معهود فى أسرته كما كان محباً لأهل قربته رغم أنه لم يترعرع بينهم ولكنه كان يداوم على المشاركة فى أفراحهم وأحزانهم رغم أن ذلك كان يكبده الكثير من الجهد والنفقات. عمل هاشم بائعاً متجولاً فترة طويلة من الزمن وأصبحت له شعبية بين أقرانه من صغار الباعة الجائلين. كان يتميز بقدرة فائقة على تصفية الخلافات بين الباعة محاولاً إعلاء صوت الحكمة وترجيح كفة التسامح واستطاع أن ينال ثقة الشرطة واحترامهم وكان غالباً ما يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الباعة عندما كانت تتأزم العلاقات بينهم بسبب عجرفة وسطوة رجال الشرطة وعناء هؤلاء الباعة وإصرارهم على عدم دفع الإتاوات المفروضة عليهم من عساكر البلدية كما يسمونهم. تزوج هاشم وأنجب عدة بنات وكان كريماً عطوفاً شديد السخاء مع أهالى الحى دائماً يتقدم صفوف المشيعين ويتقبل العزاء كواحد من أهل المتوفى وفى الأفراح كانت هدية للعرائس ذبيحة «خروف أو جدى» ونقوط فى الصبحية وعندما هاجمته الأمراض السكر والكبد كان يتحامل على نفسه ويذهب يومياً إلى السوق كى لا يحرم محبيه من حضوره الحنون وتدخلاته الحكيمة وعلى حد قوله كى لا يحملهم فوق طاقتهم بزيارته ومجاملته فى منزله وعندما اشتد عليه المرض حمله محبوه من جيرانه إلى قصر العينى وأحاطوا به يحاولون دفع شبح الموت عنه. وفى صبيحة أحد الأيام اخترقت سكون الحى صرخة حارقة مكلومة من إحدى نساء الجيران وسرى الخبر الحزين وتوقف العمل بالسوق حداداً على رحيل هذا الإنسان البسيط الذى لم تفارق الابتسامة وجهة المضيء بالحنان والمحبة والتسامح رغم قسوة الظروف التى أحاطت به وكانت المفاجأة الأليمة عندما اكتشف إخوانه أنه لم يترك لبناته ثروة نقير ولكنه ترك لهم مخزوناً لا ينفد من محبة الآخرين.

الدوار: نوفمبر – ديسمبر ٢٠٠٨

26 ولد العمدة

تزوجت صغيرة كان عمرها لا يتجاوز ثلاثة عشر عاماً انتزعوها من ساحات اللعب مع أقرانها فى القرية قرر والدها تزويجها لزوج عمتها التى توفيت منذ عام وتركت أربعة أطفال يتامى يحتاجون للرعاية.. كان زوج العمة ملتصقاً بالأسرة لا يفارقهم إلا عند المبيت، كانت الفتاة تلهو مع أبناء عمتها وكان أكبرهم واسمه برعى يقاربها فى العمر وكان ضيوف والدها يجلسون فى المندرة البرانية يتجاذبون أطراف الحديث عن الأرض وأسعار التقاوى، وارتفاع أسعار الكيماوى ويسبون ويلعنون تصرفات الخواجة تادرس الذى كان يقوم بتخزين التقاوى ولا يبيعها إلا بعد أن ترتفع أسعارها كما أنه كان يقرض بالربا وفجأة انقطع الحديث بعد أن اقتحم المجلس ثلاثة رجال من وجهاء القرية يتقدمهم ابن العمدة وكان يتمتع بحظوة ومكانة خاصة لدى والد الفتاة لأنه كان شريكه فى الزرع وتجارة القطن.

انتفض الجميع وقفوا لتحية الضيوف ثم عادوا للجلوس مفسحين أماكنهم كى يتصدر ابن العمدة الجلسة وكان يتمتع بروح الفكاهة وافتتح الحديث ببعض النكت والطرائف التى لا تخلو من الغمز واللمز على بعض أفراد العائلة المنافسة لهم على مقعد العمدية وأثناء شرب الشاى نظر إلى والدْ الفتاة بصوت ودود (انتوا ليه مدوخين الراجل الطيب ومبهدلين عياله اليتامى) استفسر الوالد منزعجاً تقصد مين؟ اجابه ابن العمدة (طبعاً أنت عارف أقصد مين.. جوز المرحومة أختك ليه ما تحاولوش تشوفوا له عروسه تعمر له البيت وتربى له أولاده).

أجاب الوالد بعد أن بلغ ريقه واستعاد هدوءه «وهى فين العروسة التى ترضى بعياله»، رد عليه ابن العمدة «العروسة موجودة فى بيتك وتقدر من بكرة تكتب عليها ليه ما تجوزهوش خديجة بنتك» اكفهر وجه الوالد ورد بحدة غير متوقعة (دى طفلة صغيرة ما تقدرش تشيل الحمل الثقيل «ده» وفى هذه اللحظة بدأ الضيوف يتدخلون فى الحديث مؤيدين وجهة نظر ابن العمدة قالوا: (أمهاتنا وأخواتنا اتجوزوا فى سن بنتك وأصغر كمان وتعلموا وخلفوا أولاد وعمروا بيوت، هى بنتك على رأسها ريشة)؟ أصابت الوالد رعدة ثم انتفض مستأذناً وهرول إلى داخل البيت وجلس فى المندرة الجوانية ولم تسعفه قدماه للصعود إلى الدور العلوى ونادى بصوت حزين زوجته التى أسرعت إليه وهى تحمل كوباً من الماء: مالك ياخويا بعد الشر عليك هما الرجالة زنجوك فى الكلام.

أخبرها بالموضوع لطمت على وجهها وخبطت صدرها ثم قالت: (حنعيده من تانى – كفاية من الدست مغرفة).

نظر إليها الرجل بعيون مليئة بالخذلان والأسى قائلاً لكن دى رغبة ولد العمدة وأنت عارفة المصالح اللى تربطنا بيه ومش عايز أكسر له كلمة.

انفجرت الزوجة فى البكاء وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة مثل (ياميلة بختك يا بنتى حيجوزوك واحد أكبر من أبوكى وتشيلى هم عياله وبلاويه ده حتى ظلم ما يرضاش بيه لشرع ولا الدين).

شرب الرجل كوب الماء واستعاد أنفاسه ثم خرج إلى المجلس كى يواصل ترحيبه بضيوفه. اشرأبت الأعناق واتجهت الأنظار نحوه متوقعين أن يقول شيئاً.

اتخذ مكانه على الأطراف وواصل الحديث قائلاً (خلاص على بركة الله حتجوزوا خديجة لعمها أبو برعى) ران الصمت على المجلس لبضع دقائق ثم عادوا

إلى الثرثرة والتعليق على هذا الموقف استحسن بعضهم هذا القرار ولكن عبر أغلبهم عن استنكارهم بانفعالات غاضبة ارتسمت على وجوههم واستأذن معظمهم وخرجوا من المجلس وفى آخر الليل عاد الرجل إلى البيت وكان قد أحس بجوع شديد وجد زوجته منزوية فى حجرة الحزين نادى عليها لم تجبه وجاءت ابنته خديجة تحمل صينية الأكل وقالت له أمى عيانة ومقهورة علشان حتجوزنى لعمى أبو برعى بادرها والدها قائلاً (وأنت إيه رأيك) قالت (اللى تشوفه يابويا أنا ما أقدرش أخرج عن طوعك ولا أخرب لك مصالحك مع ولد العمدة).

الدوار: أغسطس – سبتمبر ٢٠٠٧

الفصل السادس

المسكوت عنه عن فلسطين



1 دروس الشعوب

أثارت انتباهى عبارة جاءت فى سياق الحديث الذى أجراه الصحفى الإسرائيلى مع الرئيس حسنى مبارك إذ قال عند الحديث عن عودة اللاجئين الفلسطينيين ووجهه ينطق بكم هائل من الغل والحقد «لقد جئنا لكى نقيم دولة يهودية» مما يعنى أنهم ليسوا أصحاب الأرض الفلسطينية ولكنهم جاءوا من شتى بقاع العالم لاغتصاب الحقوق التاريخية الأصيلة للشعب الفلسطينى ولإقامة كيان عنصرى متغطرس قوامه العنف والكراهية المتأصلة ضد كل ما هو فلسطينى وعربى.

ولعل مشهد مصرع الطفل محمد الدرة وهو فى حضن أبيه هو التطبيق النموذجى لجوهر وحقيقة موقف الإسرائيلى اليهودى من كل هو عربى – وتسطع هذه الحقيقة فى وجه الجميع خصوصاً بعد أن طرحت انتفاضة الأقصى سؤالاً جذرياً عن مشروعية الدولة اليهودية وذلك فى سياق طرحها للحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى التى حاولت إسرائيل أن تمحوها من الذاكرة الجماعية للرأى العام العربى والعالمى طوال نصف قرن.

فقد عاش الإسرائيليون نصف قرن وهم ينعمون بفقدان ذاكرة جماعى عن الفلسطينيين الذين عاش الإسرائيليون فى أرضهم وفى بيوتهم ولم يتساءل أحد عن هذا الشعب الذى عاش قروناً على هذه الأرض وبنى هذه البيوت التى احتلها الإسرائيليون واغتصبوا ما تبقى فيها من آثار وما علق على حوائطها من صور.. الشعب الذى زرع بساتين الزيتون والبرتقال التى أنشأ عليها الإسرائيليون

مستعمراتهم.

لقد جاءت الانتفاضة لتطرح بقوة على العالم أجمع حق اللاجئين فى العودة وتعويضهم طبقاً لقرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤. ولكى تعيد إلى الأذهان جريمة النكبة والخوف العنصرى الإسرائيلى من المجهول من القتيل الذى بعثت فيه الحياة فعاد يطالب بحقوقه من قاتله. ولذلك امتلأت الصحف الإسرائيلية بالتحذير من عودة ملايين اللاجئين الفلسطينيين الذين يصل تعدادهم حسب السلطة الفلسطينية إلى خمسة ملايين، ولكن تشير سجلات وكالة غوث اللاجئين إلى ٣,٨ مليون لاجئ فلسطينى وتقدر صحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية أن الذين يريدون العودة يتراوح عددهم بين ٢ و٣ ملايين مما يعنى فى نظرها انهيار الطابع اليهودى لإسرائيل ومن ثم إلى قيام دولة ثنائية القومية. وبرغم اعتراف الصحف الإسرائيلية بالظلم الذى وقع على الفلسطينيين إلا أنها لا تذكر أبداً من المسئول عن هذا الظلم بل تصل بها الصفاقة إلى حد مطالبة القيادة الفلسطينية بمصارحة الآلاف من اللاجئين وليس الملايين باستحالة عودتهم وأن عليهم أن يلقوا مفاتيح ديارهم فى يافا وحيفا ويكفوا عن التمسك بحلم العودة الذى استمر من جيل إلى جيل وأن يقبلوا توطينهم أو تسفيرهم إلى بلاد أخرى.

هكذا يطالب الإسرائيليون بوقاحة منقطعة النظير باستمرار جريمة التطهير العرقى بل واقتراف جريمة جديدة هى نقل السكان الفلسطينيين وتوطينهم القسرى فى أوطان أخرى وحرمانهم إلى الأبد من وطن آبائهم وأجدادهم، متجاهلين عن عمد قرار الأمم المتحدة ١٩٤ الذى يطالب الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٤٨ وعصابات الهاجاناه وأراجون وشتيرن والوكالة اليهودية والصندوق اليهودى بعودة اللاجئين وتعويضهم عن الأضرار التى لحقت بهم.

وهذا يعنى فى القانون الدولى أنه ليس من حق اللص قانونياً وأخلاقياً أن يحرم أصحاب الحق من استعادة الأملاك المسروقة وأن هذا الحق لا يسقط بالتقادم، ومع ذلك فإن استمرار الطابع اليهودى لإسرائيل فيه قدر كبير من التضليل لأن استمرار التفوق العددى لليهود بفعل الهجرة سوف يقل حتماً فى السنوات القادمة بسبب فقدان الأمان واستمرار مطالبة الفلسطينيين بحقوقهم المشروعة. ويذكرنى الوضع الفلسطينى بما حدث لشعب جنوب أفريقيا الذى ظل يناضل ٣٥٠ عاماً حتى حصل على حقوقه كاملة فى الأرض والسيادة الوطنية. وقد طرحت على المناضلة وينى مانديلا هذا السؤال كيف احتفظتم بهذه الجذوة الوطنية جيلاً بعد جيل، فأجابت، لقد كانت الأمهات الأفريقيات يهمسن كل ليلة فى آذان أطفالهن بعد الشهر الثالث لولادتهن (البيض سرقوا أرضك) وعندما يشتد عود الطفل فى السابعة يكون هذا الهمس قد تحول إلى وعى كامل بحقوقه المسلوبة مما يجعله مؤهلاً للانخراط فى صفوف المناضلين، وهكذا استمر النضال ضد التفرقة العنصرية البيضاء عبر ما يزيد على مائة جيل من الأفارقة وأخيراً حصلوا على حقوقهم عام ١٩٩٤ بعد مفاوضات شاقة أجراها المناضل نيلسون مانديلا مسنوداً بنضال شعبى متعدد الأبعاد وشمل جميع الجبهات العسكرية والسياسية والدبلوماسية، وهذا هو درس الشعوب الذى لم ولن يستوعبه المغتصبون فى كل العصور. والحق الفلسطينى لن يعود لأصحابه الا باستمرار نضالهم الذى تواصل عبر سبعة أجيال وسوف يمتد موقظاً الضمائر والإرادات لدى الجميع ومتوجهاً بصلابة نحو تحقيق هدفه النبيل مهما طال الزمن.

الأهرام – ٦/ ٣/ ٢٠٠١

2 الانتفاضة طريق الخلاص للفلسطينيين

لقد أكدت الانتفاضة الفلسطينية دروس وخبرة حركات التحرر الوطنى التى انطلقت فى ظل موازين القوى العالمية التى لم تكن فى صالحها، وانتهت بالانتصار، إذ أكدت أن القوة ليست مفهوماً مادياً فحسب، بل لها بعد معنوى مهم، وأن أساليب وأنماط استخدام القوة قد تعوض الخلل فى موازينها المادية.

كما أثبتت فشل سياسة التفاوض فى ظل اختلال موازين القوة، فهى لا يمكن أن تفضى إلا إلى تسويات مذلة، وأن ممارسة النضال التحررى وحدها هى التى يمكن أن تؤدى إلى مفاوضات مشرفة بعد أن يتأكد الخصم الاستعمارى أنه أمام خصم يستحيل كسر إرادته ومن ثم يصبح التفاوض أمراً ضرورياً.

لقد ردت الانتفاضة الفلسطينية على هؤلاء المتخوفين من استمرار النزيف الفلسطينى دون ثمة أمل فى الوصول إلى تحقيق النصر، فالواقع أن كل حركات التحرر الوطنى قد اضطرت إلى ممارسة النضال، بتضحيات مادية وبشرية هائلة، كى تحصل على حقوقها، فلم يحدث أن تنازل الاستعمار عن مستعمراته طوعاً..

هذه دروس الثورة الجزائرية، والشعوب الأفريقية فى أنجولا، وموزمبيق، وزيمبابوى، وناميبيا، وجنوب أفريقيا، والشعب الفيتنامى العظيم.

لقد استمر النضال الفلسطينى رغم ضعف ظهيره العربى وتواطؤ وعجز الحكومات العربية والمناخ العالمى المعادى، إذ أدرك الشعب الفلسطينى الحقيقة

القاسية التى تتلخص فى ضرورة أن يسترد زمام القضية بنفسه، ولا يتركها فى أيدى القيادات العربية العاجزة والمتواطئة ومن هنا كانت الانتفاضة الأولى فى ديسمبر ١٩٨٧م، والتى جاء اتفاق أوسلو للقضاء عليها، ثم قامت الانتفاضة الثانية فى سبتمبر عام ٢٠٠٠م كى تزيل وصم أوسلو، فقد أدرك الشعب الفلسطينى أن النضال الوطنى هو الخيار الوحيد المتاح لمواجهة الاحتلال الصهيونى الاقتلاعى، لأن البديل الآخر هو الامتناع عن المقاومة، مما يعنى الحفاظ على استمرار الخلل فى ميزان القوى بين الشعب الفلسطينى والإسرائيليين، وصولاً إلى تكريس الوضع الراهن أو تحقيق التسوية المذلة.

ولقد نجحت الانتفاضة الفلسطينية خلال عام واحد فى تحقيق ثلاثة إنجازات مهمة، أولها: إظهار وإبراز قدرة المواطن الفلسطينى العادى فى مواجهة القوى العاتية، سواء كانت إسرائيل أو أمريكا، أو الحكومات العربية بما فيها السلطة الفلسطينية، إذ أصبحت جميعها على مرمى حجر فى يده بعد أن سقطت هيبتها ورهبتها.

كما نجحت الانتفاضة فى تحقيق الوحدة الوطنية فى الشارع الفلسطينى.. إذ أسقطت الخلافات الحزبية بين الفصائل الفلسطينية وأعلت الشأن الوطنى على ما هو حزبى.

ويتمثل الإنجاز الثانى، فى الصمود الرائع للشعب الفلسطينى أمام الآلية العسكرية الإسرائيلية، إذ برزت قدرتها على الرد الموجع للعنف الصهيونى وإيقاع خسائر كبيرة لدى الجانب الإسرائيلى، تمثلت فى ضرب السياحة، وزيادة الهجرة العكسية، وتباطؤ الهجرة الوافدة، وانتزاع الإحساس بالأمان لدى الإسرائيليين. أما الإنجاز الثالث على المستوى العربى، فقد ضخت الانتفاضة دماء جديدة للذاكرة

والإرادة القومية وجددت حركة المقاطعة للعدو الإسرائيلى، رغم القيود الكثيرة التى لا تزال تكبل الحركة الشعبية فى الوطن العربى، إن الموقف الدولى تجاه الانتفاضة لا يزال متراجعاً ومنحازاً للادعاءات الإسرائيلية ولا شك أن استمرار الانتفاضة هو طريق الخلاص الوحيد للشعب الفلسطينى لإجبار العالم على الاعتراف بحقوقه الوطنية المشروعة.

صوت الجامعة ٧ نوفمبر ٢٠٠١

3 المؤرخون الجدد

هناك ظاهرة جديدة تستحق لانتباه تتعلق بما يسمى المؤرخون الجدد داخل إسرائيل وخارجها ويعمل معظم أعضائها فى الجامعات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية فى حقول معرفية مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس ويقدمون فى دراساتهم رؤية تحليلية لواقع الكيان الصهيونى تختلف جذرياً عن الرؤية الرسمية التى عملت إسرائيل على إشاعتها وغرسها فى الوعى الإسرائيلى والغربى عبر وسائل الإعلام ومناهج التعليم والأفلام والمسلسلات. وتعد كتابات هؤلاء المؤرخون الجدد بمثابة صدمة للوعى الصهيونى الذى تغذى طوال ما يزيد على نصف قرن على أساطير ملفقة زائفة تتحدث عن طهارة السلاح اليهودى وبراءة إسرائيل من عمليات طرد الفلسطينيين وذبحهم وترحيب إسرائيل بالسلام فى الوقت الذى رفض العرب مد يدهم إليها وتعد دراسة الباحث الإسرائيلى بينى موريس عن «نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧-١٩٤٨) بمثابة البداية الفعلية لتيار المؤرخين الجدد وقد أثارت ضجة كبرى لدى المؤسسين الأكاديمية والسياسية فى إسرائيل بسبب تفكيكها أسطورة الرواية الرسمية حول موضوع اللاجئين وإبرازها الدور الذى قامت به المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى طرد أعداد ضخمة من الفلسطينيين بقوة السلاح حتى عام ١٩٥٠ ومن أبرز هذه الدراسات التى جمعها الكاتب الفلسطينى حسن خضر فى كتاب بعنوان «الأوانى المهشمة – دراسات فى نقد الصهيونية» رام الله – مارس ٢٠٠١ تلك الدراسة التى

قدمها بيت هالحمى الأستاذ بجامعة حيفا والمتخصص فى علم نفس الدين حيث أبرز أن إسرائيل تعيش منذ عام ١٩٧٣ أزمة مرجعية وإيمان ويعزو الكاتب الأسباب الكامنة وراء الشعور الحاد بتفكك المجتمع إلى الزلزال الذى ضرب إسرائيل فى حرب ١٩٧٣ ثم حرب لبنان ١٩٨٢ – ١٩٨٥ وجاءت الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ كى تقضى على ما تبقى من وهم القوة الإسرائيلية التى لا تقهر والرؤية الصهيونية التى وعدت بانتهاء التاريخ المأساوى لليهود لم تفعل شيئاً من هذا القبيل وأصبحت إسرائيل فصلاً جديداً فى تاريخ المحنة اليهودية.. فقد أجبرت الانتفاضة الأولى المجتمع الإسرائيلى على فتح عيونه على حقيقة وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين وأخذ الشباب الإسرائيلى الذى حاولت المؤسسة السياسية المنافقة أن تزين له مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» يتساءل عن الحل وعن الساسة الذين يتكلمون عن الديمقراطية فيما هم يمارسون الاستعمار.

ويختتم الكاتب دراسته بضرورة التعامل مع قيام الدولة العبرية بوصفها فعلاً كولونياليا ينتمى فى طبيعته إلى التفكير الاستعمارى الأوروبى خلال القرن التاسع عشر الذى كان يستند إلى نظريات التفوق العرقي والعنصرية العلمية التى بررت هيمنة الاستعمار على الشعوب الأدنى عرقياً ويرى أن أباء الحركة الصهيونية بدءاً من هرتزل وانتهاء بوايزمان نظروا إلى الفلسطينيين نظرة أوروبية متمركزة على ذاتها. ويواصل الباحث «يورى رام» تأكيد نفس الفكرة التى تنظر إلى المجتمع الإسرائيلى بصفته نوعاً من المجتمعات الكولونيالية الاستيطانية إذ يتناقض مع صميم الفكر العربى الفلسطينى.. وقد انتقلت هذه الرؤية إلى الدوائر الرادكالية الغربية فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات وبرزت على الأخص فى دراسة المستشرق الفرنسى

مكسيم ردولسون «إسرائيل – دولة استعمار استيطاني» ويرى يوري أن المنظور الكولونيالي في دراسة الصهيونية يؤدي إلى تغيير رؤية علم الاجتماع الإسرائيلي الذي كان يتجاهل في الماضي الفلسطينيين وحقوقهم كشعب كما ينظر إلى الجولة الثانية من الاستعمار بعد فتح الحدود عام ١٩٦٧ إنها لا تمثل فقط تشويها لحقوق الفلسطينيين وعرقلة الحل السلمي بل تعد خطراً يتهدد نسيج الثقافة السياسية الديمقراطية في المجتمع الإسرائيلي نفسه.. رغم ما يقال عن عزلة هذه الدراسات داخل الأطر الأكاديمية وعدم قدرتها على التأثير في صانع القرار الإسرائيلي ورغم الموقف العدائي الذي تقفه منها الأوساط الثقافية السائدة في إسرائيل علاوة على عدم قدرة معظم هؤلاء الباحثين على الاعتراف بالخطأ التاريخي الذي تمثل في قيام إسرائيل على أرض الفلسطينيين إلا أن كل هذا لا يمنع من القول إننا إزاء ظاهرة تستحق الاهتمام والبحث عن أسباب ظهورها في مجتمع إسرائيل المأزوم والذي يبحث عن حلول حتى ولو كانت حرب شاملة تستنزف طاقات شعوب العالم العربي بأكمله.

صوت الجامعة – ٢ أبريل ٢٠٠٢

4 اليوم الأسود في تاريخ الوطن

عندما تعالت أصوات تلاميذ المدارس الابتدائى تهتف «بالروح بالدم نفديك يا فلسطين».. زرفت عيناى الدموع ونظرت إلى جانبى رأيت الدكتورة أمينة رشيد وقد انسابت دموعها وأخذت تحتضننى بشدة قائلة «المبادئ اللى اتحبسنا واعتقلنا وطردنا من الجامعة بسببها لم تذهب هدراً» وكنا نتقدم مع سائر أساتذة جامعة القاهرة صفوف المتظاهرين من شباب الجامعة الذين احتشدوا بالآلاف أمام قبة الجامعة وتسلقوا الأبواب الحديدية رافعين الأعلام الفلسطينية مرددين الهتافات «فلسطين عربية» و«أول مطلب للجماهير قفل السفارة وطرد السفير» و«أول مطلب للجميع وقف يا حسنى التطبيع» و«الصهاينة الأندال ياما قتلوا منا رجال» التفت إلى الدكتور حسن حنفى «حقاً لم نكن نحرث فى البحر انظر إلى هؤلاء الشباب أنهم جميعاً ولدوا وتربوا فى ظل اتفاقية «كامب ديفيد» التى دشنت الصلح مع العدو الصهيونى وأعادت إلينا سيناء منقوصة السيادة وأعطت الحق لمغتصبى أوطاننا أن يأتوا إلى داخل ديارنا يرفعون فوقها أعلامهم يدنسون أرض الوطن ينشرون الفساد ويبذرون البوار فى أرضنا الخصبة ويستقطبون ضعاف النفوس والانتهازين ويستميتون فى نشر أساطيرهم المضللة من خلال الدعايات المسمومة ولكن ها هم أبناء مصر من الأجيال الجديدة يؤكدون الحقيقة الساطعة التى رسخها الآباء والأجداد بدمائهم إن قضية فلسطين قضية مصرية وإن الأمن القومى المصرى لن يتحقق فى يوم ما إلا باستعادة الشعب الفلسطينى لسيادته الوطنية على كامل

التراب الوطني المغتصب.

وعادت بى الذاكرة إلى عام ١٩٧٩ عندما احتشد المثقفون المصريون للرد على اتفاقية كامب ديفيد التى أبرمها السادات مع العدو الصهيونى وشكلنا لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ضد الغزو الصهيونى والإمبريالى وبدأت سلسلة المواجهات بين ضمير الأمة واتفاقية الاستسلام كانت البداية فى معرض الكتاب عام ١٩٨٠ عندما تظاهرنا لمنع إقامة جناحاً للإسرائيليين فى المعرض واعتقلت المجموعة الأولى وفرج عنها بعد شهر وتوالت اجتماعاتنا وانضمت إلينا نقابات الصحفيين والمحامين ثم المهندسين والأطباء واتحاد العمال واتحاد طلاب الجامعات.

ولا أنسى اليوم الأسود فى تاريخ الوطن ٢٦ مارس ١٩٨٧ يوم فتح السفارة الإسرائيلية عندما ذهبت إلى الكلية مرتدية ثوب الحداد وقد وضعت على صورى العلم الفلسطينى أحطت رقبتى بسلسلة فضية تحمل خريطة فلسطين وكان من المفروض أن ألقى محاضرة لطلاب السنة الرابعة بقسم الصحافة عن تحليل المضمون أخبرتهم بأن الوطن يتعرض لهجمة شرسة تتدثر بأثواب السلام وعليهم أن يختاروا.. أن نتحدث عن تحليل المضمون أو القضية الفلسطينية فهتفوا بحماس «القضية الفلسطينية» وشكلنا فريقين أحدهما يتحدث عن مزايا كامب ديفيد والآخر يتحدث عن المخاطر التى تحملها لنا كمصريين وكعرب ومرت الأيام وفى ٥ سبتمبر ١٩٨١ أعلن السادات قراره باعتقال ١٥٣٦ مصرياً من المعارضين لسياساته وكنت وقتئذ أشارك فى أحد مؤتمرات الأمم المتحدة فى برلين عن التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا وفلسطين ونشرت الصحف أسماء المعتقلين وتصدرت صورتى الصفحة الأولى في صحيفة الأهرام وحاول الأصدقاء منعى من العودة إلى مصر ولكنى أقنعتهم بأن «السجن فى وطنى أفضل لى من الضياع فى أوروبا». وفى

الطائرة العائدة إلى مصر حاولت أن أمهد الموضوع لابنى الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة ووجدت فى المطار مظاهرة بوليسية تنتظرنى ذهب أبنى مع والده وذهبت أنا فى سيارة مصفحة يحيط بى جمع من العساكر المدججين بالسونكى والطبنجات ذهبت إلى مقر مباحث أمن الدولة بوزارة الداخلية طلبوا منى أن أكتب التماساً للسيد الرئيس أتراجع فيه عن موقفى وأعلن توبتى صاحت أمى فى وجوههم مستنكرة ورافضة قائلة «لقد علمت أولادى منذ حرب فلسطين أن أشقائى وأبناء عمومتى الذين استشهدوا فى هذه الحرب كانوا شهداء دفاعاً عن مصر وشرفها وعروبتها وأن معركتنا فى فلسطين هى دفاعاً عن مصر وشعبها ومستقبل أبنائها» صمتوا وذهبت إلى سجن النساء بالقناطر وجدت فى انتظارى كوكبة من المناضلات المصريات د. لطيفة الزيات أستاذتى ومعلمتى وأبرز القيادات الوطنية فى انتفاضة ١٩٤٦ ووجدت د. نوال السعداوى ود. أمينة رشيد والكاتبة صافيناز كاظم ومجموعة من الفتيات المسلمات المحجبات وكانت التهمة الخيانة العظمى مكثنا فى السجن مائة يوم ووزعنا المسئوليات وقمنا بمحو أمية إحدى الفتيات من رفيقات العنبر وخصصنا أوقات النهار للمحاضرات عن الأدب وتاريخ الحضارة وفن وتاريخ مصر والوطن العربى وكان التواصل بيننا وبين العنبر البعيد الذى كان يضم فريدة النقاش وشاهندة مقلد اللتان تم اعتقالهما قبلنا بعدة أشهر كان يتم التواصل يومياً من خلال السجينات حرمونا من الصحف ومن الكتب والورق والأقلام وكانت أمى تحضر كل يوم اثنين تحمل الأطعمة والفواكه والصحف بعد السماح لنا بذلك بعد شهر ونصف الشهر وكانت الأصوات تنبعث من الزنازين مساء كل يوم اثنين مرددة أغنية «مصر يا أمة يا بهية يا أم طرحة وجلابية الزمن راح وأنت جاية.. إلخ».

اغتيل السادات فى ٦ أكتوبر وسمعنا الخبر من راديو ترانزستور أهدته لنا سراً إحدى تاجرات المخدرات «الحاجة مناعة» وكنا نذهب أسبوعياً للتحقيق معنا أمام المدعى الاشتراكى لم يجرؤ السادات ومعاونوه أن يوجهوا لنا التهمة الحقيقية وهى معاداة كامب ديفيد بل لفقوا لنا تهمة العمالة للاتحاد السوفيتى وكان التحقيق يدور حول تسجيلات عن مواقفنا من كامب ديفيد وقد تألمت كثيراً عندما واجهونى بالمحاضرة التى ألقيتها على طلابى يوم ٢٦ مارس ١٩٧٨ وكانوا قد اندسوا بين طلابى وسجلوها فى المدرج ذلك المحراب المقدس انتهكوا حرمته وسجلوا لى ولطلابى أصوات ضمائرنا التى أعلناها بشجاعة. جاء الرئيس حسنى مبارك فأفرج عنا جميعاً وأعادنا إلى جامعاتنا ومواقعنا الوظيفية وكانوا قد نقلونى إلى وزارة الإسكان ونقلوا زملائى ٦٧ أستاذاً جامعياً إلى وزارات أخرى عدنا إلى مواقعنا كى نواصل رسالتنا نحمل لأجيالنا الجديدة الوعى الصحيح بتاريخ الوطن ونضال أبنائه من أجل العزة والكرامة والسيادة الحقيقية.. وللحديث بقية.

صوت الجامعة – ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢

5 السلام والاستسلام

ظلت أبواق الدعاية تدق على مدى عشرين عاماً تروج لما يسمى ثقافة السلام باعتبارها مطلباً حيوياً لجميع الشعوب ولكن أى سلام وأى شعوب تقصدون؟ نعم السلام شرط ضرورى لتهيئة الظروف الآمنة للشعوب المستقرة فى أوطانها كى تواصل دورها فى إنتاج الحضارة الإنسانية وازدهارها ولكن هل يمكن الحديث عن السلام بين الشعوب المقهورة وجلاديها وهل يمكن الترويج للسلام بين الشعوب ومغتصبى الأوطان؟.. وهل يمكن أن يترعرع الأطفال ويتشبعون بما يسمى ثقافة السلام وهم يرون آباءهم يقتلون وأمهاتهم تسبى وبيوتهم تدمر فوق رءوسهم وأراضي أجدادهم تنهب عنوة وينتزعون بوحشية من أحضان أوطانهم ويلقى بهم فى العراء ويتم هذا كله تحت سمع وبصر الأمم المتحدة راعية حقوق الشعوب وبمساندة ومباركة القطب الأوحد الذى يتحكم فى مصائر البشرية وأعنى به الولايات المتحدة الأمريكية.. لقد حرصت أمريكا طوال عقدين كاملين على أن تعطى مشروعية أخلاقية وسياسية للكيان الصهيونى وممارساته الوحشية ضد الشعب الفلسطينى ووظفت جميع المنظمات الدولية ووسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة وجمعيات حقوق الإنسان والجامعات ومراكز البحوث ظلت تحاصرنا أينما توجهنا بخطب رنانة ودراسات مزيفة وندوات ومؤتمرات دعائية مكشوفة تضلل الرأى العام وتزيف التاريخ وتستقطب الأعوان والمؤيدين حتى جاء زمن كاد يصدق البعض أكذوبة المحرقة النازية لليهود الأوروبيين ويتعاطف

مع مآساتهم حتى ولو تم حلها على حساب شعب آخر فى قارة أخرى يضم بين صفوفه يهوداً عرفوا كرم العيش واستمتعوا بالأمان خلال عدة قرون ولم يتعرضوا للقهر والأذى أو الاحتقار والازدراء كما حدث لأبناء ديانتهم فى ربوع أوروبا.

لقد أنفقنا الكثير من الوقت والجهد كى نوضح للرأى العام داخل أوطاننا الفرق بين السلام والاستسلام وبين كثير من المفاهيم السامية وتطبيقاتها الخبيثة المغرضة مثل الرسالة الحضارية للرجل الأبيض والتى رفعها المستعمرون الأوربيون كشعار خادع استطاعوا فى ظله أن يستعبدوا شعوب الجنوب وينهبوا ثرواته ويستذلوا أبناءه على مدى قرنين وأكثر وكانت الحركة الصهيونية آخر الحلقات الاستعمارية التى استوعبت تجارب الاستعمار التقليدى المباشر والاستيطانى المتجبر وأضافت إليها مخزون التجربة النازية وابتدعت أساليب جديدة تمثلت فى تشريد واقتلاع شعب كامل من أرضه وإلقائه فى مخيمات الضياع والنفى مستثمرة الظروف الدولية ومساندة بريطانيا العظمى ثم أمريكا الأعظم ومستفيدة من غفلة وتفكك العالم العربى وخيانة بعض حكامه ومستندة إلى الخدعة الكبرى «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» واطمأنت الشعوب الأوروبية إلى الخلاص نهائياً من المشكلة اليهودية التى سببت لهم عذابات وأوجاعاً لا تزال محفورة تحت جلودهم استكانت ضمائرهم عندما أزاحوا عن كاهلهم هذا الورم الخبيث وألقوا به إلى عالمنا العربى التعيس. لقد ظل الرأى العام الأوروبى على مدى أربعين عاماً بعد وقوع نكبة ضياع فلسطين واستيلاء الصهاينة عليها لا يعترفون بكلمة فلسطين ويزيحونها عمداً عن أسماعهم وأبصارهم إراحة لضمائرهم وحرصاً على استبعاد عودة هذا الشبح الوباء، عودة اليهود إلى الأوطان التى نزحوا منها بولندا وألمانيا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا.. إلخ ولكن مهما غابت الحقيقة طويلاً فإنها لا تموت ولا تندثر طالما هناك بشر يمتلكونها

ويفقأون بها عيون العميان والمتعامين.. ظهر الشعب الفلسطيني المشرد والمشتت فى أكثر من خمسين دولة برز كياناً موحداً فى منظمة التحرير الفلسطينية وواصل مسيرة الآباء منذ صدور الوعد المشئوم وعد بلفور وتوالت المعارك والحروب وكانت مصر هدفاً رئيسياً حرصت الصهيونية على كسر شوكتها واحتوائها لأنها كانت تدرك مبكراً استحالة تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين دون احتواء مصر حرباً أو سلما وقد عبر عن ذلك هرتزل فى زيارته لمصر عام ١٩٠٤ عندما قال فى خطبته الشهيرة بنادى المكابى بالفجالة «من هنا نبدأ من مصر طريقنا الوحيد إلى فلسطين».

وعلينا نحن المصريين أن ندرك هذه الحقيقة كما أدركها الصهاينة وحرصوا على تطبيقها بجميع الوسائل فى الحرب وفى السلم فإذا كانت فلسطين هى البوابة الشرقية لمصر فإن مصر هى العمق التاريخى والحضارى والبشرى لفلسطين، هذا ما تؤكده حقائق التاريخ وخبرة أربع حروب فقدنا خلالها ١٥٠ ألف شهيد مصرى قتلهم الصهاينة عدا الأسرى والمعوقين فهل وعينا الدرس؟!

صوت الجامعة – ١٧ إبريل ٢٠٠٢

6 حوار أمريكي فلسطيني

فى ظل الملحمة البطولية للشعب الفلسطينى فى مواجهة المذابح وحرب الإبادة الإسرائيلية وصل إلى أسماعنا هذا الحوار بين مواطن أمريكى وآخر فلسطينى..

الأمريكى: لماذا كل هذا الحقد على أمريكا ولماذا الابتهاج والرقص لدى بعض العرب على ما حدث فى نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر ونحن لم نرقص ابتهاجاً بقتل الفلسطينيين والعرب.

الفلسطينى: سوف أرد عليك بسؤال.. لماذا كل هذا التجاهل للحقوق العربية فى فسطين والعراق؟ نعم معظمنا حاقد على السياسة الأمريكية وانحيازها وتغطيتها جرائم إسرائيل وساخط على إصرار أمريكا على ضرب ومحاصرة الشعب العراقى.. نحن ضد قتل الأبرياء فى كل مكان فى فلسطين والعراق وفى أمريكا وأفغانستان ولكننا فى ذات الوقت ضد السياسات الأمريكية المعادية لنا والتى تتجسد فى تزويد إسرائيل بأحدث الأسلحة الالكترونية لإبادة الشعب الفلسطينى وتدمير منازله واغتيال أطفاله وقياداته والإصرار على حرمانه من الحماية الدولية التى نطالب بها منذ اندلاع الانتفاضة وأسألك هل توافق على ذلك؟!

الأمريكى: ماذا يريد الفلسطينيون بالضبط..؟

الفلسطينى: إنهم يريدون استرداد أرضهم المغتصبة وتطبيق قرارات الشريعة الدولية ٢٤٢، ٣٣٨، ١٩٤.

الأمريكى: وهل هناك أمريكيون يحاربون فى الصفوف الإسرائيلية ضدكم؟ إنه

صراع إقليمى بين قوتين ويجب أن يحل بالطرق السلمية والتفاوض بينهما.

الفلسطيني: لقد حاولنا منذ مؤتمر مدريد واتفاق أوسلو أن نخوض الطريق السليم ولكن التعنت الإسرائيلي هو الذى دفعنا إلى حمل الحجارة ولا أقول الأسلحة النارية ضد من أغتصبوا أرضنا وشردوا شعبنا.

الأمريكي: يجب أن تتعاون كل الدول لاقتلاع الإرهاب من جذوره.

الفلسطيني: أود أن أوضح لك أن هناك فرقًا كبيرًا وجذرياً بين ما تسمونه إرهاباً وبين المقاومة الوطنية المشروعة ضد الاحتلال والتى يقرها القانون الدولى كما أن التاريخ الأوروبى والأمريكى ملىء بصور المقاومة فلماذا تحرمون علينا ما تحلونه لأنفسكم، إن العنف الفلسطينى ناجم طوال تاريخه من تجاهل المجتمع الدولى وصمته عن مأساة الشعب الفلسطينى ومطالبه المشروعة لاستعادة أرضه وإقامة دولته المستقلة.

أنتم تقولون إنكم لم تشاركوا بجنود أمريكيين لمحاربتنا بشكل مباشر ولكنكم تدعمون إسرائيل مادياً بالسلاح والمعونات الاقتصادية وسياسياً بالفيتو الأمريكى فى الأمم المتحدة بتأييد غطرستها وعدم التزامها بقوانين الشرعية الدولية، وأكرر سؤالى لماذا إصراركم على معاداتنا وتجاهلكم لحقوقنا ولماذا تدفعوننا إلى اليأس والإحباط والتضحية بحياة الآلاف من شبابنا وأطفالنا دون ذنب جنيناه ضد أمريكا أو سواها من الدول.. وأود أن أؤكد لك أن محاربة الإرهاب من جذوره كما تدعون لا يتحقق من خلال شن حرباً على ملايين الأبرياء من المسلمين والعرب واستمراركم فى ازدواجية المعايير ومساندة نظم الحكم الدكتاتورية والفاشية الفاسدة لأن الإرهاب يتغذى من غياب العدل على المستوى الدولى ومن الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة ومن تجاهل الحقوق المشروعة للشعوب فلماذا تطلبون منا أن نساندكم وأنتم تتجاهلون أبسط حقوقنا حقنا فى الحياة الكريمة التى تتمتعون بها وتحرمونها على سواكم.

صوت الجامعة ٢٤ أبريل ٢٠٠٢

7 نكبتنا وعيد استقلالهم

جاءتنى صحفية تعمل فى إحدى الصحف المستقلة لإجراء حوار معى عن هؤلاء الذين كانوا يروجون للتطبيع مع إسرائيل ويتظاهرون الآن بتأييد المقاومة الفلسطينية فى مواجهة حرب الإبادة الصهيونية بادرتنى بالقول «أريد أن أعرف أين كان هؤلاء عندما كان يناضل الفلسطينيون من أجل حقوقهم الوطنية المشروعة بينما كان هؤلاء يرفعون أعلام التطبيع ويتبادلون الزيارات مع الإسرائيليين ويستقدمون الوفود الإسرائيلية كسياح وكخبراء فى الزراعة بل ولا يستنكفون مشاركة أعضاء السفارة الإسرائيلية فى مصر فى احتفالهم بيوم ١٥ مايو الذى يعتبرونه عيد استقلالهم وهو فى الواقع أسود يوم فى التاريخ العربى يوم اغتصاب فلسطين وتسليمها للصهاينة، تحت مظلة كامب ديفيد والصلح مع العدو الصهيونى قام الإسرائيليون على مدى عشرين عاماً بمسح المجتمع المصرى من أسوان إلى مرسى مطروح وتسللوا إلى كل الأماكن والمواقع الهامة والحساسة فى كل قرية ومحافظة وميناء ودير ومدرسة ومستشفى فى شمال مصر وجنوبها وانتهكوا خصوصياتنا وسبروا أغوار خفايانا وكوامن أسرارنا الحياتية وفى اللحظة المناسبة لهم هددونا بضرب السد العالى، قلت لها ولكن المظاهرات التى شارك فيها الآلاف من شباب مصر وأطفالها ونسائها أكدت بما لا يقبل الجدل أن مصر الحقيقية ترفض الوجود الصهيونى وتدرك بفطرتها وبتاريخ شهدائها أنه لا سلام ولا استسلام لكل أشكال المساومة والتواطؤ والخداع وإذا كان هناك فئة ضالة قد انساقت خلف الأوهام فإن

مصر بتراثها الوطني وضميرها القومي ووعي طلائعها المستنيرة والملتزمة قد اكتسحت هؤلاء المتنطعون كما كشفتهم وقاطعتهم منذ البداية ودليل ذلك موقف النقابات المهنية ونوادي أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الذين قاطعوا التطبيع وجرموا كل من تسول له نفسه أو مصالحه الأنانية زيارة إسرائيل أو إقامة علاقات معها.

واصلت الصحفية حديثها بانفعال قائلة: لماذا يقول هؤلاء المطبعون والمروجون للصلح مع العدو الصهيوني بعد أن انكشفت الأستار وزال الوهم؟ ماذا يقول الوزراء الذين كرسوا جهود وزاراتهم لخدمة الإسرائيليين وأصبحت مكاتبهم مزاراً دائماً للوفود الصهيونية؟ ماذا يقول الكتاب والصحفيين الذين زاروا إسرائيل عدة مرات وأصبحوا أبواقاً للترويج للصلح مع العدو الصهيوني وتطبيع العلاقات معه؟ ولماذا يظل الصحفيون الذين كشفوا بالوثائق والأدلة الدافعة أهوال التخريب الذي ألحقه الإسرائيليون بالزراعة المصرية وحولوا حقولنا الخصبة إلى أراضي بور بتقاويهم المسمومة ألا يدعونا ذلك إلى إعادة النظر في مفهوم التطبيع ذاته؟ نتساءل ثم تجيب: إنني أرى أن التطبيع يعني في الأساس عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعي مع الدول التي تربطنا بها مصالح وعلاقات تاريخية، أما العدو الصهيوني الذي يهدد وجودنا ذاته وليس مصالحنا وأمننا القومي فحسب هل يمكن إقامة علاقات طبيعية معه؟ إن التطبيع مع إسرائيل يعني في جوهرة عودة العلاقات إلى وضعها الطبيعي أي العداء والخصومة التاريخية والآنية والمستقبلية مع هؤلاء الذين جاءوا من الدول الأوروبية كي يغتصبوا أراضينا وينتهكوا حقوقنا ويشردوا أهلنا في فلسطين وبدلاً من أن يحلوا مشكلتهم مع أوطانهم الأوروبية التي اضطهدتهم ولفظتهم وصدرت أزمتهم إلى العالم العربي دون ذنب جنيناه جاءوا إلينا كغزاة

وسفاحين، نتساءل مرة أخرى: هل نحن مسئولون عن المشكلة اليهودية إنها مشكلة أوروبية ويجب أن يحلها هؤلاء الذين خلقوها.. صمتت الصحفية قليلاً ثم استطردت: حتى المطربين أصبحوا يجيدون الأغاني ويتغزلون في الشعب الفلسطيني وبطولاته أين كانوا في السنوات الماضية عندما كانوا يصدعون رؤوسنا بالأغاني التافهة والهابطة؟ هنا تدخلت كي أهدئ من انفعالها وأوضح لها بعض الأمور قلت لها: باعتبارك دارسة للتاريخ سوف تفهمين جيداً ما سوف أقوله لك.. يخبرنا التاريخ العربي وعلى الأخص المصري والفلسطيني في فترات المد الثوري والوطني يصبح جميع الناس وطنيين حتى الراقصات وتجار المخدرات وفي فترات الجذر والتراجع والاستسلام لسطوة القوى الأجنبية يظهر الوطنيون الحقيقيون المستوعبون لتاريخ أوطانهم يقبضون على ثوابتهم الوطنية كالقابضين على الجمر يواصلون مسيرة النضال بدأب وصلابة لا يحنون رؤوسهم ولا ترهبهم الضغوط والسجون والمعتقلات مهما اشتدت وطأتها ولا تبهرهم الإغراءات من مناصب وأموال مهما سطع بريقها الزائف.. هذه قصتنا قصة الشعب المصري مع التطبيع ولكن أود أن ألفت نظرك إلى أن تصاعد النضال الفلسطيني وبطولات الاستشهاديين في مواجهة المغتصب الصهيوني هي صاحبة الفضل الأول والأساسي في كشف الاستار المضللة التي نسجتها الصهيونية منذ أوائل القرن العشرين وتحالف معها المتواطئون والمستسلمون من الحكومات العربية، وجماعات المصالح، لقد انكشفت حقيقة الصهيونية كحركة عنصرية استعمارية، لقد أصبح القاضي والداني من بلجيكا شمالاً إلى جنوب أفريقيا جنوباً والصين شرقاً والأرجنتين غرباً أصبح الجميع في جميع أنحاء الأرض يدركون حقيقة الوطن الفلسطيني المغتصب وحقيقة الصهيونية وزبانيتها من العملاء الخونة، هدأت الصحفية ثم قالت: ولكن لا يزال الطريق أمامنا طويلاً وشاقاً حتى يسترد الشعب

الفلسطيني سيادته على كامل ترابه الوطني وحتى تتطهر الأرض العربية من هؤلاء المغتصبين.. قلت لها: هذه ضريبة الانتماء إلى الأوطان وهذا هو الفرق بين الوطنيين الحقيقيين وبين هؤلاء الذين يسايرون الموجة والذين أسميهم خدم المراحل المنحطة في تاريخ الوطن.

صوت الجامعة – ١ مايو ٢٠٠٢

8 الانتماء للأوطان

أقامت أسرة النديم بكلية الإعلام احتفالية للتضامن مع الشعب الفلسطيني شارك فيها حشد جميل من جميع الأجيال التي تربت في أحضان اتفاقية السلام مع إسرائيل ولكنهم استطاعوا بحسهم الوطني الصادق أن ينفضوا ركام الدعاية الزائفة التي روجت لها أبواق السلطة خلال عشرين عاماً عن إمكانية الصلح والتطبيع مع لصوص الأوطان الذين لفظتهم أوطانهم الأوروبية فجاءوا إلى فلسطين ومارسوا فيها كل ألوان الإبادة والتشريد لأهلها وأصحابها الشرعيين تحت شعار ديانتهم اليهودية ووصاياها العشر التي من بينها «لا تقتل ولا تسرق»، جاء هؤلاء الشباب الذين امتدت كراهيتهم لإسرائيل كي تلتحم بكراهية أجيال سابقة عاشت وعاصرت الوجه العربي المقاوم للصهيونية وتسطع في ذاكرتها صورة أطفال مدرسة بحر البقر والأسرى المصريين الذين أجبرتهم إسرائيل على حفر قبورهم ١٥٠ ألف شهيد مصري قتلتهم الصهيونية في أربع حروب، جاء هؤلاء الشباب كي يؤكدوا ولائهم وانتمائهم للانتفاضة الفلسطينية التي أسقطت الأوهام بشأن جماعات السلام وجماعات التطبيع الذين لم تتوفر لديهم الشجاعة لعقد مؤتمر يراجعون فيه أوهامهم ويقدمون اعتذارهم للشهداء وللصامدين في فلسطين الساعين بتضحياتهم الفذة لاستعادة الكرامة والسيادة الوطنية للأرض العربية.

وقد ضمت الاحتفالية مجموعة بارزة من رموز الفكر والثقافة والسياسة والفن من المصريين والفلسطينيين وكان من بينهم حمدين صباحي عضو مجلس الشعب

والذى تخرج فى قسم الصحافة عام ١٩٧٧ وكان ولا يزال رمزاً ساطعاً لجيل السبعينيات بوعيه الوطنى الأصيل ونضاله واستمراريته منذ أن وقف فى مواجهة السادات وهو طالب صغير كى يؤكد له أنه ينتمى إلى الجيل الذى استلهم الروح الوطنية والحس القومى الأصيل للزعيم الراحل جمال عبد الناصر وأنه مع أبناء جيله أمناء على هذه الرسالة وسوف يواصلونها مهما اشتدت وطأة الظروف. وقد صدق فى وعده إذ قاوم ببسالة كافة أشكال القهر والاعتقال والتشريد وظل صلباً قابضاً على الجمر جمر انحيازه لقضايا الوطن وقضايا الفقراء. كانت المفارقة حادة بين هذا النموذج المضىء وبين نموذج آخر ينتمى لجيل التسعينيات ويمثل لحسن الحظ قلة ضئيلة معزولة فى صوامعها الفردية وأحلام الالتحاق بالغرب والانبهار بمظاهره الخادعة تلك النماذج التى يلهث بعضها خلف أوهام الهجرة أو خلف المكاسب الصغيرة التى قد تمنحهم قدراً من الجاه أو النفوذ أو المال ويعتقدون أن الاهتمام بالقضايا العامة ضرباً من المخاطرة التى قد تهدد مكانتهم العلمية الناشئة أو قد تنتزع من داخلهم الطمأنينة الخادعة التى تغلف حياتهم ويتجاهلون عن عمد أن للوطن ضريبة عليهم أن يدفعوها هذا الوطن الذى أعطاهم الكثير منحهم شرف الانتماء له ورعاهم صغاراً واحتضنهم كباراً ولولا هذه الرعاية ما تمكنوا من السفر للخارج والوقوف انداداً لأولئك الأمريكيين والأوروبيين ولولا العلم الذى تلقوه فى مدارس وجامعات الوطن ولولا الرعاية التى أسبغها عليهم أساتذتهم لولا المحبة التى منحها لهم ذويهم بلا شروط لولا كل هذا لكانوا كائنات هشة تائهة بلا تاريخ ولا مستقبل.

تمنيت لو شارك هذا النموذج فى الاحتفالية واستمع إلى كلمات المتحدثين الذين مثلوا كافة التيارات الفكرية والسياسية الإسلامية والليبرالية والماركسية والناصرية

وتحدثوا بقلب وعقل وصبر رجل واحد عن القضية المركزية قضية فلسطين التى كانت على امتداد قرن كامل ولا تزال تمثل قلب وجوهر القضية الوطنية المصرية ولم تحل اختلافاتهم الفكرية والأيديولوجية دون التوحد والالتفاف حول القضية التى تمس صميم الأمن القومى المصرى حيث أكد جميعهم أن المعركة الدائرة حالياً فى فلسطين هى معركة تتعلق بمستقبل مصر بنفس القدر الذى سوف يتحدد به مستقبل القضية الفلسطينية وأن أى تشويه أو تهوين لهذه الحقيقة هو تشويه للرؤية الاستراتيجية لمستقبل مصر فلا سلام ولا تنمية فى ظل التهديد النووى والعسكرى الإسرائيلى تمنيت لو أدرك هذا النموذج أن النقاش والجدل والاختلاف فى الرأى هو سمة الواثقين بأنفسهم القادرين على التمييز بين ما هو ذاتياً يخصهم وما هو موضوعياً يخص قضايا الفكر والسياسة والثقافة فلا يخلطون بين ذواتهم الجاحدة وعلاقاتهم الإنسانية بمن تبنوهم ورعوهم وبين رحابة الجدل اتفاقاً واختلافاً، الجدل الذى يتجاوز حدود الذات الضيقة وينطلق باحثاً عن كل ما هو صواب لدى الآخرين يستلهمه ويتأمله وما هو خطأ فى رأيه فيصححه ويعيد النظر فيه بلا عقد أو انكفاء على الذات أو التفكير فى انتقام صغير أحمق أو انبهار بما يسمى الحداثة وما بعد الحداثة دون تأصيل أو تأمل واع لحقيقة ما يميز مجتمعنا ومسيرته التاريخية واختلافه الجذرى عن مسيرة المجتمعات الغربية وملابسات تطورها ونزعتها الاستعلائية ومحاولاتها الدؤوبة للتسلط على عقولنا ووجداننا وانتزاعنا من مجتمعاتنا وإلحاقنا بهم كمواطنين من الدرجة الثانية. لم أمنع نفسى من المقارنة بين هذا النموذج الذى يتدثر بثوب الليبرالية ويرى أن أنصار التطبيع مجرد متطرفين فى تأييدهم لإسرائيل وليسوا خارجين عن الخط الوطنى وبين حمدين صباحى ذلك الوطنى الأصيل الذى كان يسارع فور خروجه من السجن للالتحام بأهله وقضايا وطنه مقتنعاً أنه لن يكبر ولن يحقق طموحاته الشخصية إلا بهم ومعهم ومن خلال

انغماسه الصادق فى همومهم وأزماتهم وقد كبر بالفعل وسط الجموع التى وثقت به وحملته إلى مجلس الشعب نائباً عنهم ولم يمنعه أو يشغله نضاله الوطنى عن أن يحيا حياته الطبيعية كشاب أحب زميلة له بالجامعة وتزوجها وكونا معاً أسرة رائعة وانجبوا أطفالاً غرسوا فيهم حب الوطن والوعى الصحيح بقضاياه وقدموهم للوطن هدية كى يواصلوا نفس المسيرة ويبدعوا ويضيفوا كما أضاف حمدين وأبدع ولا يزال.

الأهرام – ٢٨ مايو ٢٠٠٢

9 نسف الأباطيل !

أشار الصحفى الإسرائيلى يورى شمعون فى جريدة معاريف إلى أن الجامعة العبرية قد توصلت عبر الأبحاث فى علم الجينات إلى وجود تشابه جينى بين اليهود وسكان منطقة شمال العراق، وفى أبحاث سابقة تم اكتشاف وجود تشابه جينى بين اليهود والعرب خاصة الفلسطينيين من سكان فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ والتى يطلق عليها الآن دولة إسرائيل، ويعرب الكاتب عن اعتقاده أن معظم الفلسطينيين هم أبناء اليهود أنفسهم الذين لم يهاجروا من فلسطين وان فلسطين لم تكن فى يوم من الأيام خاوية من السكان. وأتفق مع الصحفى الإسرائيلى فى الجزء الأخير وهو أن فلسطين لم تكن يوماً من الأيام خاوية من السكان كما روجت افتراءات الحركة الصهيونية وزعمت أن فلسطين أرض بلا شعب وستكون وطناً لشعب بلا أرض، ولكن الجزء الذى أخفاه هذا الصحفى الإسرائيلى عن عمد هو أن سكان فلسطين لم يكونوا كلهم يهوداً، بل شكل المسلمون والمسيحيون الأغلبية، وشكل اليهود العرب أقلية وأن هذا التقارب الجينى بين اليهود والفلسطينيين يقتصر فقط على اليهود العرب الذين عاشوا على الأرض العربية فى فلسطين واستمتعوا عبر قرون بمناخ التسامح الدينى فى ظل الحكم العربى الإسلامى، وأبرز مثال لهم مجموعة ناطورا كارتا اليهود العرب الذين يعارضون وجود دولة إسرائيل ولم يعان اليهود العرب الاضطهاد والتشريد مثلما حدث لهم على يد الحكومات الأوروبية المسيحية التى لفظتهم وطاردتهم وجعلتهم يعيشون فى مناطق معزولة عرفت باسم الجيتو

اليهودى وعندما ضاقت بهم أوروبا وأصبحوا يشكلون ما يعرف بالمشكلة اليهودية قامت بترحيلهم وألقت بأثقالهم على الأرض العربية فى فلسطين البريئة منهم ومن تبعة أضطهادهم.

ويطالب هذا الصحفى الإسرائيلى بإجراء بحث جينى للسكان العرب فى مدن طبريا وصفد وعكا والناصرة وحيفا والرملة وعسقلان والخليل والقدس لتظهر الحقائق العلمية التى تؤكد مقولاته، وأنا أتفق مع ما يطرحه هذا الصحفى الإسرائيلى ولكن بالمنطق المعكوس، وهو أن يشمل البحث الجينى اليهود القادمين من أوروبا وألا يقتصر على العرب لكى تكشف لنا الحقائق العلمية الجذور الجينية للملايين الثلاثة ونصف المليون يهودى الذين جاءوا من بولندا وروسيا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وأثيوبيا، وتنسف لنا الاحبولة والخرافة التى استند إليها الصهاينة فى تأسيس دولتهم المغتصبة. عندئذ سوف يظهر للعالم أن جميع هؤلاء اليهود النازحين من أوروبا وآفريقيا ويحملون جينات تنتمى للأجناس النوردية والآرية والزنجية وسائر الأجناس التى لا تنتمى للأرض العربية موطن الحاميين والساميين، وسوف يتأكد العالم من أن هؤلاء اليهود النازحين من أوروبا لا ينتمون للسامية التى يبتزون بها أوروبا خصوصاً ألمانيا حتى اليوم، وحينئذ سيتولى العلم نسف الأباطيل السياسية التى روجتها الصهيونية عبر قرن من الزمان.

الأهرام – ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٢

10 مصر وفلسطين

كانت أذكى بنات جيلها تربت فى عائلة أرستقراطية تميزت بالعلم والثراء وكان والدها من أشهر المحامين المصريين وأكفأهم تزوج من ابنة أستاذه كانت فتاة رقيقة مرهفة ذات ميول فنية وثقافية موسوعية أهتمت بتربية أبنائها وفقاً للصيغة العائلية المتبعة، وسار الأولاد على الدرب المرسوم لهم وتخرجوا أطباء ومهندسين والتحقت الأبنة بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب حيث تفتحت حواسها وبصيرتها على إجابات لأسئلة كانت تشغل ذهنها فى إطار السياج الطبقى الذى كان يحاصرها والمناخ العائلى المتزمت الذى نشأت فيه، ارتبطت عاطفياً بزميلها الشاعر الفلسطينى درة الدفعة وتاجها عندما فاتحت أمها قوبلت برفض قاس ولكن إصرار الفتاة كان أقوى تركت أسرتها وتزوجت الشاعر. قررت الأم أن تنشر نعيا لابنتها فى الصحف لولا تدخل حكماء الأسرة.. عاشت الفتاة تقلبات الظروف القاسية مع زوجها الفلسطينى المنتمى لأعرق عائلات الوطن الفلسطينى والتى تضم جميع ألوان الطيف من حيث الثراء والفقر فى المال والعلم والفن، والنضال السياسى والاجتماعى وينتشر أبنائها فى جميع أنحاء فلسطين إلا أنهم خرجوا جميعاً من قرية دير غسانة بالضفة الغربية. بعد حصولها على الدكتوراه من أمريكا حيث اختصرت المنحة الدراسية من أربع سنوات إلى عامين فقط، حاولت الإنجاب ولكن فشل حملها الأول وحاولت مرة أخرى وأنجبت تميم وفى شهره الثالث زار السادات القدس وكان نصيب الشاعر الفلسطينى الاعتقال فى قسم الخليفة وطرده خارج

البلاد، كانت المجر لمقر المختار للأسرة الصغيرة، لم تحتمل رضوى قسوة الظروف المتوالية أصيبت بالسرطان، قاومت ببسالة وظلت طوال ١٧ عاماً تسافر مرتين لزوجها المقيم فى بودابست وبصحبتها الطفل تميم. تحملت عذابات الفراق ومسئولية رعاية طفل ينتمى إلى قضية ووطن يتحالف ضدهم كل مرتزقة العالم وسماسرة الأوطان صمدت رضوى فى مواجهة المرض والقهر السياسى ونفى الزوج واصلت السعى فوق دروب ملغومة ومزروعة بالأشواك حتى كبر الطفل وانتمى إلى قضيته أكثر من جميع الأبناء المنحدرين من أمهات فلسطينيات وورث عن أبيه موهبة الشعر وعن أمه البحث العلمى فجمع بين فرعين يصعب الجمع بينهما العلوم السياسية والشعر وحصل على الدكتوراة من أمريكا وعمره لا يزيد عن ٢٦ عاماً توج بها رحلة طويلة وشاقة عاشها الأب فى المنفى وعاشتها الأم داخل الوطن فوق سطح من الجمر الملتهب فقد أخرجت المحنة أفضل قدراتها الإبداعية وكسبت مصر كاتبة وأستاذة ملتزمة مرموقة قدمت لفلسطين أروع هدية بشرية هى الشاعر الدكتور تميم البرغوثى.

صوت الجامعة - ٧ ديسمبر ٢٠٠٤

11 أين ضمائر الفلاسفة

إذا كانت خبرة الاعتقال والإبادة فى معسكر أوشفيتز بألمانيا النازية تعد من أكثر التجارب التي فى ذاكرة اليهود والتى تركت بصماتها على العقلية اليهودية والتى عبر عنها اودرونو أبرز فلاسفة مدرسة فرانكفورت النقدية بقوله المأثور: إنه لا شعر ولا غناء بعد أوشفيتز وعبر عنها هوركامير زعيم فلاسفة فرانكفورت (أن ظلم الماضي لن ينتهى أبدا حيث لم تلق معاناة أجيال الماضى أى تعويض) ثم يحاول هوركايمر أن يجعل هذه الواقعة التاريخية واقعة فلسفية وإنسانية عامة حينما يؤكد أن البشر الحقيقيين هم الشهداء الذين ذهبوا احتراقاً فى أفران الجحيم، حيث الإهانة والمعاناة إذ اعتبر شهداء معسكرات الاعتقال هم الرموز الحقيقية لإنسانية تناضل من أجل البقاء وتصبح مهمة العلماء والمفكرين أن يترجموا ما حدث لهم إلى لغة ينبغى أن تسمع حتى لو كان ذلك من خلال أصواتهم الضعيفة التى أسكنها الطاغية هتلر.

ترى ماذا يقول هؤلاء الفلاسفة لو كانوا قد عاصروا مذابح الإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى واغتصاب أرضهم وتدمير منازلهم وإجبارهم على الفناء أو الهجرة من جانب الحركة الصهيونية وأداتها إسرائيل طوال نصف قرن ويزيد؟ وهل كان يسعدهم ويرضى ضمائرهم ان يتم حل المشكلة اليهودية فى أوروبا على حساب شعب آخر لا ذنب له سوى أنه يشغل موقعاً استراتيجياً فى قلب الوطن العربى ويحوى بين جنباته أقدم المقدسات الدينية التى استغلت أسوأ استغلال لتبرير قيام

دولة مصطنعة على حساب الحقوق التاريخية والقانونية المشروعة لشعب يملك تراثاً وحضارة وأرضاً ينبض كل شريان فيها بالرفض والمقاومة البطولية لهؤلاء المغتصبين الأجانب الذين أتوا من كل بقاع العالم لتدمير هذا التراث الحضارى الراسخ الذى أقامه الفلسطينيون عبر مئات الأجيال فوق الأرض المقدسة؟ إذا كان ضحايا أوشفيتز هم الشهداء الحقيقيين فى نظر هؤلاء الفلاسفة فماذا عن شهداء هؤلاء الضحايا فى فلسطين؟ أى عار وأى ذل ومهانة تكلل هامة هؤلاء المفكرين والفلاسفة الذين يعاصرون مشاهد الاستشهاد ومواكب الشهداء من الفلسطينيين أطفالاً ونساء وشيوخاً وشباناً من أجل حقهم المشروع فى استعادة وطنهم الذى تتواطأ ضده جميع الأنظمة والمنظمات الدولية وتتجاهله عن عمد ضمائر الحكام وفلاسفة العصر ومفكروه، أين الأصوات الحرة التى تتشدق بحقوق الإنسان؟ أين مواكب الاحتجاج التى كان يقودها الفلاسفة والمفكرون فى قلب فرنسا دفاعاً عن حق الشعب الجزائرى فى أن يكون له وطن مستقل عن فرنسا؟ أين المظاهرات العارمة ضد نظام التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا والتى ملأت ساحات العالم الغربى والعربى والافريقى والأسيوى سنوات طويلة؟.. أين ضمير العالم؟

الأهرام – مايو ٢٠٠٥

12 القضية الفلسطينية ومأثورة بونابرت

أتذكر فى هذه الأيام الرمادية ما دار فى حديثى مع الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين فى ختام زيارتى للجزائر فى ديسمبر ١٩٦٧ والتى قمت بها بناء على دعوته لى لجمع المادة العلمية من الوثائق وإعداد صحيفة المجاهد لسان حال الثورة الجزائرية وسائر النشرات التى أصدرتها جبهة التحرير الوطنى الجزائرية أثناء الثورة علاوة على لقاء المجاهدين الذين شاركوا فى صنع إعلام الثورة، وذلك فى إطار إعدادى لرسالة الماجستير عن صحافة الثورة الجزائرية، لقد أبديت له دهشتى من الحقيقة التى فوجئت بها عندما وجدت أغلب المجاهدين يعيشون فى مبنى خاص لهم يعلوه يافطة كتب عليها «المجاهدون القدامى» بينما كان يتولى المناصب القيادية فى إدارة شئون الجزائر أشخاص لم أسمع بهم من قبل وكان أغلبهم يعيشون خارج الجزائر أثناء الثورة وعندما انتصرت الثورة بدماء أكثر من مليون شهيد جاء هؤلاء الوافدين كى يجنوا ثمارها ابتسم الرئيس بومدين وقال بسخرية لا تخلو من المرارة «هل تذكرين مأثورة بونابرت الخالدة لقد قال إن الثورة يخطط لها الأذكياء وينفذها النبلاء ويجنى ثمارها الانتهازيون».

ما أصدق هذه المقولة التى أستعيدها دوماً بروح لا تخلو من الشجن والأسى خصوصاً وأنا أتابع إبداع الاستشهاديين الفلسطينيين وبهاء تضحيتهم ونبل وجلاء صمود زوجاتهم وأمهاتهم وأطفالهم، وعندما أتأمل المشهد الفلسطينى الراهن حيث أسفرت الانتخابات الفلسطينية التى تميزت بالنزاهة والشفافية ولم تشهد أى

نوع من الانتهاكات التى حفلت بها الانتخابات النيابية فى مصر من أعمال البلطجة والرشاوى الفجة علاوة على التقاعس الأمنى ووقائع التزوير لقد أسفرت هذه الانتخابات عن فوز منظمة حماس وتراجع فتح رغم تاريخها الوطنى السابق على اتفاق أوسلو ١٩٩٣، لقد أعطى الناخب الفلسطينى درساً لا ينسى لرموز فتح الذين مزقوا منظمتهم بالتشاؤم والفساد والإثراء غير المشروع على حساب الشهداء وسكان المخيمات الصامدين ونالت حماس ثقة الشعب الفلسطينى فى الداخل بمصداقيتها وارتباطها العضوى بالهموم الحقيقية والحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطينى من خلال مئات الشهداء الذين قدموهم قرباناً من أجل تحرير الوطن الفلسطينى واستعادته حراً شامخاً مجللاً بالكرامة.. وهكذا يكون موقف الشعوب الواعية المنتمية لوطنها وقضاياه المشروعة.

صوت الجامعة – ٦ فبراير ٢٠٠٦م

13 كابوس الجامعة العبرية في ميدان التحرير

التقيت خلال زيارتى لدمشق فى الشهر الماضى بأحد طلابى الفلسطينيين القدامى وكان قادماً من الضفة الغربية وكان اللقاء فى بيت مناضل سورى من أهالى الجولان وقد قضى ثلاثة عشر عاما فى أحد السجون الإسرائيلية ودارت الحوارات حول المخططات الصهيونية لتهويد العالم العربى بعد توقيع اتفاقيات الصلح مع مصر والأردن وموريتانيا والتى أتاحت لإسرائيل فرصا غير مسبوقة لاختراق عواصم هذه الدول والتغلغل داخل مدنها وقراها والتسلل إلى منتديات مثقفيها ومؤسساتها العلمية واستقطاب رجال أعمالها وسماسرتها وعقد العديد من الصفقات مع حكوماتها.

قال المناضل الجولانى (ولكن لا يزال وسيظل الشارع العربى ببسطائه ومثقفيه معاديا لإسرائيل ومناهضاً لمخططاتها الخبيثة) واستشهد بوجود مئات اللجان الشعبية المنتشرة فى أنحاء الوطن العربى والمناهضة للوجود الصهيونى عدا ملايين البيوت العربية التى استشهد أبناؤها بأيدى الصهاينة فى مصر وسوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن واليمن والسودان.

قال الصديق الفلسطينى (إننى أخشى على مصر لأنها تحتل بؤرة العقل الصهيونى فهم يدركون وزنها الحقيقى فى العالم العربى ولن أنسى مقولة هرتزل لليهود المصريين أثناء زيارته لمصر عام ١٩٠٤ عندما أكد لهم أن تحقيق الحلم الصهيونى فى فلسطين يبدأ من هنا من مصر وإذا قدر له أن ينتهى فسوف تبدأ نهايته

هنا أيضا فى مصر كما أذكر جيدا تصريح جولدا مائير بعد توقيع اتفاقية الصلح مع مصر عندما قالت (إننا نتطلع إلى أن نحقق مع مصر بالسلام ما فشلنا أن نحققا بالحرب والمعنى الكامن فى كلامها يؤكد أن الهدف تركيع مصر من خلال اتفاقية السلام أى كسر شوكتها وإدماجها فى المشروع الصهيونى الذى يستهدف العالم العربى كله).

قلت له (إننا نعلم ذلك جيدا ولكن مـ هو الجديد فى المخطط الصهيونى بالنسبة لمصر) أجاب (لقد سبقتينى بهذا السؤال إننى سمعت أخبارًا أن الجامعة العبرية تخطط لفتح فرع لها فى ميدان التحرير) قلت له (ماذا تقصد بميدان التحرير الذى لا يوجد به مكان يتسع للجامعة العبرية أو لغيرها) قال (إن الجامعة الأمريكية سوف تبيع مقرها القديم وتنتقل إلى مبنى جديد فى أحد الأحياء الجديدة فى مصر وتخطط الجامعة العبرية لشراء هذا المبنى).

أحسست بلسعة أفعى تلتف حول رقبتى وانتفضت صائحة بصوت مختنق (مستحيل أن يحدث هذا) وللأسف جاءت الأخبار الأخيرة كى تؤكد صحة ما قاله الصديق الفلسطينى فقد نشرت صحيفة الجمهورية فى صدر صفحتها الأولى فى الأسبوع الماضى خبراً يقول (هل تشترى إسرائيل مبنى الجامعة الأمريكية بالتحرير) ويشير الخبر إلى (أن مجلس أمناء الجامعة الأمريكية قد كلف بعض أساتذة إدارة الأعمال والهندسة لإعداد مناقصة لتحرير قيمة الشراء دون النظر إلى جنسية أو ديانة المشترى).

لقد توالت إلى ذاكرتى المشاهد التاريخية التى شهدتها مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد منذ عام ١٨٩٦ حينما وفد إلى مصر جوزيف ماركو باروخ حيث شرع على الفور فى تأسيس أول جمعية صهيونية فى القاهرة أطلق عليها جمعية

باركوخيا الصهيونية وقد نشطت هذه الجمعية فى الدعوة للحركة الصهيونية ونجحت فى إنشاء عدة فروع لها فى بعض المدن المصرية مثل الإسكندرية وبورسعيد وطنطا والمنصورة وسعت إلى جعل مصر مركز إشعاع للدعاية الصهيونية بالنسبة لليهود الشرقيين ثم جاءت زيارة هرتزل ١٩٠٤ لبحث مشروع الاستيطان اليهودى مع السلطات المصرية حيث احتفت به الأسر الرأسمالية اليهودية وكان ذلك إيذانا ببدء النشاط الصهيونى الفعلى فى مصر والذى تجلى فى تأسيس جمعية بن صهيون ابن يهود الإسكندرية عام ١٩٠٨ والتى أعلنت تبنيها لبرنامج مؤتمر بال الصهيونى عام ١٨٩٧ وبعد صدور وعد بلفور ١٩١٧ أصبحت الجمعية الصهيونية بالإسكندرية تتلقى التعليمات من المنظمة الصهيونية العالمية مباشرة ولم يعد دورها مقتصرا على الأنشطة الدعائية بل شاركت فى تسهيل عمليات الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وقد اتسع النشاط الصهيونى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدرجة ملحوظة فتشكلت منظمات الشيعة الصهيونية الطلائعية ورابطة نوادى المكابى. وفى عام ١٩١٨ قام ليون كاسترو بتأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية فى مصر وكان هذا الفرع صورة مصغرة للمنظمة الصهيونية من حيث النشاط الدعائى الاقتصادى والفكرى. كما كان فرع الكيرن كايميث (الصندوق القومى لليهود) وسيلة أخرى لجمع التبرعات من اليهود المصريين لشراء أراضى فلسطين.

وقد انتعشت الدعاية الصهيونية فى مصر إبان الحكم الفاشى فى إيطاليا وألمانيا فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وتحت ستار مقاومة الفاشية تشكلت الهيئات اليهودية ذات الولاء الصهيونى وقامت بدور خطير فى الترويج للفكر الصهيونى من خلال الادعاء بمقاومة الفاشية ونجحت فى اجتذاب اهتمام بعض كبار المثقفين المصريين مثل طه حسين ومحمد حسين هيكل وغيرهما حيث منحوها تأييدهم

وتشجيعهم سواء عن غفلة أو إدراك بحقيقة الدور المزدوج الذى كانت تقوم به (رابطة مقاومة الهتلرية) التى كونها يهود مصر فى ذلك الحين.

وقد شهدت مصر صدور مجموعة من الصحف الصهيونية التى تواكبت مع أهداف الحركة الصهيونية ومارست أدوارها بحذر ودهاء، مستهدفة توعية واستقطاب اليهود المصريين لصالح الحركة الصهيونية من ناحية والعمل على كسب تأييد الرأى العام المصرى بكافة الوسائل والأساليب من ناحية أخرى. واعتمدت الدعاية الصهيونية فى بداية القرن على الصحافة المصرية خصوصا بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ وظل الأمر على هذا النحو حتى بعد صدور وعد بلفوز ١٩١٧ ثم صدرت صحيفة إسرائيل ١٩٢٠ باعتبارها أول صوت إعلامى صهيونى باللغة العربية يصدر فى مصر وذلك بعد أن استكملت الحركة الصهيونية مقومات وجودها داخل المجتمع المصرى والتى تمثلت فى وجود تنظيمات ونواد ثقافية ورياضية وقاعدة عريضة من المساندة المصرية واليهودية. وعندما أقبلت الأربعينيات وأصبح تحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين قاب قوسين أو ادنى وانكشف تماما الخطر الصهيونى أمام أعين الرأى العام العربى والمصرى من خلال الصدامات الدامية بين الحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الحركة الصهيونية المدعومة بالمساندة البريطانية حينئذ توقف الصهاينة عن إصدار صحف صهيونية جديدة ولجأوا إلى أسلوب دعائى صهيونى جديد تمثل فى إصدار مجلة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودى صهيونى تلك الصحيفة هى الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر ١٩٤٥ وكان يرأس تحريرها طه حسين وتولت تمويلها أسرة هرارى اليهودى المصرية وكان اهتمامها بالقضية الفلسطينية هامشيا فى الوقت الذى امتلأت فيه الصحافة المصرية

بتغطية الصدامات الدامية التى بلغت ذروتها فى ذلك الوقت بين الفلسطينيين والصهاينة ولا شك أن موقف مجلة الكاتب المصرى لا يمكن إرجاعه أو تفسيره بالجهل بالقضية الفلسطينية لأنها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها فقد أسهمت فى الدعاية غير المباشرة للأهداف الصهيونية من خلال تجاهلها المتعمد ومعالجتها السطحية للصراع الصهيونى الفلسطينى الذى بلغ فى ذلك الوقت (الأربعينيات) ذروة اشتعاله.

لقد تلاقت فى مصر مختلف الاتجاهات الدينية والقومية فى الاهتمام بفلسطين وكانت مصر تعيش فى ذلك الوقت ملحمة صراع وطنى ديمقراطى طرفها الأساسى الحركة الوطنية المصرية بقيادة الوفد فى مواجهة السراى والاحتلال البريطانى وحلفائهم من أحزاب الأقلية. وكان الإنجليز يعارضون أى اقتراب مصرى من الشعب الفلسطينى والعربى. وقد نجحوا فى تنفيذ مخططاتهم من خلال الحكومات المصرية الموالية للاحتلال البريطانى ونذكر هنا موقف حكومة محمد محمود باشا ١٩٢٩ ضد ثورة الشعب الفلسطينى وتهديدها للفلسطينيين المقيمين بمصر بالطرد واتهامهم بإثارة الفتنة الطائفية كذلك اشتراك حكومة اسماعيل صدقى فى معرض تل أبيب الذى أقيم فى ربيع ١٩٣٢ متجاهله جميع التحذيرات التى وجهتها إليها الأوساط الوطنية الفلسطينية.

الجامعة العبرية

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الجامعة العبرية التى تم افتتاحها فى القدس فى ٢٥ إبريل عام ١٩٢٥ من أبرز الأحداث التى شهدتها فلسطين فى العشرينيات. وكان لهذا الحدث أصداء واسعة شملت الشعب الفلسطينى وسائر الشعوب العربية فى سوريا والعراق ومصر. وتجاوبت الصحف المصرية مع هذا الحدث إلى مدى بعيد

حيث حرصت على إبراز الصلة بين إنشاء هذه الجامعة وفكرة البعث اليهودى.

وترجع فكرة إنشاء الجامعة العبرية إلى عام ١٩٠١ عندما أصدر المؤتمر الصهيونى الخامس قرارا بتأييد الفكرة وفى عام ١٩١٣ قرر المؤتمر الصهيونى الحادى عشر إنشاء الجامعة وبدأ بالفعل فى شراء الأرض ووضع التصميمات ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى حال دون تحقيق ذلك المشروع ولما صدر وعد بلفور ١٩١٧ بعثت الفكرة من جديد وعهد إلى اللجنة الصهيونية التى جاءت إلى فلسطين عام ١٩١٨ بإنشاء الجامعة حيث وضع وايزمان الحجر الأساسى لبنائها فوق جبل الزيتون فى القدس ثم افتتحت رسميا عام ١٩٢٥.

ولقد قادت صحيفة كوكب الشرق حملة صحيفة واسعة النطاق مستهدفة إيقاظ الرأى العام المصرى وتنويره فيما يتعلق بحقيقة الهدف الذى أنشئت من أجله الجامعة العبرية بالقدس باعتبارها ليست وسيلة لنشر العلم والحضارة فى ربوع الشرق كما يدعى منشئوها ولكنها ركيزة علمية لتحقيق الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وتتساءل الصحيفة (عن معنى دعوة اللورد بلفور لافتتاح الجامعة العبرية وهو صاحب الوعد الذى يشكو منه أهل فلسطين لأنه سيقضى على كيانهم وهل يتفق هذا مع هيبة العلم وجلاله وهل لمثل هذا تفتتح جامعات العلم فى العالم).

وقد أعلن إضراب شامل فى فلسطين يوم قدوم اللورد بلفور وألقى خليل سكاكينى خطاباً وطنياً من فوق منصة الحرم الشريف بالقدس وعلى الفور اتخذ قرار يدعو اللورد بلفور إلى مغادرة البلاد التى دخلها على غير رغبة أهلها وبلغ إلى المندوب السامى البريطانى وقد اهتمت صحيفة البلاغ بتحليل أسباب احتجاج الفلسطينيين على زيارة بلفور فقالت (إن مقاطعة الفلسطينيين لزيارة بلفور هى ضد التصريح الذى يمثله بلفور وضد كثرة النازحين اليهود إلى فلسطين الذين منحهم

تصريح بلفور جواز المرور) وشبهت هذا الموقف بمقاطعة المصريين ١٩٢٠ للجنة ملنر التى جاءت للمفاوضة على أساس الحماية أما الأهرام ١٩٢٠ للجنة ملنر التى جاءت للمفاوضة على أساس الحماية أما الأهرام فقد وجهت نقدها للعرب قائلة (ان الصهاينة قد استخرجوا من تصريح بلفور أكثر مما فيه كثيراً ولم يستطع العرب أن يستفيدوا من رسائل مكماهون غير ما يشبه تمثيل الروايات لتسلية المتفرجين وليس الذنب ذنب الإنجليز الذين تهمهم مصلحتهم ولا ذنب الصهاينة الذين يطلبون وطنا بل ذنب الذين ناموا عن تصاريف الأمن وأضاعوا كل فرصة سانحة مع أنهم عرفوا أحلام الصهاينة منذ رسمها لهم زعماؤهم).

أما الحدث الأهم الذى أرتبط بافتتاح الجامعة العبرية فهو إيفاد لطفى السيد مدير الجامعة المصرية للاشتراك فى الاحتفال بافتتاح الجامعة وقد أثار اشتراك مصر فى افتتاح هذه الجامعة الصهيونية عاصفة من الاحتجاج من الفلسطينيين عبرت عنها الصحف والقيادات الوطنية فى فلسطين. وقد حاول لطفى السيد استدراك الأمر فقام بزيارة المعاهد الإسلامية وأصدر بياناً رسمياً أعلن فيه الظروف والملابسات الدقيقة التى أحاطت بمهمته فى القدس خصوصاً وأن الدعوة صادرة من معهد علمى من المفروض انعدام صلته بالسياسة كما هو شأن الجامعات العلمية. ولكنه أبدى إرتيابه من المبالغة التى أحيط بها الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية مما ينطوى على الترويج للدعوة الصهيونية خصوصاً عندما نمى إلى علمه أن لغة التدريس بالجامعة هى اللغة العبرية ولذلك امتنع عن إلقاء كلمته فى الاحتفال حتى لا يفهم من ذلك تأييد مصر للعنصر الصهيونى وتفضيله على العنصر العربى فى فلسطين.

والواقع أن الدعوة لحضور احتفالات الجامعة العبرية لم تقتصر على الحكومة

المصرية فحسب بل وجهت دعوة مماثلة إلى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية آنذاك وكذلك الدكتور أحمد زكى باشا فأهملاها ولم يردا عليها. وقد ذهب فريق من يهود مصر إلى الشيخ بخيت ورجوه باسم العلم أن يحضر ذلك الاحتفال فاعتذر بكبر السن ومشقة السفر فألحوا عليه وعرضوا عليه تسهيلات كبيرة فى السفر. فلما ضاق بهم ذرعا أوضح لهم بأنه لا يستطيع أن يحضر احتفالاً يسيء إلى أهل فلسطين الذين هم فى حالة حداد بسبب هذه الجامعة. وقد استغلت الدوائر الصهيونية حضور لطفى السيد لحفل افتتاح الجامعة العبرية من الناحية الدعائية إلى أبعد مدى وشاركتها فى ذلك وكالات الأنباء الأوروبية والصحف والإذاعات أن رويتر لم تذكر من أسماء من حضروا ذلك الحفل سوى اسم لطفى السيد. وقد علقت صحيفة (بالستين ويكلى) الصهيونية على ذلك بقولها (أن حضور مندوب مصر هذه الحفلة كان دليلاً على أن مصر العاقلة لا ترى فى الصهيونية رأى أهل فلسطين) وقد نوه يوسف بوتشو عضو مجلس الشيوخ المصرى وأحد اليهود المشاركين فى احتفالات الجامعة العبرية بعطف الحكومة المصرية على القضية الصهيونية.

هذه قصة الجامعة العبرية وموقف مصر منها فى زمن الاحتلال البريطانى والآن نحن فى زمن مشهد تصاعد الهيمنة الأمريكية وإحكام قبضتها على العالم العربى (وفى قلبه مصر لصالح إسرائيل ومخططاتها التوسعية فهل يشهد المصريون فصلاً دموياً جديداً فى صراعهم ضد الصهيونية فى قلب القاهرة وفى ميدان التحرير بالتحديد؟!!

العربى ٢٢ مايو ٢٠٠٦

14 أهالي الجنوب اللبناني- تحية وسلام

كنت عائدة لتوى من احتفالات إريتريا بالعيد العاشر للاستقلال عندما تلقيت دعوة المجلس الثقافى للبنان الجنوبى للمشاركة فى اللقاء العربى فى إطار التحالف من أجل عالم متضامن ومسئول احتفالاً بمرور العام الأول على تحرير الجنوب اللبنانى.. تدفق بداخلى طوفان من المشاعر الجياشة والذكريات التى أعادتنى إلى الحقبة المضيئة فى تاريخ جيلى، حقبة الستينات، حيث كانت حركات التحرر الوطنى فى أوج ازدهارها وتألقها وتزاحمت الذكريات عن حركات التحرر العربية والأفريقية التى عاصرناها، وعشنا معها معاركها، وشاركنا أبطالها وزعماءها احتفالات الاستقلال، فى الجزائر وزيمبابوى وناميبيا وإريتريا وجنوب أفريقيا وها هو جنوب لبنان. وعلى الطريق سوف تأتى حتما فلسطين التى قد لا نشهدها، ولكن جيل أحفادى سوف يشارك فيها.

فى إطار حديثى بالندوة عن المقاومة الوطنية لأساليب الاختراق الصهيونى للعالم العربى، تناولت التجربة المصرية فى مقاومة الغزو الثقافى والإعلامى الصهيونى، منذ وعد بلفور حتى قيام الكيان الصهيونى، وصولاً إلى اتفاقية كامب ديفيد المرفوضة من جموع الشعب المصرى، ثم ربطت المقاومة المصرية بالإعلام المقاوم فى الجنوب اللبنانى. كان اللقاء يضم نخبة من المفكرين والباحثين من سوريا وفلسطين وتونس والعراق والجزائر ولبنان وشيلى وبيرو وفرنسا. استضافتنا دار العناية بعبدا، وهى مؤسسة لبنانية تابعة للروم الكاثوليك، تهتم برعاية الأيتام

وضحايا الحرب اللبنانية، وقد بدأت نشاطها منذ عام ١٩٦٨، وتضم حاليا ٣٥٠ طفلاً يمثلون ١٨ طائفة لبنانية. ويرجع الفضل فى إنشائها إلى الأب سليم غزال نائب البطريرك، ويقول الأب أنطوان سعد مدير الدار. (لقد تعرضت الدار للقصف الإسرائيلى المباشر مرتين، خلال عامى ١٩٨٢، ١٩٨٥. ورغم ذلك استطعنا أن نستضيف حوالى ١٥ ألف لاجئ فلسطينى لمدة شهر كامل، بعد قصف المخيمات الفلسطينية، ويجاور دار العناية مبنى حلقة التنمية والحوار، التى تأسست عام ١٩٨٩، لإرساء فكرة الحوار وقبول الآخر بعد فشل جميع الطوائف فى إيجاد صيغة شاملة تضم جميع اللبنانيين. ويشارك فى أنشطة الدار قطاع عريض من الشباب اللبنانى، يمثلون جميع التيارات السياسية والدينية، من حركة أمل إلى الحزب الاشتراكى حتى جيش لبنان الجنوبى. وتقوم بتنظيم برامج ثقافية تربوية تتيح للشباب اللبنانى، من جميع الطوائف، اللقاء والتواصل.

كان برنامجنا مزدحماً بالمحاضرات والزيارات ورغم أن الوفود كانت تضم ضيوفاً تجاوز عمر بعضهم الثمانين عاماً، إلا أنه كان هناك إصرار ملحوظ من الجميع، على أن نزور كل شبر من أرض الجنوب، وأن تمتد أيادينا كى تصافح كل يد ارتفعت فى وجه العدو الصهيونى، وقاومت ببسالة حتى آخر قطرة.

البداية فى صيدا

كانت البداية فى صيدا. بدأنا بزيارة مبنى عتيق عمره ٤٠٠ عاماً، يطلق عليه اسم الخان، تمتلكه الحكومة الفرنسية، وتستأجره حالياً إحدى الجمعيات الأهلية اللبنانية، وقد خصصته للشباب الجنوبى لممارسة الأنشطة الثقافية والاجتماعية، ثم اندفعنا فى شوق ولهفة، إلى الأزقة والحوارى القديمة، نتواصل مع هؤلاء الصامدين، الذين ظلوا يقامون على مدى عقدين من الزمان، أهوال الحرب الأهلية

الآتية من الشمال، وجحيم الاعتداءات الصهيونية جنوباً. استقبلونا بالترحاب والحفاوة، وسط أكوام من السلع الشعبية؛ ملابس – صابون يصنع يدوياً – قباقيب خشبية – فاكهة – خضراوات، كنا نبادرهم بالتحية والتهنئة بالنصر، ونسألهم عن الأحوال، أجاب بائع القباقيب الخشبية المستنير قائلاً : لقد خسرت قوى الجنوب أكثر من نصف سكانها، نتيجة النزوح والهجرة، مما أدى إلى تدهور الأرض الزراعية، خصوصاً فى مرجعيون والنبطية وصيدا. وقام العدو الصهيونى بضم مساحات واسعة من الأراضي، وتحولت عدة قرى ومزارع لبنانية إلى مستعمرات صهيونية، مثل هونين وصالحا والمالكية والصالحية والمنصورة وطربيخا وأبل القمح، ويقيم سكان هذه القرى حالياً فى أحياء البؤس عند مدخل العاصمة بيروت، وتستكمل الحديث فتاة جنوبية شاركت فى المقاومة، واعتقلت بسجن الخيام، وتتاجر الآن فى بعض الخردوات النسائية. تقول (لقد أدى التهجير من الشريط الحدودى إلى انتقال السكان إلى شريط حدودى جديد، مؤلف من الأكواخ والمساكن العشوائية، يلتف كحزام جديد للبؤس حول بيروت الغربية والضاحية الجنوبية، تسكنه آلاف الأسر المهجرة، والمشردة من الجنوب.

خطة إنمائية

يستوقفنا سامر حجازى، أحد شباب قرية حولا، وقد اعتقل عام ١٩٩٤ بتهمة تعاونه مع الحزب الشيوعى اللبنانى، وأمضى ٧ سنوات فى سجن الخيام، يقول (لقد شاركت كل القوى الوطنية فى مقاومة الاحتلال الصهيونى للجنوب اللبنانى. وإذا كانت مسألة تحرير الجنوب تبدو معقدة على المستوى السياسى، لارتباطها وتشابكها مع أوضاع إقليمية ودولية، إلا أن القضية الاجتماعية، أو الشق الاجتماعى للقضية الوطنية، يبدو واضحاً وشديد الإلحاح، لأن إنهاء الاحتلال

الإسرائيلى، لابد أن تتبعه خطة إنهائية شاملة ومتكاملة، لإعمار القرى والمدن التى دمرتها الحرب، والمساعدة فى استصلاح الأراضى التى تحولت إلى أسطح صخرية جرداء. ولابد من الاستفادة من مياه الليطانى، وتوفيرها للقرى، التى مازالت تعتمد على البرك الترابية.

ويستطرد سامر وقد امتلأ وجهه بالغضب النبيل قائلاً: لقد استمد الجنوب شخصيته من أرضه ومناخه ومياهه، والبشر الذين يعيشون فوق أرضه. وظاهرة المقاومة تعكس الارتباط السحرى الوثيق بين الإنسان والأرض. وهذا هو سر صمود الجنوب. ولذلك برز الجنوب باعتباره خط الدفاع الاستراتيجى الأول عن وحدة وسيادة لبنان).

تذكرت حينئذ المعلومة التى زودنى بها الأب أنطوان، والتى تشير إلى أن تعداد الجنوب اللبنانى، حسب إحصاءات ١٩٩٢، يصل إلى ٣٨٪ من مجمل سكان لبنان، وأن المنطقة التى كانت تحتلها إسرائيل فى الجنوب، تضم ١٠٦ بين قرى ومدن، إضافة إلى ٧٥ مزرعة.

فى اليوم التالى انتقلنا إلى النبطية، وتعرف باسم قاعدة جبل عامل. وهى مدينة عريقة فى العالم العربي، وفيها تأسست أمهات المدارس الفقهية كما أنها عريقة فى المواجهة ضد إسرائيل، وكثيراً ما تعالت هتافات أبنائها فى الخمسينيات والستينيات: «يا طلاب الحرية مراكش عربية، والجزائر عربية»، وبدأت جولتنا بالمرور على قرية أرنون، التى اقتحم الشباب اللبنانى الأسلاك الشائكة، ودخلوها، وأجبروا الإسرائيليين على الانسحاب منها ٢٢ فبراير ١٩٩٩، ثم صعدنا إلى قلعة شقيف، التى تطل على مشارف فلسطين، ومررنا ببقايا الحصون والمواقع الإسرائيلية فى المنطقة، وعلى الجانب الآخر كانت ترتفع بيوت مرجعيون، شامخة. ثم مررنا بموقع

زفاته، بمحاذاة النبطية ومرجعيون. وكانت ترفرف على الجبال المحيطة، أعلام حزب الله، إشارة إلى تحريرها فى ٢٣ مايو ٢٠٠٠، اخذت السيارة تهبط وتدور فى حركة حلزونية مبهرة، فى منطقة الخردلة، على ضفاف نهر الليطانى، حيث قام الإسرائيليون بتدمير الشجر والبيوت فى هذه المنطقة. ولكن حزب الله حولها بعد التحرير إلى منتجعات سياحية، تتناثر على طول الطريق اللافتات الصفراء الضخمة، تشير إلى عمليات الاستشهاد، وأبرزها عملية الشهيد الحى، الذى نفذ العملية بمفرده ، وعاد سليما فى منطقة تل لوبيا.

أدقق النظر فى إحدى اللافتات اقرأ العبارة التالية (التحرير عيد الأعياد، نزع الألغام، بدء الحصاد) تساءلت وأجابني زياد ماجد الشاب الجنوبى، ابن قرية خربة سلم. يقول (تنتشر فى هذه المنطقة الألغام التى تركها الإسرائيليون. وقد قدمت الدول العربية، بمساعدة القوات الدولية، اسهامات كبيرة لإزالة هذه الإلغام. وكان الإسرائيليون يقيمون الحصون لحماية أنفسهم وكانوا يختبئون خلف جيش لحد العميل، الذى كان يتصدى مباشرة لضربات المقاومة. فى منطقة الوزانى على حدود فلسطين، وعلى امتداد الشريط الحدودى نشاهد المستعمرات الصهيونية، خصوصاً مستعمرة المطلة. ونقف لبرهة عند بوابة فاطمة، التى تقع على حدود كفر كلا المتاخمة للحدود الفلسطينية. وهناك يتفرع الطريق إلى طريقين، أحدهما ممهد يتبع لبنان، والثانى ترابى يتبع فلسطين. من هى فاطمة؟ أتساءل. ويرد رفيق الرحلة: تبدأ الحكاية أثناء فترة التهجير الفلسطينى عام ١٩٤٨ عندما أصيبت إحدى النساء الفلسطينيات بالرصاص الإسرائيلى، وسقطت مغشياً عليها عند هذه البقعة، ومنذ ذلك الوقت أطلق الأهالى على هذا المكان اسم بوابة فاطمة.. على مدد البصر تمتد أمامنا فلسطين المحتلة. مستعمرة المطله، وقرية أبل القمح، وخلفهما مستعمرة

كريات شمونة. وعلى الجانب الآخر تبدو من بعيد ضيعة الغجر السورية، التى تقع على الحدود السورية اللبنانية، ولا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلى. هنا تنتشر أعلام حزب الله الصفراء، وأعلام حركة أمل الخضراء، ويرتفع خلفها جبل جرمق الفلسطينى، وتتعالى أغانى النصر ينشدها شباب حزب الله يوزعون ميداليات تحمل صور الشيخ حسن نصر الله.

معتقل الخيام

أمام مدخل معتقل الخيام تظهر أمامنا مزارع شبعا، على الجهة الشرقية، فوق التلال، ثم تظهر خلفها على البعد قليلاً قرية مجدل شمس الجولانية. ويشير الأصدقاء الجنوبيون إلى قرية كفر شوبا اللبنانية، التى لا يزال جزء من أراضيها محتلاً.

دخلنا إلى مبنى المعتقل الذى أصبح مزاراً سياحياً، والذى ارتبط اسمه فى ذاكرتنا بأسماء العديد من المناضلين، الذى قاوموا ببسالة وحشية التعذيب الإسرائيلى، تتصدر واجهة المعتقل قائمة بأسماء الشهداء، الذين سقطوا داخل المعتقل منذ عام ١٩٨٤، وأسماء قراهم، وقد كتب أمام كل اسم، الطريقة التى عذب بها. قنبلة غازية، أو مرض، أو أسلاك كهربائية فى أماكن حساسة. وتجاور هذه القائمة لوحة تحمل أسماء السفاحين من السجانين، والمحققين والممرضين المزيفين، وأسماء قراهم.. مرجعيون – القليعة – الميه ميه – دير ميماس – العيشية – كفر كلا – برج الملوك – جزين. وعلى مدخل إحدى الزنازين بسجن النساء قرأت هذه العبارة (باحة للشمس للإناث كل عشرة أيام.. عشر دقائق) كانت ترافقنا كفاح عفيفى، مناضلة فلسطينية من مخيم شاتيلا، بدأت تحكى لنا تجربتها من داخل الزنزانة التى أمضت بها ٧ سنوات، منذ وقوعها أسيرة فى أيدى الإسرائيليين عام ١٩٨٨، وتم

الإفراج عنها عام ١٩٩٥. تقول: لقد شاركت فى عملية شهداء الانتفاضة من قوات صبرا وشاتيلا. وقد وقعت فى الأسر عقب إحدى العمليات، التى استغرقت ثلاثة أيام من السير المنهك، وسط الجبال. ثم وقعت مجموعتى فى أيدى أحد عملاء إسرائيل،، فى ضيعة كفر كلا. واشتبكنا مع قوات لحد، وأصيب اثنان من المجموعة وقام الإسرائيليون بوضعها فى طريقى كحاجز، لحماية جيش العملاء من المتفجرات، التى كنت أحملها. ولكننى قمت بتفجير بيت العميل، فهجمت على النساء وأوسعتنى ضرباً. فى تلك اللحظة تم القبض على، وأسرت فى معتقل الخيام. وكانت المعاملة سيئة جداً، لأننى كنت أنا وسهى بشارة الأسيرتين الوحيدتين. وسوء المعاملة يرجع إلى عدم التزام السجن بلائحة معاملة الأسرى والمسجونين. ولم يكن مسموحاً للصليب الأحمر بزيارتنا. وكنت فى البداية وحيدة فى زنزانة، ثم انتقلنا إلى عنبر به ٥ معتقلات لبنانيات، ينتمين إلى قرى الشريط الحدودى مركباً وعيترون وحولا. وقد ظل معتقل الخيام دون رعاية إنسانية من ١٩٨٥ حتى ١٩٩٥ عندما سمح للصليب الأحمر بالدخول. كنا فى قطيعة تامة مع العالم الخارجى. وقد أصبنا بالأمراض المعدية. وماذا تفعلين الآن يا كفاح؟ سألتها، وأجابت: لقد كرست حياتى لرعاية المعتقلين، وللقضية الوطنية، وقد خصصنا يوم ٣ يوليو للتضامن مع الأسرى والمعتقلين، وسوف نعتصم فى الشوارع حتى يتم توفير وظائف لنا. (لبنان لنا وليست للعملاء والسجن للعملاء وليس للشرفاء) كانت حوائط الزنازين مليئة بالشعارات وأسماء المعتقلين من جميع التيارات السياسية! الشيوعيين والقوميين وحزب الله.

زرنا زنزانة سهى بشارة التى أمضت بها ٦ أعوام، ولا تزيد مساحتها عن متر فى متر ونصف، تقول كفاح فى عام ١٩٨٨ وصل عدد النساء المعتقلات ٣٨ مناضلة،

كن يقيمن فى ٤ حجرات، مكتوب فوقها سجن النساء الجماعى. وهناك غرفة مخصصة للتحقيق، والتعذيب بالكهرباء.

وكانت هناك فتحة صغيرة يطل منها المناضل على أهله، حيث كان يستخدمها المحقق لإجبار المناضلين على الاعتراف.

فى باحة التعذيب توجد لافتة كتب عليها رفس - ركل - ضرب - كهرباء - صب مياه ساخنة - وضع الكلب إلى جانب المعتقل، ولافتة كتب عليها أسماء الذين استشهدوا على العمود تحت التعذيب.

أما غرفة الحمام، فقد ارتفعت فوقها لافتة تقول (الحمام كل عشرين يوماً ٥ دقائق ماء بارد) والمعروف أن هذه المنطقة تغطيها الثلوج فى الشتاء، وتصل درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر، وعند الخروج من مبنى المعتقل صادفتنا لافتة ضخمة تحمل صورة الأسرى الإسرائيليين الثلاثة، وقد كتب عليها (انتظرونا حيث تحتسبون وحيث لا تحتسبون).

العملاء

أخبرتنى دينا مقلد، إحدى الصامدات فى الجنوب، أن العملاء المجندين فى ميليشيات لحد، كان يبلغ إجمالى عددهم ٣٢٥٠ مجنداً، منهم ١٢٥٠ من قرى مرجعيون، وألف من قرى بنت جبيل، ٧٥٠ من جزين وشرق صبرا، ٢٥٠ من صاحبيا، ويبلغ عدد العاملين فى إسرائيل من أبناء المنطقة المحتلة ١٥٠٠ شخص، معظمهم من الفتيات كانوا يعملون فى الخياطة والمطاعم والفنادق، وقطف الثمار، ومصانع الشيكولاته.

ولاشك أن تجاهل الدولة اللبنانية ومؤسساتها للجنوب وأبنائه، وعلى الأخص

الأسرى المحررون، يضاعف الأزمة المعيشية، ويدفع بعدد كبير من أبناء الجنوب وقواه العاملة إلى القبضة الإسرائيلية، وهذا يشكل اختراقاً إسرائيلياً أخطر من الاختراق الأمنى، ويمثل أحد جسور التطبيع الإجبارى مع العدو الصهيونى. وإذا كانت الدولة قد حسمت موقفها من المقاومة، خصوصاً بعد تحرير الجنوب، باعتبارها ظاهرة صحية فى وطن محتل، إلا أن هذا الموقف لا يكفى وحده، بل يستلزم أن تصاحبه سلسلة من التدابير الاستثنائية، تعيد ربط الجنوب إدارياً وثقافياً وإعلامياً وسياسياً بالوطن. فهذا هو الموقف الوطنى الذى يتجاوز الولاءات الطائفية والمذهبية، ويحسم مسألة الانتماء للوطن، خارج الطوائف، فليس الجنوب لأهله فقط بل هو جزء من الوطن اللبنانى، ومسئولية تنميته وتطويره بعد التحرير لا تقع على أهله وسكانه فقط بل على جميع اللبنانيين. هكذا أكد لى جميع من قابلتهم فى الجنوب اللبنانى المحرر.

وأخيراً.. لقد ختمنا جولتنا فى الجنوب اللبنانى بزيارة متحف شربل فارس، الفنان التشكيلى، ابن قرية صربا الجنوبية، الذى عبر بالريشة والأزميل عن ملحمة الجنوب، وأبطال المقاومة الصامدين. وقد شاهدنا ذلك مجسداً فى تمثال لناجى العلى، وتمثال يتصدر باحة المتحف بعنوان رقصة المقاومة، وتمثال المقاوم المجهول، عدا عشرات اللوحات التى شارك بها فى العديد من المعارض اللبنانية والدولية، تحت عنوان كل الجهات جنوب – نهوض – انتظار – وجه بكرى.

الأهالى – ١٨ يوليو ٢٠٠١

15 مجدل شمس - تحية وسلاماً

الجولان .. سيطرت على مخيلتى عندما تلقيت الدعوة من قسم الصحافة بجامعة دمشق للمشاركة فى المؤتمر الذى ينظمه القسم عن «الإعلام العربى بين الاستقلال والتبعية».. وافقت على الفور من أجل أن تتاح لى فرصة زيارة الجولان . وبعد انتهاء أعمال المؤتمر نظم لى الزملاء السوريون الزيارة التى استلزمت استخراج تصريح رسمى، لأنها منطقة عسكرية . وبدأنا الرحلة فى الصباح المبكر.

تنتشر على امتداد الطريق القرى الصغيرة بيت جن، وحياتا الخشب وچياتا وحضر خان، وأرنيه وحميديه وسحيتنا ولافتات المدارس تحمل أسماء الشهداء. ويمتلئ الطريق على الجانبين بالأطفال يحملون حقائب الكتب على ظهورهم. عدد قرى الجولان ٢١ قرية : هكذا أخبرنى رفيق الرحلة. وقد قام الإسرائيليون بتدمير جزء كبير منها. رأينا أنقاض المنازل والمستشفيات والدكاكين والأندية تنطق بمدى الحقد الصهيونى الذى ذكرنى بما فعلوه فىياميت، عندما زرت سيناء عام ١٩٨٣، ورأيت كتاباتهم العبرية على الحوائط وترجمتها «سنعود قريباً». ولم يتبق من قرى الجولان سوى خمس قرى هى مجدل شمس، ومسعده، وعين قتيه، وبفعاثا والفجر. كان عدد سكانها عند بدء الاحتلال الإسرائيلى ١٤ ألف نسمة أصبح عددهم الآن ٢٩ ألف نسمة يعيشون على زراعة التفاح واللوز، كما أقاموا عدة مصانع صغيرة للجوارب والصابون وإصلاح السيارات، ويشترون لوازمهم الحياتية من الناصرة والضفة الغربية والقدس وغزة ، ولا يتعاملون مع محلات اليهود.. هكذا أكد لى

دليل الرحلة «أبو حسن».

المنطقة زاخرة بالخضرة والجبال المكسوة بالزهور وأشجار الفواكه ويظللها الجبل الأكبر، أى جبل الشيخ، الذى تتناثر فوق سطحه الرمادى رسوم بيضاء أقرب إلى الرسوم الطبيعية . أخبرونى أنها ثلوج وجليد.

استغرقت الرحلة ساعتين .. وعندما وصلنا إلى أعلى ربوة تطل على الخط الحدودى بين الجولان المحتلة وسائر أنحاء الجولان داخل الأراضى السورية.. وقفت مع رفاق الرحلة فوق التبة العالية أنظر إلى الضفة الأخرى عبر وادى أخضر اسمه عين التينة. سمعت صوت المرأة الجولانية تنادى شقيقها، عبر الأسلاك الشائكة، تتحدث من قرية مجدل شمس.. تسأله عن أحوال الشباب، وتقول له: «بيت أبو فارس بيسلموا عليك»، ويرد عليها شقيقها فى الجانب الآخر. على الفور. قفز إلى ذاكرتى المشهد نفسه عند مدينة رفح: حيث تفصل الأسلاك الشائكة بين شطرى المدنية، وأفراد الأسرة الواحدة المشطورة نصفين ، أحدهما المصرية والآخر فى رفح المحتلة ، يتبادلون الأخبار والأشواق ومعاناة الفراق على أبواب الخط الحدودي. التفت إلى يسارى فوجدت قبراً يحيطه سياج حديدى فى أعلى الربوة. فلما سألت عن هذا القبر أخبرونى أن صاحبه قد أوصى بأن يدفن على أبواب مجدل شمس إذا لم تكن الجولان قد عادت بعد إلى سوريا. وقد حدث. لم أتوقف عن الحوار الصامت مع المشهد كله. زهوة الطبيعة، وصمود البشر، وشموخ الجبل.. الذى تتناثر فوق قممه ٤ مراصد إسرائيلية يرصدون من خلالها كل ما يجرى داخل الوطن السورى. هاجمنى سيل من الذكريات عن المدن العربية التى اغتصبتها إسرائيل. ولم أفق إلا على صوت «أبو حسن»، دليل المنطقة، الذى تحدث بصوت يملؤه الشجن والإصرار عن مجىء الأهالى كل أسبوع فى يوم متفق عليه .. يتحدثون

إلى ذويهم من الأهالى، الذين يعيشون داخل قرى الجولان المحتلة من خلال الميكروفونات. وعندما تتزوج واحدة من بناتهم بأحد أقاربها فى الجولان المحتلة يقيمون الفرح وتأتى العروس من دمشق فى زفة كبيرة. وعند الأسلاك الشائكة يودعونها ويتسلمها جنود الأمم المتحدة .. حيث تجد عريسها وأقاربه فى انتظارها، ويستكملون الفرح داخل قرى الجولان المحتلة.

شكيب أبو جبل

فى المساء.. اصطحبتنى الدكتورة خيرية قاسمية، أستاذة التاريخ الفلسطينى بجامعة دمشق، إلى منزل مناضل جولانى أمضى ثلاثة عشر عاماً فى السجن الإسرائيلية ويعيش الآن فى إحدى ضواحى دمشق النائية، فى بيت تحيط به حديقة صغيرة يزرعها بنفسه وتضم كل أنواع الزهور والفواكه الجولانية. تتصدر بهو المنزل صورة كبيرة ظاهرة تضم أهالى مجدل شمس أثناء اشتباكهم مع العدو الإسرائيلى عام ١٩٨٢ احتجاجاً على قرار ضم الجولان وفرض الجنسية الإسرائيلية. كانوا يحملون لافتات كتب عليها (المنية ولا الهوية)، وتتناثر فوق حوائط البهو صور ورسوم ولوحات رسمها المناضل شكيب أبو جبل أثناء وجوده بالسجن عناوين مثل: ورد الشام (اسم زوجته)، و(زيت قنديلنا لن ينضب) و(الجولان عربية) و(أحلى بلاد بلادنا)، وعصفور فى قفص وكروت معايدة كان يوزعها على رفاق السجن لإرسالها إلى الأهالى فى المناسبات.

«أنا لا أملك مصباحاً أحرض به قومى على ثورة، ولكننى أملك مصباح تجاربى الشخصية». بهذه الكلمات بدأ حديثه معى. إنه شكيب يوسف أبو جبل، ابن الرامة فى الجليل الأعلى بفلسطين . ولد عام ١٩٢٥ عاش فى مجدل شمس المحتلة، أول بلد تشرق عليه الشمس فوق سفوح جبل الشيخ. كان والده جندياً فى الجيش العثمانى،

وكان يقرأ مجلة «الهلال». بدأ نشاطه فى الدائرة الأمنية عام ١٩٥١، وكانت مهمته اختراق جبهة العدو، وكشف عملائه داخل سوريا ولبنان. وقد تم تسريحه عام ١٩٦١ بعد انفصال مصر عن سوريا. بحجة انتمائه إلى الناصرية. تفرغ لزراعة بستانه حتى عام ١٩٦٤ بعد قيام ثورة آذار، حيث استدعى إلى دمشق للعمل مع الأمن القومى ضد إسرائيل، وظل معهم حتى عام ١٩٦٧. وبعد احتلال الجولان غادرها إلى دمشق وظلت الأسرة فى مجدل شمس وخلال الفترة من ١٤/ ٦/ ١٩٦٧ إلى ١٨/ ٢/ ١٩٦٩ عبر ٤٦ مرة إلى داخل الجولان المحتلة لتنظيم العمل السرى. وقد تم اعتقاله لمدة ٤ أشهر، ثم أطلق سراحه واستمر فى العمل خلف خطوط العدو حتى ليلة ٢١ يناير ١٩٧٣، حيث استشهد ابنه عزت عندما كان ينقل معلومات عسكرية و(٦٢ تقريرا عسكرياً و١٣ مجلة وصحيفة و٤ مخططات عن مواقع العدو فى الجولان) استولى عليها العدو وتم اعتقاله مع ٦٢ شخصياً بعد أن كشف العدو خلية كاملة للعمل الوطنى. يستكمل شكيب أبو جبل حديثه قائلا: وضعونا فى سجن الجلما بجوار حيفا، وقد تردد علىّ خلال ثلاثة أشهر حوالى ٧٠ محققا إسرائيليا: بعضهم يدعى انه طبيب والآخر تاجر تفاح .. وكان الهدف استنطاقى للحصول على مزيد من المعلومات، ثم احالونى إلى محكمة عسكرية مؤلفة من ثلاثة ضباط يمثلون الأسلحة الثلاثة: البرية والبحرية والجوية، ويرأسهم العميد همفرى، وهو صهيونى حاقد من أصل ألمانى.

وقد وجهوا لى ٢٣ تهمة وصدر الحكم بـ٣١٥ سنة منها ٣٠ سنة فعليه والباقى مع إيقاف التنفيذ.

تحدث المناضل أبو جبل عن حياته داخل السجون الإسرائيلية، فيقول: كان عددنا ٦ آلاف معتقل، منهم ٨٠ سوريا والباقى فلسطينيون من جميع الفصائل ..

شكلنا لجانا ثقافية ومالية وأمنية ولجنة مركزية داخل السجن . وخلال ١٢ عاماً قرأت ١١٨٤ كتاباً عن حركات التحرر الوطنى والآداب العالمية والقانون والتاريخ وحصلت على شهادة الثانوية على المنهج الأردنى. وقمنا بتنظيم مئات الإضرابات لمساندة حركات التحرر العربية والعالمية، واذكر منها سوابو فى ناميبيا، وجبهة تحرير السلفادور، والجيش الجمهورى الأيرلندى، وفيتنام ، وكوبا، وجنوب إفريقيا. وتمكنا فى السجن من إعدام ١٣ عميلاً قام العدو بدسهم بيننا، ومن أبرزهم العميل فائز القمحاوى الذى قام برش سموم العقم على مدارس البنات فى يعبد وفياطيه وجينين فى شمال الضفة الغربية. وقد صدر حكم الإعدام لقمحاوى وتم إعدامه فى سجن الرملة فى غرفة العبور، وقام بإعدامه الرفيق دوحان الذى كان محكوماً عليه بالمؤبد. وعندما جاء السجان لعد المساجين قلنا له: اخرجوا هذا الكلب من بيننا. وقال دوحان : «لقد أعدمته لأنه خان شعبه». وقد تم إحالة «دوحان» للمحاكمة، وصدر ضده حكم بالمؤبد لرابع مرة ! وهو يعيش الآن طليقاً فى مخيم فلسطين قرب دمشق، بعد الإفراج عنه فى عملية الجليل لتبادل الأسرى».

يستطرد أبو جبل – يملؤه الزهو والانتعاش – قائلاً: «لقد أفرج عنى يوم ٢٨ يونية ١٩٨٤، فى عملية تبادل الأسرى بين سوريا وإسرائيل، وكنت ضمن ٢٩٠ جندياً سوريا وقعوا فى الأسر أثناء الغزو الإسرائيلى للبنان ١٩٨٢. وقد تنقلت بين عدة سجون إسرائيلية. أمضيت ٥ أعوام فى سجن الرملة المركزى، حيث وضعونا فى غرف كانت تستخدم إسطبلات لخيل البوليس البريطانى. وأمضيت ٧ سنوات فى سجن جنين. وكانت المعاملة سيئة للغاية. ولم نتوقف عن الاشتباك اليومى مع البوليس الإسرائيلى من أجل المطالبة بتحسين أوضاعنا. وكان اتصالنا بالخارج عن طريق الصليب الأحمر.. وقد ظللت ١١ عاماً، لا أرى زوجتى وابنتى كاميليا وأميرة . أما

ابنى يوسف فقد كان معى بالسجن طيلة الـ ١٢ عاماً. وسائر أفراد أسرتى من الرجال.. تم اعتقالهم جميعاً خمسة من أبناء شقيقى فؤاد وحسن، وستة من أولاد عمومتى، وشقيق زوجتى، وابن شقيقها الآخر، وخطيب ابنتى وزوج ابنتى نجية. وتراوحت الأحكام بين ٩ سنوات و٣٠عاماً. وقد أفرج عنهم ولكن لا يزال العمل الوطنى السرى فى الجولان مستمراً ضد قوات الاحتلال حتى زواله.

ولعلمك فإن ربع سكان الجولان المحتل دخلوا سجون الاحتلال. أثناء تجوالنا فى منزله، طلبت منه أن يحكى لى قصة اللوحة الكبيرة التى تتصدر بهو المنزل . بدأ يتدفق بحماس، وهو يستعيد لحظة قيام المظاهرات. قال: بعد قرار ضم الجولان إلى إسرائيل فى ١٤ يناير ١٩٨١، نظم الأهالى إضرابا استمر ٦ أشهر رفضاً لقرار الضم والجنسية الإسرائيلية ، وتمكنوا من إفشال كل مخططات العدو من الترهيب والتهويد، والذى تمثل فى تغيير المناهج التعليمية والسيطرة على المدارس وموارد المياه وفرض الضرائب الباهظة. وقد رفض المعلمون تدريس المناهج الإسرائيلية.. فزج بهم العدو فى السجون .. كما حاول العدو الإسرائيلى تطبيق سياسة فرق تسد فى المجال التعليم بمحاولة إحياء مادة التراث الدرزى، وإلغاء التاريخ العربى للجولان فرد عليهم الشاعر نايف سليم من قرية البقيعة، بالجليل الغربى، وهو محكوم عليه بالإقامة الجبرية بمنزله منذ عشرين عاماً. قال فى ديوانه (جيليلات) إن درزتم أو كثلكتم أو شركستم.. الأرض بتتكلم عربى.

المرأة الجولانية

أخيراً .. جاء دور المراة الجولانية . تحدثت د. كامليا أبو جبل ، ابنة مجدل شمس والأستاذة بجامعة دمشق . كان عمرها ٩سنوات عندما بدأ الاحتلال الإسرائيلى للجولان . بدايتها يوم وفاة الزعيم عبدالناصر.. مظاهرات وهتافات . وكانت

الدبابة الإسرائيلية تحتل الساحة فى القرية . والتف حولها الشباب والأطفال .. حاصروها . وكان الحزن يملأ كل بيت وقمنا بتعطيل الدراسة إجباريا وظل هذا تقليدا نقوم به فى كل مناسبة وطنية. وظل الوضع هكذا حتى عام ١٩٧٣ عندما استشهد أخى عزت واعتقل والدى. كنت أقوم بحمل الرسائل والصحف والخرائط وتوصيلها لنقطة الحدود. وقد كلفنى شقيقى قبل استشهاده بعام بحمل ثلاث رسائل ملغمة إلى «كريات شمونه» ضمن العمل السرى ضد العدو. وبعد استشهاد شقيقى واعتقال والدى وجميع أقاربى .. أصبحت مسئولة عن رعاية الأسرة والبستان . وقد منعتنا قوات الاحتلال من الوصول إلى البستان بالمنطقة الحدودية. وكانت مصدر رزقنا الوحيد. وأعطيناه لشخص لم يحسن إدارته وعشنا على الكفاف .. وفى ذلك الوقت قمت بتشكيل خلية من الأقارب لمقاومة العدو الإسرائيلى وتنظيم عبورنا للحدود والاتصال بالسلطات السورية لتوصيل أخبار المعتقلين وأخبار العدو وتحركاته. كنا أربعة، ثلاثة شبان وأنا، وقد انكشفت الخلية فى ٢٩ يونية ١٩٧٤ ، واعتقل زملائي، وهربت أنا وابن عمى، وعبرنا قريتنا مجدل شمس إلى الحدود السورية ، ودخلنا إلى دمشق.

واستمرت الأسرة فى داخل الجولان المحتل. عشت عاماً كاملاً بمفردى حصلت خلاله على الثانوية العامة والتحقت بجامعة دمشق باستثناء من الرئيس ثم أحضرت الأسرة عن طريق الصليب الأحمر عام ١٩٧٥ وواصلت دراستى الجامعية ثم العليا حتى حصولى على الدكتوراه عن (يهود اليمن، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين). عندما حلت لحظة الوداع عانقونى وحملونى أمانة أن أزور قبر عبدالناصر وأقرأ له الفاتحة . وقد حدث.

الأهالى - ٢٠٠٥

الفصل الأخير

مراثي



1 د. حلمي نمر.. منظومة كاملة من القيم

ودعته جامعة القاهرة بجميع أجيالها، هؤلاء الذين زاملوه فى مسيرته الجامعية الطويلة من رفاق المهنة، وممن تتلمذوا على يديه وأصبحوا عمداء ورؤساء أقسام وأساتذة وباحثين لا يزالون يواصلون السعى محملين بكل القيم المقدسة التى غرسها فيهم.

والتى جسدها بمواقفه الشجاعة وانحيازه اللا مشروط للجامعة كمؤسسة علمية وتربوية وكمنارة للفكر وللضمير وكصرح مهيب يعلو فوق الأهواء والمصالح الفردية الضيقة، والتقلبات السياسية الطارئة، كان موكباً حزيناً شهدته أروقة الجامعة العريقة التى انتمى إليها الدكتور حلمى نمر ومنحها بسخاء وإخلاص عطاء علمياً ممتداً وباقة ناصعة من القيم والمبادئ كرسها بالعديد من المواقف المبدئية والمبادرات الجسورة والترفع عن الصغائر والمغريات، التى انحنت أمامها الكثير من الهامات والرؤوس كان المشهد الحزين يضم المئات من النساء والرجال من الأكاديميين، ورجال العلم والحكام الذين عاصروه وتعاملوا معه عن قرب استاذاً جامعياً بالمعنى الحقيقى ونقيباً لأبناء مهنته، ومواطناً مصرياً مهموماً بقضايا الوطن والجامعة، التفوا حول الجسد المسجى فى ساحة الجامعة يملؤهم الحزن والأسى وتملأ نفوسهم المرارة والجزع لأنهم كانوا يدركون أن رحيل هذا العالم الجليل لا يعنى فقط غياب أحد العمد البارزة فى تاريخ جامعة القاهرة ولكن يعنى فى الأساس غياب منظومة كاملة من القيم الجامعية والوطنية.

كان يملك بصيرة مضيئة يسندها ضمير لم ينطفئ بفعل بريق زائف أو مخاوف وهمية كان قوياً باستغنائه وترفعه المثير للانبهار والإعجاب لم تبهره المناصب، وبقى حلمي نمر نموذجاً وقدوة لجميع المخلصين والشرفاء الصامتين، والذين آن الوقت كي يترجموا أحزانهم إلى مواقف وسلوكيات تؤكد أن الراحل العظيم قد غادرنا بجسده فقط وسيبقى لنا تراثه الشامخ من القيم والمواقف.

الأهرام – ٢٢/٦/٢٠٠٠

2 د. خليل صابات أستاذنا الجليل

برحيل أستاذنا الدكتور خليل صابات تنطوى صفحة مضيئة من عصر الأساتذة العظام والرواد الأفاضل، لقد استطاع رغم انتمائه إلى اقلية مسيحية نزحت من الشام على مصر فى أوائل القرن إلا أنه استطاع بصبره واجتهاده أن يشغل مكانة مرموقة بين أساتذة الصحافة بل أصبح رائداً حقيقياً للدراسات الصحفية والإعلامية فى العالم العربى واستطاع بعطائه وذكائه أن يحتوى ويرعى بإخلاص جميع المخالفين له فى الرأى من تلاميذه العديدين، نجح فى أن يرعى الباحثين من مختلف التيارات الفكرية والسياسية، سواء من الإسلاميين أو الناصريين أو الماركسيين حتى هؤلاء الذين لم يحددوا لهم موقفاً من الحياة والفكر. كان حريصاً على أن يشارك فى أفراحنا وأحزاننا برحابة وإصرار وعذوبة نادرة.

معذرة أستاذنا الجيل لقد حملتنا أمانة نأمل أن نكون جديرين بحملها، وحاولت أن تغرس فينا قدسية الانتماء للعمل والتعليم والعطاء بسخاء وبلا شروط لطلابنا.. تعلمنا منك الجدية والإخلاص للمدرج والدقة والموضوعية لبحوثنا والاحترام وسعة الصدر لكل من يخالفوننا فى الرأى والمذهب والعقيدة.. تعلمنا منك مراعاة مشاعر الصغير قبل الكبير ومساندة كل طلاب العلم مهما اختلفت قدراتهم أو نواياهم لقد تركت لنا تجربة إنسانية زاخرة بكل ما هو جميل ومثير للتأمل.. تعلمنا منك كيف نزهو بمهنتنا ولا نضعف أو نهن أمام الصعوبات التى تحاصر هذه المهنة الجليلة. رسمت لنا درباً شاقاً تختلط فيه المباهج والآمال بالمعاناة والعثرات.

أستاذى الجليل اعذرنا إذا قصرنا ولم نمنح طلابنا ما منحته لنا من قدرة على تحمل حماقاتنا وصغائرنا وإحباطاتنا.. اعذرنا إذا قصرت همتنا وضاقت صدورنا بمن يخالفوننا فى الرأى والفكر.. اعذرنا إذا لم تهبنا الأقدار قدرتك الفذة على احتواء نقاط الضعف البشرية لدى المكابرين والمحصورين فى ذواتهم الضيقة.. اعذرنا إذا لم نتحل بقدر ضئيل مما أوتيت من الصبر والمثابرة والدأب وسعة الصدر. يمر أمامى الآن شريط طويل من الذكريات منذ نهاية الخمسينيات لم تتخلف أثناءها دقيقة واحدة عن محاضراتك ولم ترد سائلاً أو ساعياً للتزود من خبراتك وعلمك.

أستاذى الجليل حقاً إنك لم تنجب أبناء تقليديين ولكن ربيت خمسة أجيال ستظل وفية لتراثك وتاريخك المضيء معلماً مخلصاً للمهنة وصديقاً صدوقاً وأباً عطوفاً لجميع من تتلمذوا على يديك وما أكثرهم ستظل روحك وتعاليمك منارة لنا وإننا على الدرب لسائرون.

الأهرام – ١٤/٦/٢٠٠١

3 مصر يا أمّه يا بهية

المشهد الأول

الزمان: ٨ سبتمبر ١٩٨١

المكان: مطار القاهرة الدولى

انطلق صوت رجالى من ميكروفون المطار يدعو الطفل هشام ممدوح طه إلى التوجه إلى خارج المطار للالتقاء بجدته السيدة بهية فهمى أبو زيد، التى كانت فى انتظاره بعد عودته من ألمانيا بصحبة أمه التى كانت تشارك فى أحد مؤتمرات الأمم المتحدة عن التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا وفلسطين.. كان الجو سبتمبرياً معتدلاً. فى ذلك الوقت، أصدر الرئيس السادات أوامره بإعتقال ١٥٣٦ معارضاً من المثقفين والمفكرين وأساتذة الجامعات وكان من بينهم أمه التى كانت تعارض اتفاقية كامب ديفيد لإنهاء الصراع بين مصر واسرائيل، وذلك فى إطار لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ضد الغزو الصهيوني والامبريالى التى كونتها جمعة المثقفين المصريين آنذاك. ذهب الطفل إلى جدته بصحبة أبيه واقتاد العسكر والدته إلى وزارة الداخلية لاستكمال إجراءات ترحيلها إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية.

تابعت الجدة بهية سيارة الشرطة التى كانت تقل ابنتها حتى أبواب الداخلية، وصلت مع ابنتها حتى أبواب الداخلية، وصعدت مع ابنتها إلى حجرة رئيس المباحث الذى حاول تهدئة الموقف وإقناع الابنة بكتابة التماس إلى الرئيس السادات

كى يعفو عنها. وهنا انبرت الجدة بهية بشموخ وثقة قائلة: نحن لا نتنكر لمبادئنا وابنتى لن تكتب أى التماس، لقد علمتهم منذ طفولتهم أن القضية الفلسطينية هى قضيتنا الأولى، وأن الصهيونية هى عدونا الأكبر.. فكيف تطلب من ابنتى أن تتراجع عن موقفها؟ مقابل ماذا؟ أن يعفيها السادات من السجن؟ الأشرف لها أن تسجن مع باقى زملائها وزميلاتها الوطنيين الحقيقيين.

تأثر الضابط بموقف الأم. وقال لها: «كلنا وطنيون، وما بنقبلش إسرائيل التى قتلت إخوتنا فى أربع حروب واغتصبت الأرض الفلسطينية، ولكن موقفنا محرج وما باليد حيلة». ردت الأم بهية بحزم: «الأفضل أنكم تخلصوا الإجراءات وتأخذوها على السجن. إحنا ما بنخافش وبنقول رأينا ولو على رقبتنا، وبنتى ما خانتش وطنها.. هى بتمارس حقها كمواطنة مصرية والسادات مش وطنى أكثر مننا.. ولعلمك أن أخويا محمد فهمى أبو زيد هو الذى أوى السادات عندما كان هارباً ومتهماً فى قضية مقتل أمين عثمان، وإحنا أصحاب فضل عليه».

حاول الضابط أن يهدئ الجدة بهية بكلمات غامضة غير مقنعة. ولما بلغ مرحلة اليأس من اقناع الابنة والأم بكتابة الالتماس، أمر بترحيل الابنة إلى سجن النساء بالقناطر.

فى اليوم التالى توجهت الجدة إلى نقابة الصحفيين، ثم حزب التجمع وأبلغتهم بأنها سوف توكل محامياً خاصاً غير المحامين الذين سوف يتم تكليفهم بالدفاع عن المعتقلين، ومنهم ابنتها، وكتبت خطابا تشجيع ابنتها وأرسلته إليها على عنوانها الجديد فى سجن القناطر.

بعد اغتيال السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، سمح للأهالى بزيارة المعتقلين، ذهبت الجدة بهية تحمل الأطعمة والحلويات والفاكهة والصحف والأشياء الخاصة التى

تفضل ابنتها استخدامها، والتقت بابنتها فى ساحة السجن، رأتها من نافذة حجرة المأمور. وكانت الابنة تقف على بعد ٥٠ متراً تحت الشجر الوحيدة فى فناء السجن. وكانت الجدة تتوجه كل يوم اثنين إلى السجن حاملة الأطعمة والفاكهة والصحف لكل رفيقات ابنتها فى العنبر، وفى المساء كانت أصواتنا تنطلق بالغناء (مصر يا أمه يا بهية يا أم طرحه وجلابيه) كانت تصر على عدم إعطاء المأمور رسائل لابنتها مما أقلق الابنة. وفجأة صاحت الدكتورة لطيفة الزيات وهى منكبة على قراءة الصحف والمجلات التى أحضرتها الجدة بهية: لقد اكتشفت أنها كتبت رسالتها إلى ابنتها داخل وجوه الكاريكاتير وبين سطور الصحف: «ذهب خالد محيى الدين لمقابلة مبارك»، «نبهت على المحامى بالتواجد مبكراً فى مقر المدعى الاشتراكى». «الطلبة وكلوا محاميا باسمهم للدفاع عنك».

وهكذا شريط من الذكريات يبدأ منذ كنت فى الثامنة من عمرى وكانت حرب فلسطين على أشدها نسمع عن عصابات الهاجاناه وشتيرن الصهيونية التى تداهم البيوت الفلسطينية وتبقر بطون النساء الحوامل وتمثل بجثث النساء والأطفال والشيوخ. كانت أمى تقرأ الصحف وتحكى لنا عن جرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطينى، غرست بداخلنا أنا وأخى شجرة أسمها فلسطين، وظلت ترويها حتى شببنا عن الطوق. وكان أخى يحلم بأن يكون ضابطاً لكى يشارك فى تحرير فلسطين، وكنت أنا أحلم بأن أكون صحفية لكى اكتب عن فلسطين. ومرت السنون.. وكان موضوعى للدكتوراه عن: (القضية الفلسطينية والصحافة المصرية).

المشهد الثانى

انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤:

فاتحنى رفعت السعيد حول ضرورة نزولى فى انتخابات مجلس الشعب عن دائرة

جنوب أسيوط. ترددت، وفى القطار المتجه إلى الوجه القبلى فاتحت أمى فى الموضوع، شجعتنى، وقالت «ليه لأ هما الرجالة اللى بيمثلوا الصعيد فى البرلمان أفضل منك أو أذكى منك أو أقدر منك على خدمة أهاليهم.. طول عمرك منتمية لقضايا الفقراء وهمومهم وجه الوقت اللى ترفعى فيه صوت أهلك المنسيين فى الصعيد وتدافعى عن مصالحهم.. ليه ترفضى الفرصة.. أى نعم هى تجربة مش سهلة لكنها تستحق إنك تخوضيها وأنا معاك وكل الشرفاء حيقفوا جنبك». خجلت من ترددى وحسمت أمرى، وقررت أن أخوض التجربة. وفعلاً كانت تأتى معى أسبوعياً من القاهرة إلى أسيوط ثلاثة أيام فى القرية وأربعة أيام فى القاهرة، أثناء موسم الامتحانات، وكان عميد الكلية قد هددنى بأننى لو تغيبت يوماً واحداً عن الامتحانات؛ فسوف يحولنى إلى مجلس تأديب. والواقع إنه قد نفذ تهديده رغم انتظامى فى حضور لجان الامتحانات ومساندة زملائى لى. فقد دأب على تلفيق بعض التهم الوهمية التى كانت تستلزم مثولى أمام مجالس التأديب بكلية الحقوق شهرياً، وقد برأتنى منها جميعاً وصار أعضاء هذه المجالس أصدقاء حميمين، بعد أن وضعوا لى خطة الدفاع ضد افتراءات رئيس الجامعة وعميد الكلية. وأذكر بهذه المناسب المساندة النبيلة التى لقيتها من بعض أساتذة كلية الحقوق عميدها آنذاك الدكتور فتحى سرور ود. مأمون سلامة ود. نعمان جمعة.

كانت أمى بهية فهمى تتابع معى يومياً فى المساء حصاد جولاتى الانتخابية فى قرى ونجوع جنوب أسيوط وتضع معى خطة اليوم التالى، وتحدد لى نوع الجلباب الذى ارتديه والمكياج الخفيف وتنصحنى بعدم التدخين أثناء جولاتى. وحذرتنى من تناول الطعام أو الشراب لدى البعض ثم الاعتذار عن عدم ذلك لدى الآخرين لأنه سوف يمس كرامتهم ويثير الحساسيات ويؤثر على مواقفهم منى. وكانت تجمع

كبار السن من نساء ورجال العائلة والعائلات المجاورة وتسألهم عن علاقات النسب والمصاهرة بينهم وبين العائلات فى القرى المجاورة، وتستقى منهم معلومات تفصيلية عن أوضاع الفقراء فى هذه القرى، ثم تقدم لى تقريراً فى المساء.. وقد ذهبت معى إلى كنيسة القرية مرتين مما كان له تأثير كبير على أقباط القرية الذين انتخبونى بالإجماع، وكانت تجمع أطفال القرية فى المندرة الكبيرة وتوزع عليهم الفانلات التى تحمل رسم الساعة (الرمز الانتخابى للتجمع) ومعها قصص وحواديت صغيرة للأطفال تحكى لهم بعضها، وتترك لهم الباقى ليقرأوه وحدهم. كذلك زارت بيوت الفلاحين الفقراء والأفارقة التى تتناثر على أطراف القرية. وكانت تشرح لهم البرنامج الانتخابى وتصحح لهم المفاهيم المغلوطة التى كان يروجها مرشح الحكومة وكان آنذاك محافظ أسيوط زكى بدر. وقد نجحت فى تجنيد مجموعة كبيرة منهم لمرافقتى فى جولاتى الانتخابية وحراستى من الكمائن التى كان يدبرها الخصوم.

ذكريات خاصة

كانت أمى تحدثنى عن شقيقها الطيار محمد فهمى الذى أوى السادات أثناء هروبه من المحاكمة فى قضية مقتل أمين عثمان فى الأربعينيات. وقد أرسلت له خطاباً تذكره بموقف شقيقها منه وتطلب أن ينقلنى من المعتقل إلى المنزل باعتباره المكان الأمين الوحيد رداً على قوله بأنه يتحفظ علينا «فى مكان أمين».. فى سجون مصر ومعتقلاتها، فأرسل لها ضابطين استقبلتهما فى منزلها، وأخبراها بأن الرئيس السادات يرسل لها تحياته ويؤكد لها أن ابنتها فى الحفظ والصون، وأنها ستخرج قريباً. كانت تذكر لى دوماً مواقف شقيقها الوطنية وشجاعته فى الدفاع عن كرامة مصر وعن عبد الناصر خصوصاً عندما أعلن استعداده لمبارزة السفير التركى رداً على الإهانة التى وجهها هذا السفير إلى جمال عبد الناصر عندما قابله فى أحد الاحتفالات فى نهاية عام ١٩٥٣،

وتحدث بسخرية واستهانة عن ثورة يوليو ورجالها.

كانت أمي أول من يقرأ الصحف في الصباح، وقد تعلمت من والدها المهندس الذي شارك في تشييد الكثير من الكباري والمدارس والمباني الحكومية في أنحاء مصر أن تستيقظ مبكراً لتأدية الصلاة ثم قراءة الصحف بالصورة التقليدية أي لا تترك شاردة أو واردة في الصحف دون أن تقرأها بتمعن. كانت تبدأ دوماً بالصفحة الأولى ثم صفحة الوفيات وبريد الأهرام وباب الحظ والأعمدة وأخيراً الإعلانات والحوادث. وفي السنوات الأخيرة كانت تبدي تذمرها من طغيان الإعلانات على المواد التحريرية. كانت في مطلع شبابها تكتب في مجلة الفصول خلال عامي ١٩٣٣-١٩٣٤ التي كان يصدرها الصحفي القدير محمد زكي عبد القادر، وكانت توقع بالحروف الأولى من اسمها مراعاة للتقاليد الصعيدية؛ إذ كانت تركز على قسوة التقاليد وضحاياها من النساء من خلال سرد قصص واقعية عن مآسي الفتيات اللاتي يتم تزويجهن رغماً عنهن لأشخاص في عمر آبائهم ولهم زوجات وأولاد، وعن حرمان البنت من الميراث حرصاً على إبقاء الأرض الزراعية في حوزة الأسرة، وعن ختان الطفلة الأنثى بقسوة على يد الداية المتجبرة وعن حوادث الثأر بين العائلات وإبادة أسر بكاملها ضحية لهذه الموروثات الضارة.

لقد رحلت أمي بهية مصر بعد أن سكبت في روحي بإنسانيتها الفذة الانتماء لملح الأرض: فقراء الوطن، ولكرامة الإنسان التي لا يعادلها شيء في الحياة، وفتحت أمامي نوافذ المعرفة الرحبة، كما رسخت في ضميري قيم العدل والاستنارة ودربت حواسي على التقاط الجمال والبهجة والمحبة من وجوه الأطفال الأبرياء.

سلام عليها يوم ولدت ويوم رحلت، وإنا على الدرب لسائرون.

جريدة الأهالي ١٣/ ٨/ ٢٠٠٣

4 طقوس الأحزان في الأمصار والأوطان

قدمنا العزاء لزوجة الفقيد وقريباتها وخرجنا إلى الخلاء حيث تتناثر الكراسي والآرائك المصنوعة من جذوع النخيل، جلسنا نرقب حلقات الرقص المكونة من الشباب والأطفال والكهول، كانوا يلبسون أزهى وأجمل الملابس الإفريقية الجديدة دعاني صديقي الأستاذ الإفريقي للمشاركة في إحدى الحلقات وعلى نغم الموسيقى الإفريقية التي تثير الشجن، والتي كان يعزفها مجموعة من الأقزام يجلسون تحت إحدى الأشجار الضخمة.

اهتم الفراعنة بطقوس الميلاد والحياة ولكنهم أعطوا للرحيل اهتماماً أكبر وجسدوا هذا الاهتمام في بناء مقابر ضخمة على شكل أهرامات مهيبة للحكام وحواشيهم وقدسوا الحياة الأخرى «حياة ما بعد الموت»، وتبنى المصريون الديانات السماوية ولكن ظلت الطقوس الفرعونية راسخة في الوجدان تتشكل حسب الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، ولكن جوهرها ظل جزءاً من نسيج الشخصية المصرية تتجدد مظاهره وطقوسه بتوالي الأجيال وبتعدد الديانات. وقد أتاحت لي رحلاتي العديدة في كثير من البلدان والأوطان فرصة المشاركة في بعض مناسبات الحزن العربي والإفريقي والهندي والياباني والأوربي عدا مشاركتي الدائمة في طقوس الحزن المصرية في محيطها الصعيدي على الأخص.

في اليابان، وقفت على باب المعبد أرقب النساء المتشحات بالملابس السوداء بصحبة ذويهم من الرجال جاءوا لإحياء الذكرى السنوية لأحد أقاربهم، دخلوا

المعبد واستمعوا إلى بعض الخطب عن مآثر الفقيد ثم أدوا بعض الصلوات القصيرة أمام بعض التماثيل المقدسة، ثم خرجوا إلى القاعة الملحقة، والتى كانت تمتد بوسطها مائدة مستطيلة حافلة بأنواع الشراب اليابانى وأيضاً المأكولات اليابانية ذات الأحجام الرمزية وبعض الفواكه الجافة.

فى نيجيريا، شاركت فى جنازة والد أحد أساتذة الإعلام وقد أقيمت فى إحدى القرى التابعة لقبائل اليوربا، وجدت زوجة الفقيد يحيط بها بعض قريباتها وجيرانها يتصدرن القاعة ويجلسن على الأرض وتلتف عليهن ملاءات بيضاء ويسندن ظهورهن إلى الخداديات، وقد ربطن رؤوسهن بشريط ذى لون تيركوازى، ولما سألت لماذا اللون التيركواز، قيل لى لأن الفقيد كبير السن وقد أتم رسالته فى الحياة إذ أنجب ١٨ من الأولاد والبنات منهم الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعات والمعلمات ورجال الدين وقد أنجب هؤلاء ٤٨ ولداً وبنتاً وترك لهم ثروة كبيرة من المواشى والأراضى المزروعة وبعض المناجم.. لذلك لا تضع زوجته شارة غامقة اللون بل يضعن فوق رءوسهن إشارة مبهجة مثل التيركواز والبنفسجى.. قدمنا العزاء لزوجة الفقيد وقريباتها وخرجنا إلى الخلاء حيث تتناثر الكراسى والآرائك المصنوعة من جذوع النخل، جلسنا نرقب حلقات الرقص المكونة من الشباب والأطفال والكهول، كانوا يلبسون أزهى وأجمل الملابس الإفريقية الجديدة. دعانى صديقى الأستاذ الإفريقى للمشاركة فى إحدى الحلقات وعلى نغمات الموسيقى الإفريقية التى تثير الشجن، والتى كان يعزفها مجموعة من الأقزام يجلسون تحت إحدى الأشجار الضخمة.. انضممت إلى إحدى الحلقات وبعد أقل من ربع ساعة انسحبت وأخذت مكانى على الأرائك الخشبية، وإذا بإحدى الشابات تتقدم نحوى بكأس خشبى صغير ممتلئ بالشراب الوطنى لديهم، ثم دعونى لتناول الطعام على

مقربة من المكان وسط الغابة الفسيحة.. وجدت موائد الطعام ممتدة لأكثر من مائة وخمسين متراً وتزخر بالخراف والغزلان المشوية والأسماك والطيور والفطائر والخضراوات الإفريقية المطهوة خصيصاً لهذه المناسبة علاوة على الفواكه الإفريقية المميزة. لاحظت أن الجميع يقبل على الطعام بشهية وبلا حزن. بعد انتهاء الطعام اقتربت منى الحفيدة الكبرى للفقيد، وبدأت فى الغناء ثم شدتنى لمشاركتها فى حلقة الرقص مرة ثانية، ولما اعتذرت لها قالت لى إن الفقيد يستحق أن نرقص ونغنى له لأنه أكمل رسالته وتركنا متعلمين وأثرياء ولنا نفوذ فى كل أنحاء نيجيريا.. فلماذا نحزن؟!

قلت لها نحزن على الفراق، ردت قائلة: لقد فقد فى أيامه الأخيرة حاسة السمع وكنا نتخاطب معه بالإشارة وظل مقعداً عن الحركة لمدة عام ونصف العام. وكان قد بلغ الثانية والسبعين من عمره، وقد لا تعلمين أننا نؤمن بأن جسده فقط هو الذى يفنى أما روحه فهى تذهب إلى حيث يوجد الأجداد الذين سيفرحون بذهابه إليهم، ولن يكون وحيداً بل سوف تلتقى أرواحهم، فالأرواح لا تموت.

بعد مرور عدة سنوات، ذهبت إلى غانا ودعتنى زوجة الوزير المفوض بالسفارة المصرية للذهاب معهاً إلى إحدى الجنازات لأنها كانت تعلم مدى اهتمامى برصد أشكال الحياة الإفريقية فى الأحزان والأفراح. ذهبت معها كانت الجنازة لطفل في التاسعة من عمره، وكانت أمه فى حالة شديدة من الحزن وتجلس فى إحدى زوايا المنزل ويحيط بها قريباتها.. وبعد تقديم واجب العزاء جلسنا على كراسى متواضعة متناثرة فى الساحة الممتدة أمام المنزل.

كانت حلقات الرقص بطيئة وحزينة وقد تشكلت جميعها من كبار السن والشباب، وكانت النساء المسنات يطلقن أحياناً بعض الآهات الموجعة للقلب

والمصحوبة بكلمات العديد الشجية المشحونة بالأسى.. ورغم أننى لم أفهم اللغة (الماندينج) إلا أنها كانت غنية عن أى تفسير. ورفضت أن أتناول الطعام، ولكنهم ألحوا على فى ضرورة مصاحبة الأم فى حلقة الرقص كى يخففوا عنها وطأة الحزن ففعلت وأحسست بالراحة.

عندما ذهبت إلى فرنسا فى مهمة علمية فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى، كنت أقيم فى إحدى العمارات القديمة فى ساحة السوربون، وفى يوم ما كنت أسرع القفز فوق السلالم كى ألحق بموعد مع أحد الأساتذة فى الجامعة.. استوقفنى فى الدور الثانى مشهد إحدى جاراتى تتناقش مع زوجة البواب وهى برتغالية الأصل ثم سلمتها المفاتيح وانصرفت بسرعة، وتأملت وجه زوجة البواب البرتغالية فوجدته ممتلئاً بالحزن الممزوج بالغضب سألتها عما بها قالت: إن هذه الجارة قد تركت لها المفتاح كى تقوم بإجراءات الدفن لوالدتها التى ماتت فى الصباح، وانصرفت هى إلى عملها.

جلست على السلالم كى ألتقط أنفاسى وأفيق من الصدمة.. كيف وما هذا الذى يحدث فى فرنسا؟ إلى هذا الحد تهون الأمهات على الأبناء والبنات؟ فليذهب العمل إلى الجحيم، ولكن قدسية الأم والأب وقدسية الموت أيضاً لها طقوسها فى جميع الأديان والحضارات.

فى الهند، شهدت طقوس حرق الميت، ولكن من القاعة الخارجية للمحرقة إذ لا يسمح بدخول المحرقة ذاتها إلا للمقربين جداً مثل الأبناء والأخوات والأزواج والزوجات واصطحبنى أصدقائى فى موكب توديع رفات الميت الذى أصبح رماداً، أودعوه فى صندوق من خشب الصندل المعطر، وذهبنا إلى النهر المقدس حيث قام أكبر أبنائه وأكبر إخوته بنثر رماد الجثة التى احترقت، وكانت زوجة الفقيد ونساء

الأسرة يولولن فى لوعة مثيرة للأسى، وكان الموكب الحزين يضم رجالاً مطأطئى الرؤوس ونساء يلتف حول أجسادهن السارى ذى الألوان الداكنة ويحاولن مواساة زوجة الفقيد وأسرته.

فى صعيد مصر وعلى الأخص فى القرى القابعة فى حضن الجبل الغربى كانت طقوس الحزن منذ نيف وأربعين عاماً لدى الغالبية من أهالى الصعيد تبدأ بعجن الطين ووضعه فوق رءوس النساء وعلى صدورهن وإقامة المعادات التى تتكون من الندابات اللائى يضربن بالدفوف، يحيط بهن حلقات النساء يلطمن الخدود ويضربن على الصدور، ويستمر الوضع هكذا حتى يسدل الظلام أستاره، ويعلن الليل عن مجيئه، حينئذ تصطف مواكب النساء فى المنادر وتبدأ المعددة فى ذكر مآثر الفقيد من خلال الأشعار الشعبية التى تلائم الحالة مع مراعاة عمر الفقيد. ولا يسمح بإشعال المواقد فى منزل الفقيد، بل تعتمد الأسرة على الصوانى القادمة من بيوت الأقارب والجيران، ويستمر العزاء مفتوحاً أربعين يوماً للنساء والرجال. أما فى السنوات الأخيرة فقد تغيرت كثيراً هذه الطقوس، وأصبح العزاء مقصوراً على الأسبوع الأول ثم «الخمستاشر» ثم «الأربعين» واختلفت تماماً عادات وضع الطين، كما حل مكان المعددة قارئة للقرآن للنساء فى داخل المنادر وقارئ للرجال فى الصوان الخارجى، ولكن لا يزال المنادى الذى يجوب الأزقة والحوارى معلنا عن وفاة أحد أهالى القرية مستمراً فى أداء دوره واختفت تقريباً طلعة الخمستاشر لزيارة القبور وتوزيع الكعك والفاكهة والبلح واستمرت طلعة الأربعين والمراسم والأعياد.

أما فى عاصمة المحروسة ومدنها الكبرى فتتحول طقوس العزاء إلى منتديات لتبادل الأخبار الاجتماعية والمشاعر فى مجالس النساء والصفقات واتفاقات العمل

فى مجالس الرجال، وتتنافس العائلات على إقامة مراسم العزاء فى المساجد الكبرى مثل مسجد عمر مكرم الذى ظل يحتكر هذا التقليد سنوات طويلة.. وفى دول الخليج لا تزيد فترة الحداد على ثلاثة أيام تقام خلالها الموائد العامرة بالأطعمة والمشروبات ومحظور ارتداء الأسود بل يلبسون الملابس الكتانية البيضاء ومحظور على الزوجة مغادرة المنزل بعد وفاة زوجها لمدة أربعة أشهر (فترة العدة).

أدام الله أفراحكم وأنزل السكينة والصبر الجميل بقلوبكم.

الأهالى – ديسمبر ٢٠٠٣

5 رثاء - رحيل مناضلة

أستاذتى الجليلة فاطمة زكى
ومعلمتى الحبيبة الغالية

كم سنفتقدك عند مطلع كل شمس وعندما يبدد ضوء القمر بعض مساحات العتمة التى تحاصرنا. لقد كانت البداية فى رحاب جامعة القاهرة فى نهاية الخمسينيات، وكنا مجموعة من الطالبات بكليات الآداب والحقوق والتجارة وكان لقاؤنا نقطة تحول فاصلة فى حياة كل منا، حيث بدأنا رحلة المعرفة والنضال التى مازلنا نواصلها حتى اليوم سيراً على دربك واستلهاماً لنضالك الدؤوب من أجل إزالة القبح والشوائب التى تشوه وجه الوطن ومن أجل مساندة كل طفل وامرأة ورجل لمحت فى عيونهم احتياجاً أو ضعفاً أو تعاسة أو حيرة.

كان لقاؤنا الأخير فى المؤتمر الرابع للصحفيين الذى عقد بنقابة الصحفيين فى الشهر الماضى كنت أعلم أن معاناتك من المرض لن تعوق مطلقاً قدراتك الهائلة على قهر الآلام وكسر تعليمات الأطباء والحرص على الالتحام بالبشر حيثما وجدوا، هؤلاء البشر الذين انتميت إلى فقرائهم ومستضعفيهم ومنحتهم أجمل سنوات العمر إنصاتاً لآلامهم وتعاطفاً صادقاً مع انكساراتهم ومخاوفهم وقدرة روحية رفيعة على تحمل نزواتهم وحماقاتهم وإيماناً جسوراً بمكنوناتهم الخفية التى تحمل الخير والذكاء والرغبة الأصيلة فى إثراء الحياة والبناء من خلال الأغانى للحياة والجهد الصادق والتواصل الحميم مع الآخرين.

لقد لمحت فى لقائنا الأخير كيف تحول جسدك النحيل إلى طاقة نور تمشى

الأرض تشع صفاء ومحبة وحكمة تمنيت دوماً لو أمتلك ذرة صغيرة من صفاتك وحكمتك وعطائك السخى بلا شروط لكل من اقتربوا منك. دائماً كنت أراك تسرعين الخطى كى تلحقى بإحدى جاراتك لمساعدتها فى رعاية طفل معوق أو استقبال طفل جديد وكنت المحك على رأس المظاهرات فيسرى فى كيانى الاطمئنان والثقة فى المستقبل كنت نبعاً لا ينضب للأمل ومستودعاً أزلياً للتفاؤل ولا أنسى كلماتك لى فى آخر مظاهرة ضمتنا فى ميدان التحرير منذ عامين، عندما قلت لى: «نحن لا نملك رفاهية اليأس علينا أن نواصل وهناك أجيال جديدة واعدة سوف تكمل المسيرة لا تيأسى، ولكن لا تتوقفى عن الغضب فهو الجذوة التى تدفعنا إلى الأمام».. وكانت تشير بأصابعها إلى عشرات الفتيات والفتيان الذين يهتفون للقضية الفلسطينية وللسيادة الوطنية وضد الهيمنة الأمريكية معلمتى الجليلة اهدئى واطمئنى فمهما اشتدت الأزمات وحاصرتنا السحب السوداء، فإن هناك أياماً مقبلة سوف تشهد الثمار التى وضعت بذورها فى أرضنا الطيبة، وإننا على الدرب لسائرون.

جريدة الأهالى ٢٨ إبريل ٢٠٠٤

6 في دوار محمد عودة

أستاذى الجليل... لا أدرى من أين أبدأ معك وأنت تسكن الروح والوجدان ويستظل عقلى بكل ما تعلمته من مشوارى الطويل معك ومن مسيرتك المضيئة ومن فيض أبوتك وأستاذيتك وإنسانيتك المتدفقة . محمد عودة تعلمت منك كيف أنتمى للوطن من قراءة وجوه فقرائه والتعلم من خبرة تاريخه العربـو [illegible] ثواره النبلاء تعلمت منك وتعلم منك جيلى والأجيال التى جاءت بعده [illegible] الالتزام بالكلمة المكتوبة وضرورة الحفاظ على قدسية المهنة الجليلة التى ننتمى [illegible] والدفاع عن حقوقها وكرامتها وثرائها.

كنت لنا بوصلة تنير لنا طريق الحياة وكانت حاجتنا لك تشتد كلما أدلهمت الظروف وحاصرتنا معوقات المتربصين بالشرفاء وما أشد احتياجنا إليك فى تلك الأيام والليالى حالكة الظلام . . وعندما كانت تختلط علينا الأمور ويستعصى علين فهم ما يحيط بنا من كوارث وأزمات كنا نسرع إلى بيتك الذى تحول إلى دوار للمحبين والتلاميذ المخلصين بل إلى مرفأ نلجأ إليه كى نستلهم منك الحكمة والأمان واليقين وكى نلملم أشلاء النفوس التى أرهقتها عوادى الزمن وقهر اللاهثين خلف السلطة والنفوذ والثروات المحرمة على حساب كل المقدسات «الوطن والدين والأخلاق» وكنا نفارقك وقد تجددت الدماء فى شراييننا وسطعت أمامنا الحقيقة الغائبة.

كنا نلجأ إليك وقد استبد بنا القلق على مصير الكادحين الشرفاء فى هذا الوطن المنكوب دوماً بحكامه المستبدين وسارقى جهد وعرق وحقوق كل البسطاء

والكادحين وهؤلاء المصادرين على مستقبل أجياله . كانت كلماتك المليئة بالثقة فى قدرة شعبنا العظيم تبدد القلق وتفتح نوافذ الأمل . وكنا نندهش ونتعجب لهذا القدر الهائل من التفاؤل الذى لا ينضب وإصرارك على أن الأيام القادمة تحمل الخلاص إذ كنت دوما توصينا بأن نتسلح بالتفاؤل الواعى والتمسك بالثوابت وألا ندع تفاصيل الحاضر المحزنة تسرق منا القدرة على الاستمرار والصمود والثقة فى المستقبل لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نحقق أهداف أعدائنا أعداء الحياة والتقدم وهذه هى الهزيمة الحقيقية فى نظرك . هل أبدأ معك من عام ١٩٥٨ عندما كنت شابا متدفقا بالحيوية والحماس والتقيت بنا مجموعة من الشباب الجامعى جئنا إليك فى صحيفة الشعب كى نكتشفك وتكتشفنا جئنا إليك مبهورين بكتابك العظيم عن الصين الشعبية وكانت كلماتك لنا آنذاك هى بداية الطريق الصحيح الذى كانت تزداد وعورته كلما خطونا فى دروبه الشاقة ولكنك كنت كالشمس تبعث فينا الدفء بحرارة إيمانك الأسطورى بهذا الشعب وقدراته الخفية . كنت تضيف لنا بسخاء غير مسبوق خبراتك الحياتية واستبصاراتك الذكية وفهمك العميق لمجريات الأحداث والتقلبات التى مرت بها مصر خلال الفترة الناصرية . وعندما جمعتنا سجون التناصر وطرة فى معارك النضال ضد استسلام السلطة الساداتية أمام الضغوط الصهيونية والأمريكية لو تفارقك روح السخرية من الحكام المهزومين وواصلت دورك الشجاع فى بث روح المقاومة ومواجهة الطوفان بالحكمة والصبر والمثابرة [illegible] النضال بالكلمة والموقف فى زمن تراجع فيه الكثيرين وخبا الأمل [illegible] العديد من رفاق الطريق. وعندما طوقتنا أسوار الفساد وعلت أمواج [illegible] واشنطن وإسرائيل لمعت عيونك ببريق التحدى وكانت [illegible] سيفك القاطع (ارفعوا هاماتكم واشحذوا إرادتكم ولا تستسلموا فمرحلة الحالية ليست سوى انعطافة قصيرة فى تاريخ الوطن الممتد وسوف يأتى

يوم قريب تنقشع فيه هذه السحب السوداء وتسطع الشمس من جديد حينئذ سوف تختفى الخفافيش وينتحر الأقزام ولصوص الوطن).

أستاذى الجليل.. لقد كنت تستعيد معنا خبرة الثورات وحكمة الرواد العظام الذين أضاءوا حياة شعوبهم نهرو فى الهند وماوتسى تونج فى ين وهوشى منه فى فيتنام وجيفارا وكاسترو فى كوبا والليندى فى شيلى وعرابى فى مصر. كنت دائما تؤكد لنا أن المناضل الحقيقى هو الانسان الذى يواجه تحديات الحياة فى أبسط صورها وأعقدها بنفس روح الالتزام والتسامح والفهم الواعى لتناقضات البشر وعاديات الأيام الصعبة.

كنا نخرج من دوارك الرحب الذى كان يتسع بقدر رحابة واتساع قلبك وعقلك لنا وكنا نتساءل فى انبهار ممزوج بالحيرة (كيف احتفظت بهذه القدرة النادرة على الحب والوعى والتفاؤل رغم كل ما عاصرته من محن وصعاب صادفت مسيرة جيلك ومسيرك الشخصية).

ما أبدع ترفعك عن الصغائر والمنافع الشخصية لم تسع يوما إلى منصب صغير أو كبير أو اقتناص مصلحة شخصية! أو منفعة زائلة وبقدر ما أدهشنا ترفعك النبيل لكننا تعلمنا منه الكثير وتعلمنا أيضاً من قدرتك الفذة على احتضان جميع الأجيال من النساء والرجال الذين أسعدهم الحظ من الاقتراب من محيطك وكم سعدوا بسخائك الإنسانى النادر. كما تعلموا وسعدوا بمتابعة معارك الفكرية التى كنت تخوضها بشفافية دون إسفاف أو سقوط فى متاهات أو صراعات شخصية.. لقد كان وضوحك الفكرى ونزاهتك الأخلاقية منارة لنا وستظل قدوة لكل من يحمل قلماً للدفاع عن كرامة هذا الوطن وحقوق أبنائه وبناته. لقد تركت لنا مخزوناً هائلاً من المحبة الواعية والعطاء غير المشروط واليقين والأمل والثقة بقدرات الإنسان

المصرى.

أستاذ عودة ..

كم سنفتقدك وأى قدر هائل من الفرح والأمل سوف يطوق بنا عندما نستعيد ذكريات جلسات لتعلم منك وجولاتنا فى أحياء مصر الشعبية التى كنت تسميها الرئة الحقيقية للشعب المصرى الصابر والصامد والقادر على خلق الفرح وانتزاعه من وسط الأحزان والملمات. تتدفق الذكريات ولا ننسى لمساتك الحنونة وتشجيعك المتواصل وتعاطفك مع تعثراتنا واحباطاتنا وحماقاتنا.

لقد تعلمنا منك كيف أن القراءة الواعية هى المفتاح الأساسى للاستنارة ولكن أيضا الالتحام بالبشر ومشاركتهم همومهم وسعيهم الدائم للنهوض والفهم الواعى والحنون لأحوالهم وإحباطاتهم هو الخطوة الحقيقية لمساعدتهم على إزالة القبح والظلم والاستكانة والهزيمة النفسية وفتح طريق الأمل والخلاص أمام اليائسين والميئسين .

أستاذ عودة ..

سلام عليك فى حياتك وفى رحيلك يا أنبل من عرفت وأصدق من رافقت وإننا على الدرب لسائرون.

العربى الناصرى ٢٠٠٦

7 || وداد متري – قلب بحجم الوطن

فى وداع مواطنة مصرية:

من أين أبدأ معك يا رفيقة الدرب الطويل هل أبدأ بإضراب المعلمين الذى تصدرت قيادته ودفعت أنت ورفاقك الأجلاء الثمن غالياً عندما حرمتكم سلطة العسكر من ممارسة المهنة الجليلة التى انتميت إليها مهنة التعليم وتربية الأجيال ولكنك استمررت تمارسينها بإصرار وصبر مع كل محبيك وأصدقائك وجيرانك وأقاربك وتركت فى قلوب الجميع وعقولهم نقطة نور تستعصى على الانطفاء مهما مرت السنوات وتوالت نكبات الزمن الردئ.

وداد مترى أين يبدأ معك الزمن وكيف ينتهى أو يتوقف وكيف تواتينى الذاكرة كى أسرد مئات المواقف التى وقفت فيها شامخة صامدة محبة تساندين من خذلتهم الظروف وأنهكت قواهم الكوارث الصغيرة والكبيرة وتمسحين دموع المكلومين فى فقد أحبائهم وتشيعين البهجة والفرح فى قلوب ونفوس المكدودين وترفعين من شأن أى انتصار أو نجاح صغير يحرزه شاب أو شابة فى مقتبل حياتهم وتتابعين بدأب وصبر أخبار الوطن وانكساراته من الصحف والتليفزيون والمنتديات والمظاهرات كيف احتمل ومعى كل الرفاق غياب وجهك الذى يضم فى ملامحه وتعبيراته شجن المصريين منذ بداية الخلق يتجسد فى عيونك وسخرية المصريين الرفيعة وقدرتك الفذة على انتزاع البسمة من شفاهنا وسط أكوام الهموم التى تحاصر الوطن والإنسان على أرضنا الطيبة التى أنجبتك وشهدت مسيرتك الشاقة

وإصرارك على تجميل وجه الحياة واحتضان أهالى المناضلين وصغار المحبين وغرامك بتاريخ الوطن وعشقك لليالى القمرية فى صعيد مصر وفى العراق والسودان وأصوات محبيك التى لا تتوقف عبر الهاتف من جميع الأوطان تسأل بلهفة عن أخبارك كى تطمئن على أنك مازلت هنا تفتحين أبواب الأمل والتسامح وتسكبين بهدوئك وابتسامتك الشفافة شحنة رقيقة من الطمأنينة والسكينة فى نفوس هؤلاء الذين لا تتركين مناسبة خاصة أو عامة دون أن تستضيفهم فى دارك التى اتسعت رغم ضيق المكان بقدر رحابة قلبك وفيض عشقك للبشر وللجمال وقدرتك الفذة على التقاط كل ما هو إنسانى وأصيل لن أنسى يوم أن اصطحبتنى إلى منزل والدة الشهيد محمد عثمان وظللت طوال الطريق تحكى لى عن قصة بطولة هذه السيدة ودورها العظيم فى إخفاء المناضلين رفاق إبنها عن عيون مضطهديهم وجلاديهم ولن أنسى عشرات المواقف لأخرى التى كنت تخفين فيها آلام المرض وقسوته وتصرين على المشاركة دون تفرقة أو تمييز بل مع الجميع وكأنه حق مقدس لنا ما أبهاك وما أروع تكوينك الإنسانى المرهف وسأظل أتذكر دوماً حرصك رغم المرض وظروف رعايتك لزوجك المريض على المشاركة سواء بحضورك أو استضافتنا فى رحابك فى أفراحنا غنيت معنا وفى أحزاننا تدفقت دموعك وفى إنكساراتنا كنت بلسماً ودواء وفى إفطار رمضان كانت مائدتك السنوية تضم جميع الأجيال من المسلمين والمسيحيين من أهل اليسار واليمين دون تفرقة.

وداد مترى لن تغيبى فقد غرست ونسجت وأحببت وتفانيت وربيت واحتضنتى وساندت ورعيت دون كلل أو ضجر ولن يذهب جهدك سدى بل سوف يتوج حصادك بمئات الزهور الواعدة المعطاءة التى سوف تنشر الحب وتشيع البهجة وتعطى المثل وتواصل مسيرتك الجليلة يا أخلص وأعز من رافقت وعرفت وإننا على الدرب لسائرون.

الأهالى ٢٠٠٧

8 رثاء- رحيل ليلى مندور وزينب عزب

فقدت هذا الأسبوع صديقتين من أعز وأخلص الصديقات فى زمن ندر فيه الوفاء والصدق، الصديقة الأولى عاصرت معى حقبة جميلة من عمر جيلنا فترة الدراسة الجامعية عندما كانت الجامعة تزهو بطلابها وأساتذتها وتفسح أفقاً رحباً لفكر الأساتذة ونشاط الطلاب، هذه الصديقة ليلى مندور ابنة أستاذنا الجليل الدكتور محمد مندور الذى تعلمنا منه الكثير فى محاضراته وندواته وجلساته المنزلية، درس فى الجامعات الألمانية والفرنسية وعاد إلى الوطن محملاً برسالة ظل يبثها لطلابه ورفاقه على مدى ثلاثين عاماً، أسس علم النقد الأدبى والمسرحى فى مجال تخصصه وشارك بجسارة العالم وجرأة المناضل الحقيقى فى جميع المعارك التى خاضها الوطن فى الخمسينيات والستينيات وطورد وسجن ولكنه ظل قابضاً على الجمر ضارباً المثل والقدوة لتلاميذه فى كافة أنحاء الوطن وأصبح أسمه رمزاً لمدرسة كاملة من المبدعين والمناضلين المؤمنين بحق هذا الوطن وأبناءه فى حياة جديرة بالكرامة والسيادة والعدالة والحرية، كانت محاضراته أنشودة علمية فى حب الوطن وكيفية النهوض به، وحلقات متصلة من الفكر النبيل والثقافة الرفيعة المنتمية لصناع الحياة الحقيقيين، تزوج أستاذنا المناضل إحدى تلميذاته النجيبات الشاعرة ملك عبد العزيز وأنجب منها خمسة أبناء كانت ليلى كبراهم تخصصوا فى الاقتصاد والهندسة والطب والجيش الوطنى أعطوا لوطنهم الكثير واستشهد أوسطهم العقيد ماجد مندور فى حادث الطائرة المشئومة التى راح ضحيتها الفريق

أحمد بدوى أبرز أبطال حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتزعم أحدهم – خالد مندور – اللجان الطلابية المساندة للثورة الفلسطينية بكلية الهندسة واضطر تحت وطأة المطاردة الأمنية إلى الهجرة المؤقتة إلى إحدى دول الخليج وظلت ليلى وحسام وطارق يواصلون عطائهم للوطن بإخلاص ومثابرة فى الإذاعة ومعهد التخطيط وطب الأسنان.

أما الصديقة الثنية فقد عاصرت مرحلة أخرى من عمر جيلنا فقد كانت زوجة لأستاذنا الجليل عبد الملك عودة أطال الله عمره، والذى كان ولا يزال سنداً وفياً لطلابه وزملائه وانتمى إلى الساحة المهمشة القضايا الافريقية التى أثراها بغزارة إنتاجه وظل وفياً لهمومها وتحدياتها حتى الآن، هذه الصديقة الشاعرة زينب عزب التى شاركت منذ كانت طالبة بكلية الآداب فى المعارك الفكرية والوطنية وكانت رمزاً مشرفاً للمرأة المصرية ثم اكتفت بأن تعيش فى ظل زوجها الأستاذ الأكاديمى المرموق ولكنها لم تتوقف عن العطاء والمشاركة من خلال أشعارها ودواوينها العديدة التى تميزت بالشفافية والصدق والمعاناة الإنسانية كتبت للوطن والإنسان العربى فى اليمن والجزائر وللأجيال القادمة من خلال أشعارها للأحفاد «البوابات الخضر» وظلت سنداً لكل من اقترب منها ومن تلاميذ زوجها، وأذكر أننى عندما عشت تجربة زواج نجلى واجتاحتنى أحاسيس لم أكن أتوقعها أحاسيس الأم التى تنجب وتربى وتصادق أبنائها وتتخذ منهم رفقاء الحياة ثم تفاجئ بأنه فى زمن محدد لابد أن تقدمهم هدية للمجتمع، وإن عليها أن تفطم منهم كما فطموا منها وهم أطفال صغار انتحيت ركناً فى غرفة قصية وانخرطت فى موجة بكاء أسطورى ثم مسحت دموعى وتذكرت هذه الصديقة النبيلة وكانت وقتها فى إعارة لزوجها باليمن الشقيق كتبت لها رسالة أودعتها أحاسيس كأم لطفل وحيد أصبح رجلاً سيزف بعد لحظات إلى رفيقة أخرى؛ عاشت معى زينب عزب كافة معاركى ضد

الظلم والتعنت الذى لاقيته فى جامعتى ولا أنسى محادثتها التليفونية وهى تبكى لأمى وتخبرها بأننى قد نقلت من الجامعة إلى وزارة الإسكان فى أعقاب أحداث سبتمبر ١٩٨١ ورد أمى المذهل كى ترفع معنوياتها إذ قالت لها لقد تعودنا على مواجهة الظلم ولكن إيماننا الدائم بالحق وعدالة السماء تقوينا وتشد من أزرنا، لا تحزنى يا زينب إنها شدة وتهون وستعود ابنتى ورفاقها إلى الجامعة وحأفكرك.

وقد حدث بالفعل وعدنا إلى الجامعة واستقامت الأمور بعض الوقت وها نحن نواصل السير على الجمر رحم الله أمى وزينب عزب وليلى مندور وإننا على الدرب لسائرون.

صوت الجامعة ٢٧ مارس ٢٠٠٦

فهرس الكتاب



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة